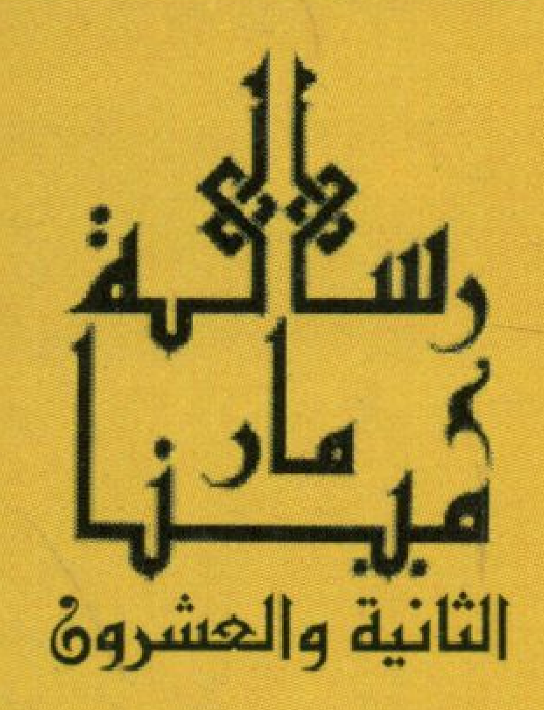
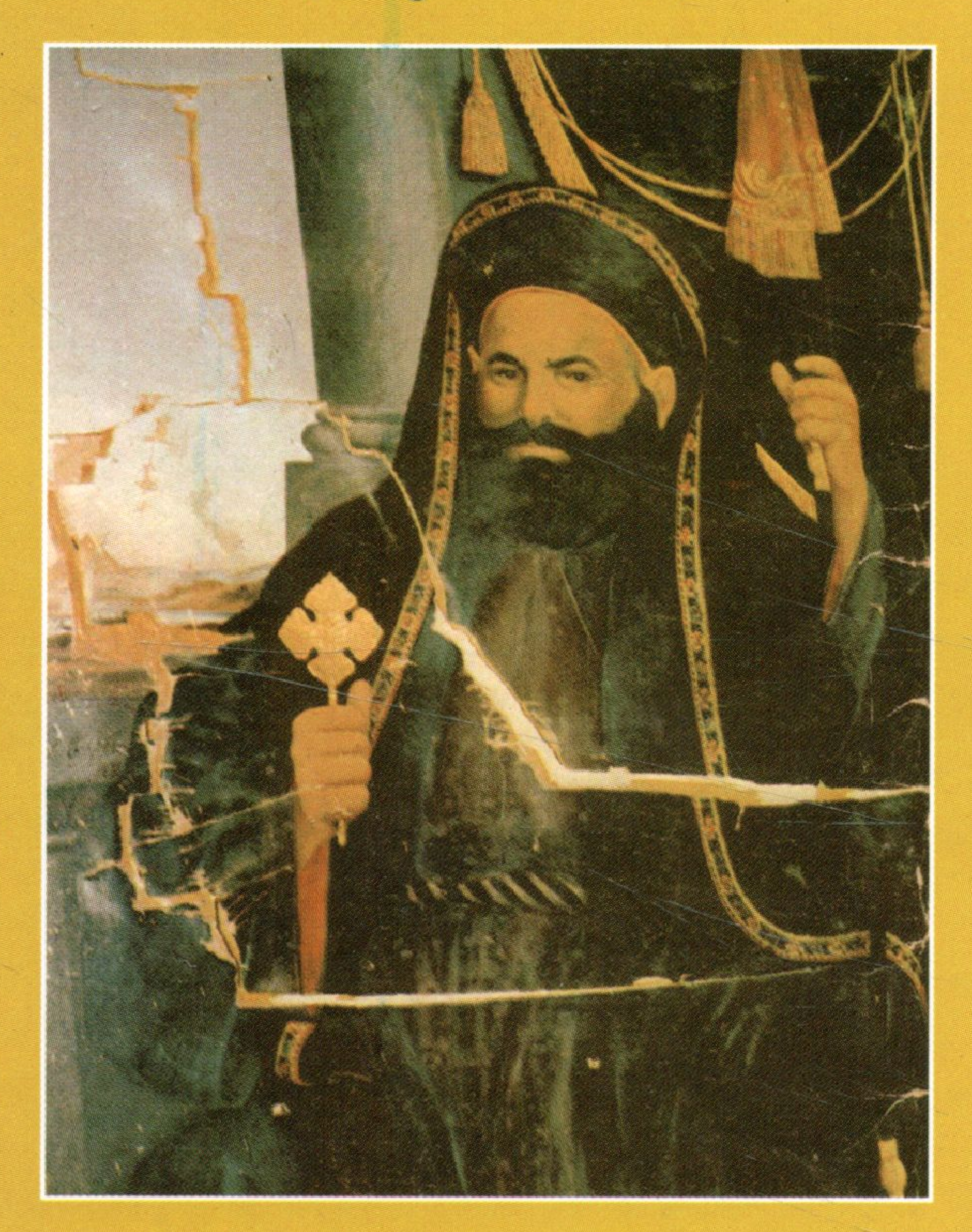


مكتبة دير السريان العامر بوادى النطرون
جمعية مارمينا العجايبي بالإسكندرية

الكتاب التذكارى بمناسبة



مرور مائة وخمسين عاماً على نياحة

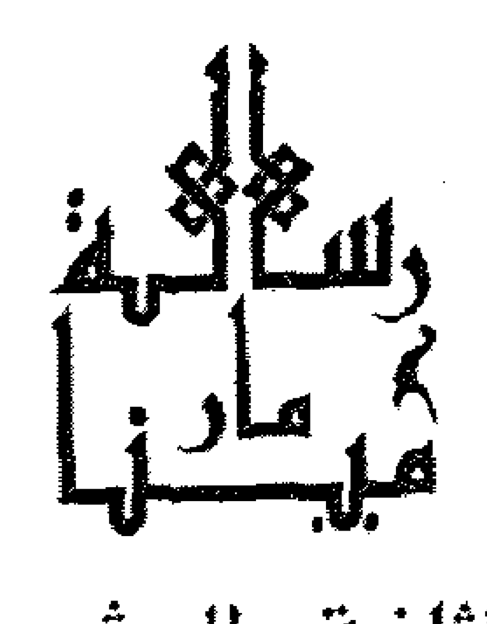
أبو الإصلاح
البابا كيرلس الرابع
(١٨٥٣ - ١٨٦١م)

من مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي بالإسكندرية
يناير ٢٠١١ م (طوبه ١٧٢٧ ش)

إهداء ٢٠١١

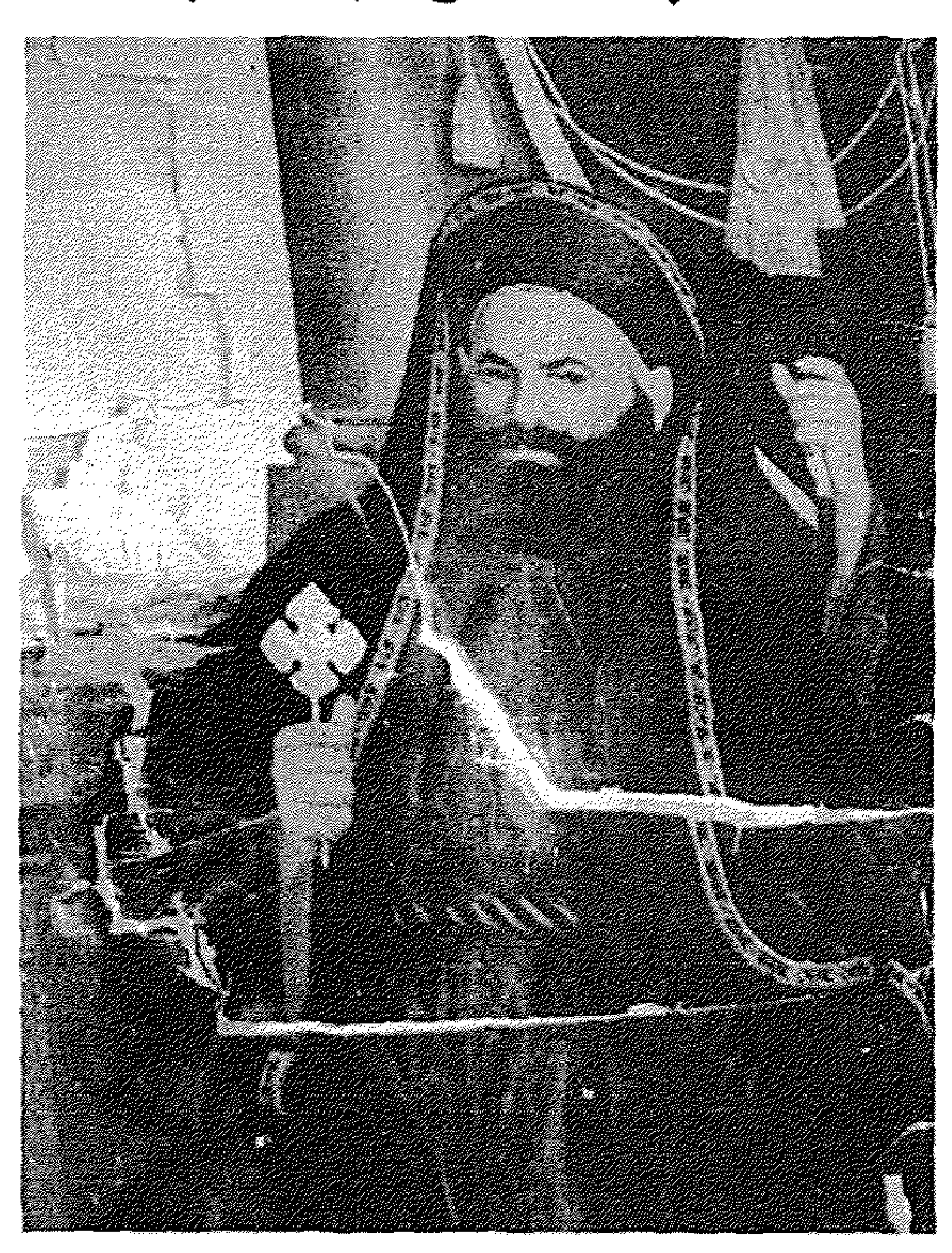
دكتور / رشاد منير شكرى

مكتبة دير السريان العامر بوادى النطرون
جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية



الثانية والعشرون

الكتاب التذكارى بمناسبة



مرور مائة وخمسين عاماً على نياحة

أبو الإصلاح

البابا كيرلس الرابع

(١٨٥٣ ـ ١٨٦١م)

إعداد

مينا بديع عبد الملك

من مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي بالإسكندرية

يناير ٢٠١١ م (طوبه ١٧٢٧ ش)

الكتـــــاب: رسالة مارمينا الثانية والعشرون: الكتاب التذكارى بمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على نياحة أبو الإصلاح البابا كيرلس الرابع

إعــــــداد: مينا بديع عبد الملك

الغــــلاف: تصميم – مينا بديع عبد الملك

تنفيذ – مطبعة الدلتا بالإسكندرية

الناشـــــر: مكتبة دير السريان العامر بوادى النطرون

جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية بالإسكندرية

٤ ش موسى كاظم – محرم بك – الإسكندرية

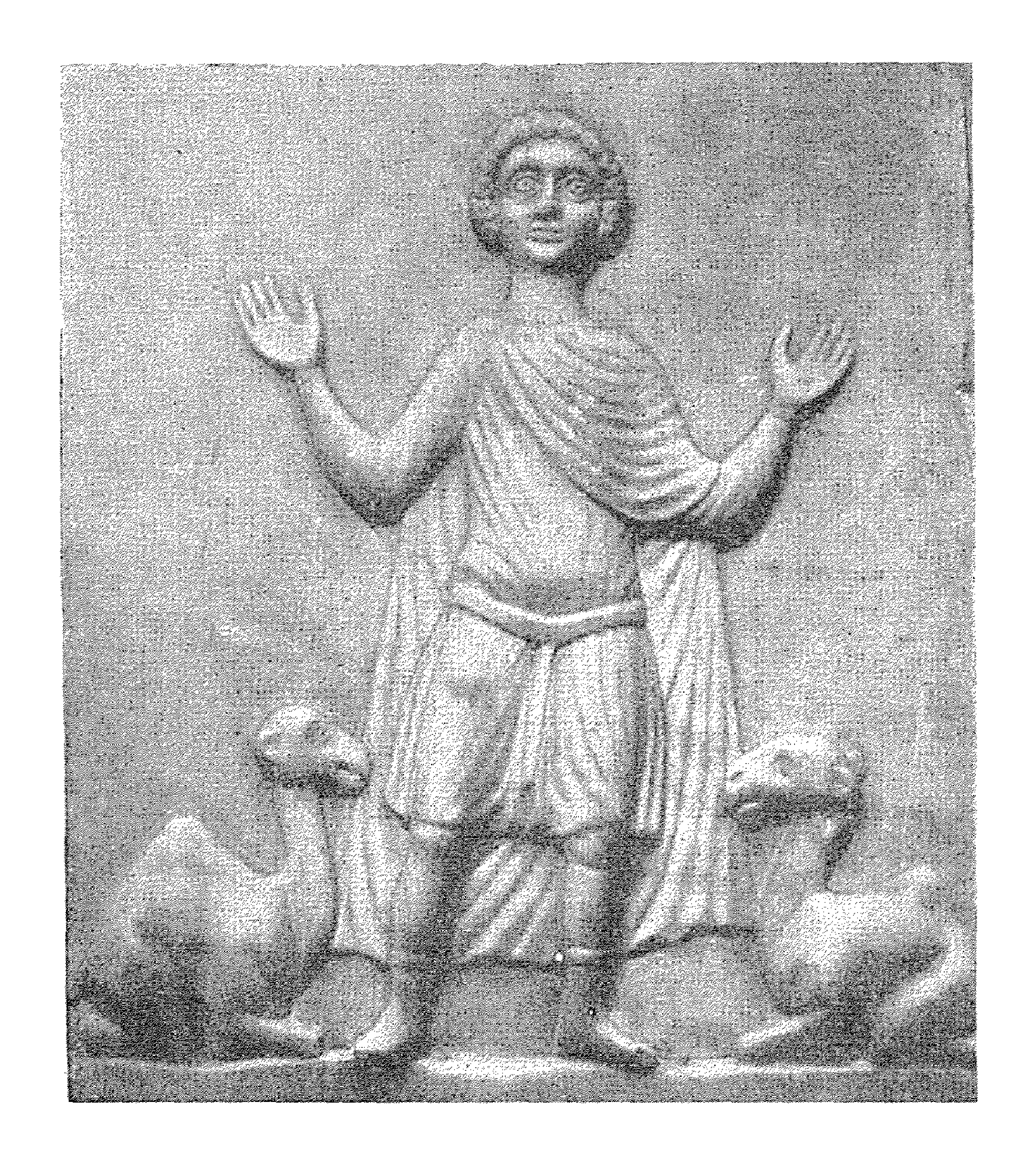
☎: ٠١٠٠٠٦٦٤٩٦ E-mail: minab@aucegypt.edu

الطبعـــــة: الأولي يناير ٢٠١١

المطبعـــــة: مطبعة الدلتا delta www.deltapress.net

٢٤ شارع الدلتا سبورتنج إسكندرية ☎ وفاكس: ٥٩٠١٩٢٣ (٠٣)

رقم الإيـــداع: ٣٤٤٢ / ٢٠١١



الشهيد المصرى العظيم

مارمينا العجايبى

عميد شهدائنا القبط وشفيع مسيحيي مصر

(٢٨٥ — ٣٠٩م)

عن لوحة رخامية من بقايا الكنيسة الأثرية للقديس مارمينا بمنطقة مريوط
عثر عليها بمنطقة الدخيلة وموجودة حالياً بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية
(من مقتنيات خبير رسم الآثار المصرية بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية الأستاذ بديع عبد الملك)



صاحب القداسة والغبطة

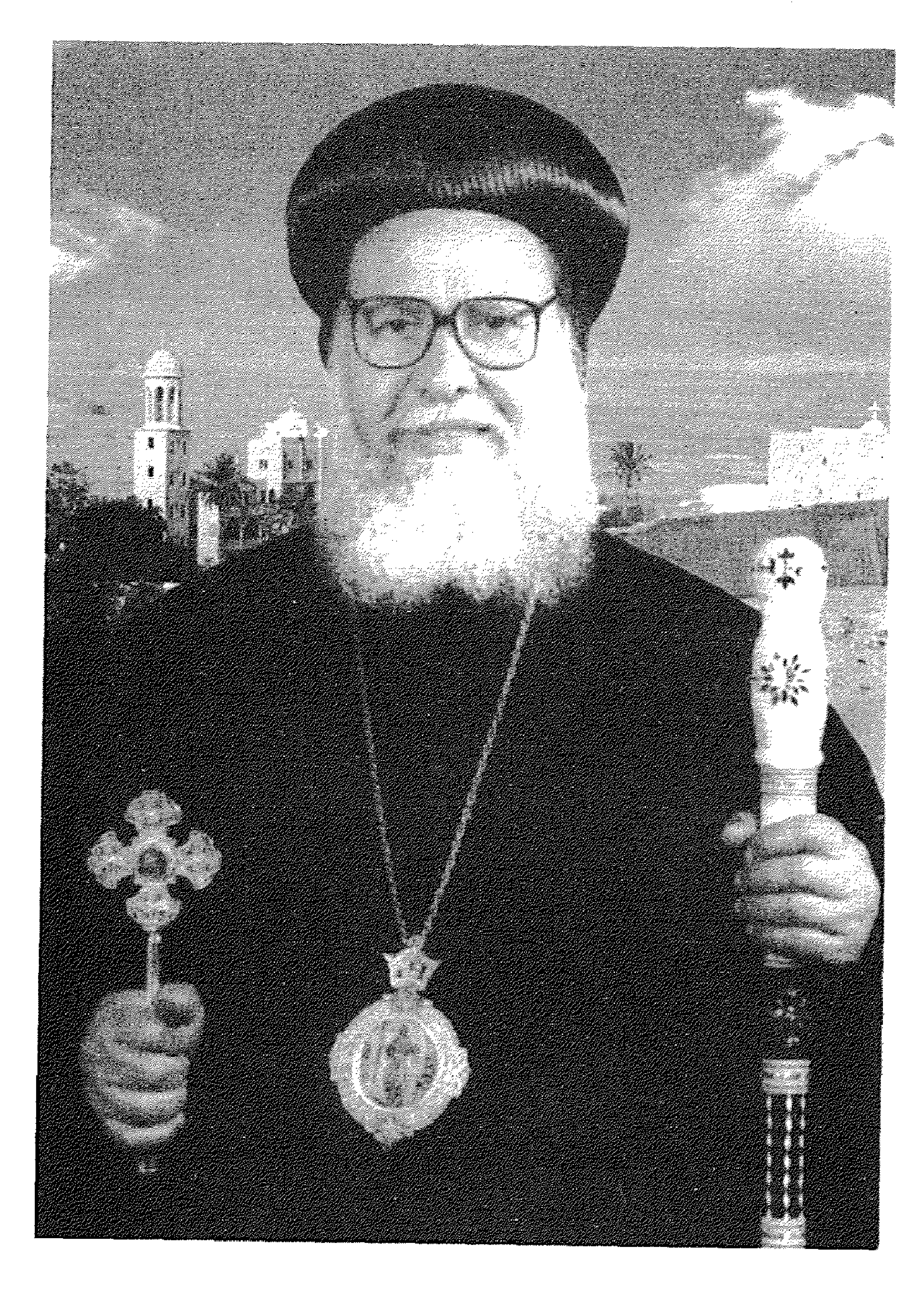
البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ١١٧

أدام الرب رئاسته للكنيسة سنين عدة متمتعاً بكل صحة وعافية

تاريخ الصورة الخميس ٢٣ أغسطس ٢٠٠٨

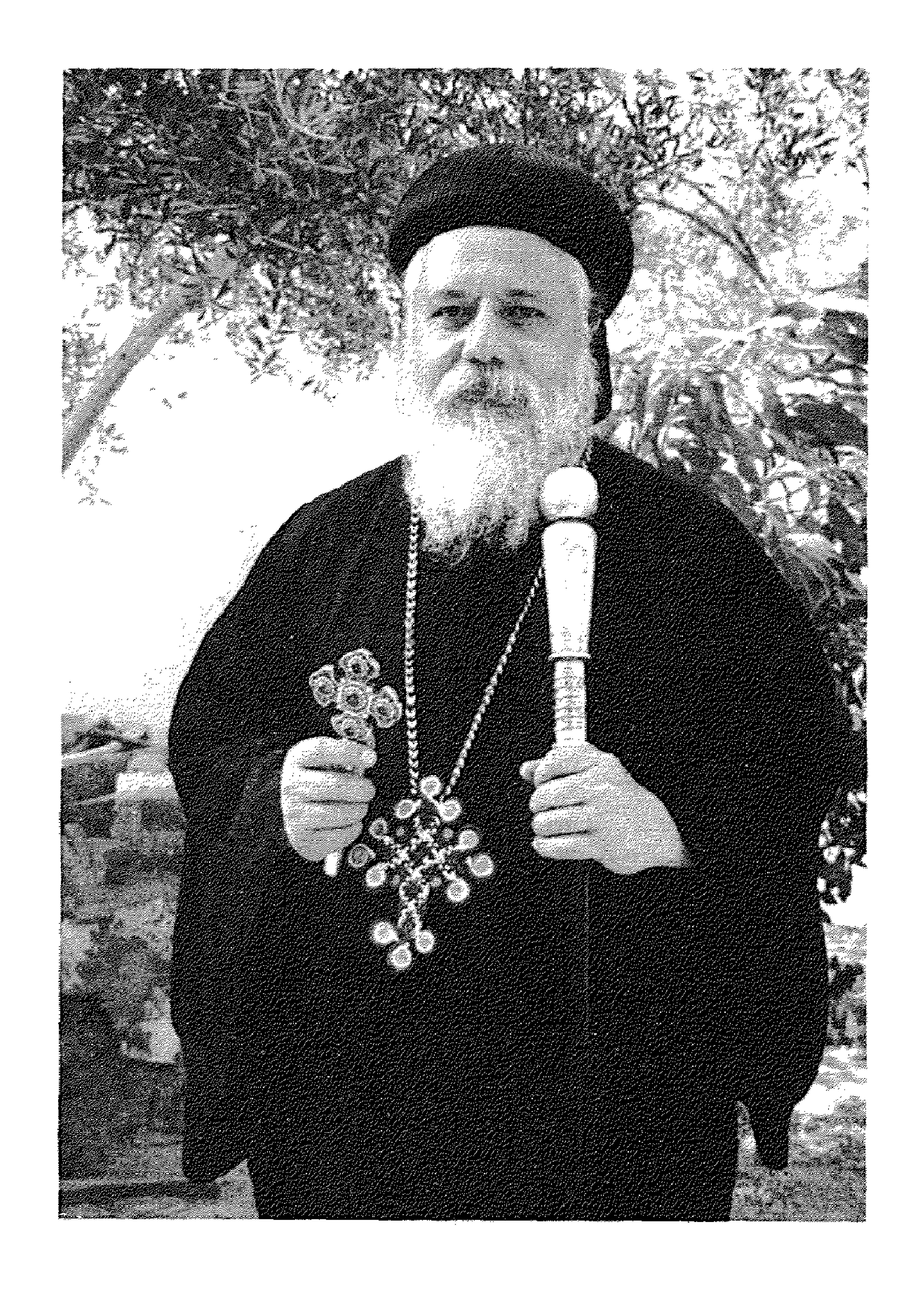
بجامعة لورانس التكنولوجية - ميتشجان - الولايات المتحدة الأمريكية



صاحب النيافة الحبر الجليـل

الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر بوادى النطرون



صاحب النيافة الحبر الجليـل

الأنبا ديمتريوس

أسقف ملـوى وأنصنـا والأشمونيـن

ورئيس دير القديس آفاڤينى

ورئيس قسم اللغة القبطية بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة

محتويات الكتاب

الموضوع		الصفحة

الموضوع		الصفحة

المقدمــة

البابا كيرلس الرابع
أبو الاصلاح
البطريرك الـ ١١٠ (١٨٥٣ - ١٨٦١م)

نشأة مباركـة:

نشأ الشاب داود تقياً نقياً تشرّب الايمان من والديه البسطاء الاتقياء وأظهر ذكــاءً كبيراً في تحصيل ما كان يمكن تحصيله من العلوم في ذلك الوقت ونبوغاً فــي حفــظ المزامير. كما كان خدوماً يساعد والده في الزراعة وأعمال الفلاحة الشاقة . وكان محباً ومحبوباً من الجميع وكان وطنياً وشجاعاً . اختلط بالعربان المجاورين لقريتــه وتعلــم منهم ركوب الخيل والابل وصار يرافقهم ويسابقهم فى شهامة ورجولة مشهوداً له بهــا من الجميع .

وكان عفيفاً طاهراً متباعداً عن خلطة النساء حريصاً على خلاص نفســه . وذات يوم أمسكت إمرأة بيــده فهجــر العالم متجهــاً إلى الصحراء قاصداً دير القديس الانبا أنطونيوس وترهب هناك.

رهبنـة فاضلة:

كان قوياً فى رهبنته ــ زاهداً ناسكاً عاشقاً للصلاة والتأمل بروحانية وعمق وإخلاص. وصار موضع الحب والتقدير من مجمع الدير وظهرت فضائله ونشاطه وتفرغ للدراسة ينهل من علوم الكنيسة . وكان موضع ثقــة رئيس الدير فكان يعهد اليه بتدبير مصالح الدير فى غيابــه وكان يشجــع زملائه الرهبان على المطالعة والاجتهاد فى التحصيل والاهتمام بالدرس .

فوصل خبــره إلى البابا بطــرس الجاولى فاستدعاه وباركه وسامه قساً . وعندما تنيح رئيس الدير أجمع رهبان الدير على تزكيته ليكون رئيساً عليهم فاســتدعاه البابــا بطرس ورسمه قمصاً وعينه رئيساً للدير .

ولحسن سياسته وروحانيته جعل الرهبان يحبون الحياة الديرية وعدم النزول مــن الدير أو التجول فى العالم وكان يكد ويتعب ليوفر للرهبان إحتياجاتهم فــلا يحتــاجون

للنزول إلى العالم . وأمر بألا يبقى فى مقر الدير (فى بوش) سوى الرهبان المكلفين بأعمال الزراعة فى أملاك الدير. ولمس الجميع فيه غيرته المقدسة للنهضة والاصلاح.

ثم أقام مدرسة لتعليم الشباب فى بوش وكون لها مكتبة إطلاع وإهتم بتعلم وتعليم اللغة العربية وقواعدها النحوية وكذلك المعارف الدينية والأدبية.

الرحلة إلى الحبشة:

لما حدث خلاف عقيدى فى الحبشة وأراد البابا تعزيز موقف الانبا سلامة المطران القبطى هناك أوفد القمص داود الانطونى فى هذه المهمة فقام بها خير قيام . وكان البابا ينوى سيامته أسقفاً بعد عودته ولكن القمص داود الانطونى عاد من الحبشة بعد نياحة البابا بطرس الجاولي. وبعد مباحثات كثيرة استقر الرأى بالاجماع على رسامته خلفاً للبابا بطرس الجاولي. ولكن الخديوى عباس الأول حاكم مصر فى ذلك الوقت لم يوافق على إقامته بطريركاً ولكنه ارتضى أن يكون مطراناً عاماً على الكرسى السكندرى وبعد نحو عام تم تتويجه بطريركاً باسم كيرلس الرابع الـ ١١٠.

البابا أبو الاصلاح:

ومنذ أن تسلم البابا كيرلس الرابع شئون الكنيسة عندما عين مطراناً عاماً على الكرسى المرقسى، وجه إهتمامه نحو نشر التعليم بين أبناء امته. ويظهر ذلك فى طرس البركة الذى وجهه للشعب ليستحثهم على التبرع لبناء معهد دينى للكنيسة فقد جاء فيه"... أنه لما كان الامر الواجب اكتساب المعارف والفنون وقراءة الكتب المقدسة ومعرفة قواعد الديانة وادراك معرفة الألسن المستعملة ببلاغة الألفاظ وعذوبة البيان كان ذلك من أهم أمر ... فإذا افهمتم هذه الأقوال الالهية باستنادى على قوله تعالى بانجيله المقدس "فتشوا الكتب فانكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية فهى تشهد من أجلى" ... فإن المنظور أن أرباب الألسن واللغات الأعجمية قد برعوا فى معرفة اللسان القبطى الذى لا حاجة لهم فيه وكذا اللسان العربى نطقاً وكتابة وقراءة حتى أن اللسان القبطى قد آل بنسيان معرفته بحيث قد انمحى رسمه واندثر بالكلية من أهله وصار مجرد تسمية بلا فاعلية حتى أن القراءة الضرورية المستعملة بالكنائس لا يعرف معناها أحد ولا مفهوميتها والذى يقرأ لا يفهم ما يقول ... وذلك ناشئ من كون أن الأطفال عندما

يبلغون السن اللازم لاكتساب فوائد التعليم يسلمهم والدوهم إلى عرفاء عـواجز النظـر يعلمونهم القراءة غيباً بالكلام المستهجن والألفاظ المحرفة ويدعوا الأطفـال يحفظـون بعضاً من المزاميـر بغير معرفـة القواعد ولا المعنى فيخرجونهم جهلة فـى أقصـى الجهل...

وقد أعانه الله في تشييد مدرسة علمية كبرى من الطراز الحديث لتعليم النشيء القبطي العلوم والمعارف وتثقيفهم ثقافة عصرية ممتازة، وجمع أبناء الأمة وتعهدوا بالاكتتاب بقيمـة المصاريف اللازمة لانشـاء هذا المعهد العظيم أساس النهضة الحديثة بين الأقبـاط وهـى لا تزال قائمة تشهد بنبل مقصده وحسن ذوقه وشدة إهتمامه بالتعليم لرفع شأن بنى أمته وعين للصرف عليها ايراد جملة أماكن من أوقاف الدار البطريركية.

وفى أقل من عامين كان قد أتم بناء هذا المعهد لافتتاحه فى ١٨٥٥ م وتابع هذا بوضع نظام إدارى لهذا المعهد حتى صار من أشهر وأكبر الكليات وتخرج منه فطاحل رجال الأمة وكانت الدراسة فيه مجانية مع صرف الادوات المدرسية والكتب مجاناً أيضاً وقبل فى هـذا المعهد كل من رغب فى التعليم بدون تمييز بين الاجناس أو الاديان أو المذاهب.

إهتمامه بتعليم اللغة القبطية والألحان:

ولما رأى قداسته أن المعلم عريان جرجس مفتاح يعرف اللغة القبطية جيداً عينه أستاذاً لها وهو أول من علمها حسب القواعد الصحيحة وقام بتأليف أجروميـة قبطيـة وكذلك كتاباً فى الاعراب على النسق العربى .

فنهض باللغة القبطية التى كان قد مر عليها نحو قرنين لم تستخدم الا فى تـلاوة الصلوات الكنسية.

وبعد أن وطد دعامة تعليم اللغة القبطية وجه همته نحو الألحان الكنسية فكلف القمص تكلا أحد قسوس الكنيسة المرقسية بالازبكية – الذى كان مشهوراً وقتئذ فى الموسيقى القبطية والألحان الكنسية – بالقيام بتعليم التلاميذ الحسنى الصوت ليقوموا بالتراتيل الكنسية. وأوجـد لهؤلاء الشمامسة ملابس خاصة على طراز جديد امتازوا به عن غيرهم عند الخدمة الدينيـة فشجعتهم على المواظبة فى الحضور الى الكنيسة بانتعاش وفرح عظيم لهم ولأهلهـم كمـا ظهرت فائدة التعليم والمدارس التى أنشأها قداسة البابا.

وأيضاً فتح مجال التعليم للفتاة لأول مرة، وأحضر أول مطبعة أهلية لطباعة الكتب الكنسية وكتب المدارس القبطية ليحد من الأغلاط التى تتابعت فى الكتب المنسوخة وحتم الصلاة باللغة القبطية فى الكنائس .

كما عاد استخدام التقويم المصرى الذى كان قد انحصر على الزراعة ولكن فى أيام البابا كيرلس الرابع عادوا الى استخدامه من أول أبيب ١٥٧١ ش (٧ يوليو ١٨٥٥م) وظل مستعملاً حتى أول سبتمبر ١٨٧٥م.

ويمكن تلخيص دور البابا كيرلس الرابع فى الاصلاح والتعليم بهذه المعادلات البسيطة:

غيرة مقدسة + تقوى + نبوغ وذكاء ومواهب ←——— إصلاح حقيقى

إصلاح + تعليم ←——— تعليم بافراز

وهكذا قضى البابا كيرلس الرابع مدة حبريته التى لم تدم طويلاً فى الرعاية والتعليم والتعمير والإصلاح فى كل الميادين واستحقَ بجدارة هذا اللقب:

أبو الاصلاح

بركته المقدسة تشملنا جميعاً آمين ..

الأنبا ديمتريوس

أسقف ملوى ودير القديس آقافينى

ورئيس قسم اللغة القبطية بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة

كلمة الجمعية

ذكرى مصلح قبطى

كل مصلح لابد من أن يلاقى صعوبات جمة فى تنفيذ فكرة إصـــلاحية لأن تغييـــر الحال فجأة لا يتأتى إلا إذا كان الرجل مقتدراً قد أستعمل سلاح التـــأثير لصـــد هجمـــات العاملين على التمسك بالأحوال السيئة للإنتفاع من ورائها.

ورغماً من أنه قد قامت فى وجه البابا كيرلس الرابع البطريرك ١١٠ عوامل التخلف فإنه تمكن من التغلب عليها بما جبل عليه من الحزم والعزم، فتقلد سيف الإقـــدام لتـــذليل المصاعب حتى وصل إلى ميناء الإصلاح مكللاً بالفوز والنجاح العظيم. فأقراراً بفضـــله، ولا سيما لما له من الأيادِ البيضاء والخدم الجليلة فى رفع شأن الأمة إلى أوج المعالى إبان الظلم والأستبداد، لم نجد أجمل وأحلى من الأعتراف بفضله ليعرف القوم مقام العـــاملين الأمناء الذين يضحون بحياتهم فى سبيل الخدمة الصادقة.

فلو بُعث اليوم ديوجين الفيلسوف من مرقده ورأى نتائج أعمال هذا المصلح العظـــيم لقال فى الحال: (لقد وجدت ضالتى المنشودة، وجدت الرجل الذى طفـــت أبحـــث عنـــه بنبراسى فى رائعة النهار). لأنه فى جميع أعماله لم يرتكن على أحد من الناس بل كـــان رجلاً بمعنى الكلمة جمع بين صفات الحزم والعزم وقوة الإرادة والعطف على أمته والميل إلى ترقية شئونها فى حين كانت الأرض غير صالحة لنمو البذار الجّيدة فيها **ولكنه تمكن** بحكمته من إحيائها حتى أتت بثمار جيدة بعد أن أعتمد على نفسه فى إجراء كـــل مـــاهو صالح لإمته. فإذا عرفت الأمة أتعاب رجل عظيم من أعظم الرجال شأناً خدمها فى إبـــان ضعفها وإنزوائها خدماً جليلة بها أرتقت شئونها إلى أوج الكمال والمعالى، فإنمـــا يجـــب عليها أن تعرف فضل هذا الرجل الذى كان أعظمهم شأناً وأرقاهم فكراً وأسماهم عمـــلاً. خدم أمته خدماً جليلة خلدت له ذكراً لا تمحوه الأيام والليالى، لم يدخر وسعاً فى ترقيتهـــا وإعلاء منار العلم فيها **بتأسيسه المدارس للبنين والبنات** فى زمن لم يكن للعلم فيه رواج ولا للأدب مجال، **وجلب لها مطبعة لنشر الكتب الدينية والأدبية** بينما فى ذلك الوقت لـــم يكن لأحد أهتمام بالعلم و الإلتفات إليه ولا إلى ذويه، فضلاً عن أنهم كانوا لا يعتبرون إلا الكتب الخطيّة مهما تكن أخطائها مجسمة واضحة. **وبنى الكنيسة المرقسية الكبرى ورقى شئون الأكليروس والرهبان** مصلحاً ما أفسده الدهر ولكن مدته لم تطـــل فقضـــى زمـــن

رأسته القصير فى حروب دائمة تتنازعه عوامل الضعف من كل جهة غير أنه تغلب على كل الصعوبات وقام عاملاً بإخلاص فى **ترقية الشئون الملية العامة والخاصة**. ولسان حال مآثره يقول:

تلك آثارنا تدل علينا فأنظروا بعدنا إلى الآثار

ظهر هذا المصلح العظيم فى ابان الظلم والأستبداد وكانت حياته عرضة للموت فى كل آونة ولكن لم يعق أعماله ما كان يراه من صعائب الأمور لأنه خُلق رجل عمل ولم يسمع لمشورة المفسدين المحيطين به ولذلك كانتْ أعماله ناجحة لأنه كان يعمل معتمداً على نفسه بالإخلاص التام ناظراً إلى مصلحة الأمة مفضلها على مصلحة نفسه وذوى قرباه.

كان يتطلع إلى حقل الإصلاح وما غرسته يمينه فيه من البذار الجيدة لعله يرى ثمار أتعابه ولكنه مات شهيداً قبل أن يرى شيئاً. كان يتمنى أن يجنى ثمراً شهياً فكانت وفاته العاجلة حائلاً دون مبتغاه.

مات الرجل فى سبيل الخدمة العامة وعرّض نفسه لنقمة الناقمين، فإذا حفظ له الأقباط هذا الجميل فإنما يكونون قد عرفوا بفضل العاملين فيهم الراغبين فى رقيهم الذين لم يدخروا وسعاً فى سبيل إيراد الأمة موارد النجاح والفلاح، باذلين قصارى الجهد فى ترقية شئونها. ويحق لنا أن نفتخر بنبوغ مثله من رجال الفضل الذين ساروا على خطواته ونذكرهم في كل حين لينسج على منوالهم غيرهم من العاملين.

حال الأقباط قبل عصر البابا كيرلس الرابع

أنتشرت المسيحية فى مصر وصارت الدين الرسمى فى أيام الرومان قبل دخول العرب. ومع ذلك فإن بطاركة الإسكندرية كانوا مضطهدين كثيراً نظراً لإختلافهم مع الملكيين الذين أذلوا كل من لم يتبع مذهبهم وظلوا على هذا الأنقسام حتى جاء العرب إلى مصر فوجدوا من القبط عدداً لا يُستهان به إذ كانوا فى ذلك العهد ٣٠ مليوناً أو يزيدون وظلت الدولة العربية تحكم مصر حتى جاء الأجانب الذين حكموا مصر حيناً من الزمن لم يكن بالقصير. وفى الحقيقة لم يكن من العرب سوى الخلفاء الراشدين والدولة الأموية التى أنتهت بتغلب العباسيين، ومن ذلك العهد أخذ الأجانب يحكمون البلاد ولو أنهم مسلمون. فبدأت الدولة الطولونية والأخشيدية والفاطميين ثم جاء صلاح الدين وأسس دولة الأيوبيين وأعقبها المماليك وهم دولتان البحرية والشراكسة. وهذه الدول الثلاث من الأكراد والترك

والشركس وإنتهت كلها بإستيلاء الدولة العثمانية التى أستخلصت البلاد من المماليك فـــى أوائل سنة ١٥١٧م وظلت تابعة لها حتى ٢ يوليو ١٧٩٨م حينما وصل الجيش الفرنســـى إلى الإسكندرية، وظل الفرنسيون بمصر حتى غادروا القاهرة فى ١١ يوليو ١٨٠١م، فعـــادت بعدها مصر إلى الدولة العثمانية التى حكمتها حتى تولاها محمد على باشا فأصدرت له الدولـــة العثمانية فرماناً فى ٩ يوليو ١٨٠٥م، ومن بعده أصبح أولاده يتوارثون الخديوية المصرية رغماً عن الإحتلال الإنجليزى الذى إبتدأ من ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م بدخول الإنجليز القاهرة واحـــتلالهم للبلاد المصرية.

تقلبت الدول على مصر ولم يكن من بنيها من يحكمها ويعمل على ترقية شئونها بل كانت الدول الغابرة لا يهمها إلا إستخلاص الأموال من الناس لصرفها فـــى المنازعـــات والحروب سواء ماتت البلاد أوعاشت، ولذلك أخذ عدد الأهالى فى التناقص تدريجياً مـــن آونة لأخرى حتى صار فى أيام دخول الفرنسيين لا يزيد عن المليونين من الأنفس ثم أخذ فى الزيادة لما أستراحت البلاد من المظالم والحروب الداخلية. فكل ذلك قد أثّـــر تـــأثيراً عظيماً فى حالتها العلمية وجعل مصر فى مؤخرة الأمم بعد أن كانت سيدة بـــلاد العـــالم ومركز جذب العلماء يأتون إليها من كل البلاد للأرتواء من مناهل علومها، فأخذت الأمة تترك العلم وإكتفى أبناؤها بما يتعلمونه من المبادئ الأولية فى اللغـــة العربيـــة بعـــد أن هجروا اللغة القبطية. نعم قد نبغ كثير من الأقباط مثل أولاد العسال وابن كاتـــب قيصـــر وابن الراهب والقليوبى وغيرهم من الكُتّاب المُجيدين فى أيام الأيوبيين ولهم مؤلفات عديدة تدل على نبوغهم فى العلم إلا أن نورهم قد إنطفأ فجأة وخيّم ظلام الجهل على الأمة بسبب المظالم فكانت تقتصر على تعليم أولادها مبادئ القراءة العربية والحساب وقـــراءة اللغـــة القبطية فى كتاتيب بسيطة يقوم بالتعليم فيها عرفاء وأكثرهم من فاقدى البصـــر. ومتـــى عرف الواحد من المتعلمين (يفكّ الخط) حسبما كانوا يقولون يأخذه أصحاب الدواوين لشدة الحاجة إليه ليكون فى عداد الكُتّاب وبالضرورة من إشتغاله فى الأعمال طـــويلاً يتمـــرن عليها. فالقبط كانوا لا يتعلمون قبل أيام أبى الإصلاح سوى المبادئ الأولية للقراءة العربية وقلّ منهم من كان يجيد القراءة على أصولها أو يتعلم قواعد تكفل إتقانهـــا، فجـــاء هـــذا المصلح الأمين وهدم أركان الجهل وفك العلم من قيوده وأطلق سراحه فكان رغمـــاً مـــن العوامل الداخلية والخارجية معاً معلماً مرشداً إذ نقل الأمة من حال الجهالة المطبقة إلـــى النور بأن رفع شأنها بوضع أساس الإصلاح الحقيقى لا الوهمى. فإذا جاز لنـــا أن نلقبـــه بلقب يليق بمكانته لوجب علينا أن نصفه ليس فقط "أبو الإصلاح" بل أنه " القديس مرقس

الثانى الكاروز" لأنه **أصلح ما أختل من الأمور الدينية** وزاد عليها إفتتاح المدارس لنشر العلم بعد أن حُرم منه بنو القبط خصوصاً والمصريون عموماً طوال العهود التى سبقته.

من هذا المنطلق رأت جمعية مارمينا للدراسات القبطية بالإسكندرية – التى تأسست عام ١٩٤٥ بغرض نشر الثقافة القبطية بين المصريين أستكمالاً للرسالة التى تبناها طيب الذكر البابا كيرلس الرابع – أن تغتنم فرصة الذكرى الخمسين بعد المائة لإعادة إحياء ذكرى هذا المصلح العظيم ونتدبر بتمعن فى مجهوداته التى بذلها فى شتى المجالات وعلى رأسها مجال التعليم.

وقد رأت الجمعية – أستكمالاً للفائدة المرجوة – أن تصدر رسالتها هذه وتضم بها الكلمات التى قيلت فى الأحتفال بالذكرى الخمسينية (١٩١١) والذكرى المئوية (١٩٦١) ثم كلمات كُتبت بعد ذلك عن أعمال البابا كيرلس الرابع وبالتحديد فى مجالى التعليم والنهوض باللغة القبطية.

والجمعية تذكر بكل التقدير والشكر أحد آباء رهبان دير السريان المباركين الذى أوحى للجمعية منذ أكثر من عامين فكرة ضرورة إحياء ذكرى البابا كيرلس الرابع ودوره الرائع فى الإهتمام بالتعليم. فله منا جزيل الشكر.

والجمعية تود أن تقدم جزيل الشكر لصاحب النيافة الحبر الجليل الأنبا ديمتريوس أسقف ملوى والأشمونين وأنصنا ورئيس دير أبو فانا (آفافينى)، على مجهوداته الواضحة فى مجالين هما الأهتمام بتدريس ونشر اللغة القبطية وأيضاً الأهتمام بالمحافظة على النطق الصحيح للغة القبطية كما تسلمته الكنيسة من تلاميذ البابا كيرلس الرابع. وبرغم المقاومات الشديدة التى يواجهها فى سبيل ذلك إلا أنه تسلح بروح الصبر والمثابرة فى إداء رسالته، مسنوداً فى ذلك ومُعضداً من صاحب القداسة والغبطة البابا شنوده الثالث – أطال الرب فى حياته – الذى لا يتوان فى تشجيع تعلم اللغة القبطية بالنطق الصحيح.

والجمعية لا يفوتها أن تذكر بكل الشكر والتقدير لكل العاملين بمطبعة الدلتا بالإسكندرية وبالأخص للأختين: قمر خيرى و ناردين عدلى على مجهودهما السخى فى إخراج الكتاب فى صورته الحالية والرائعة، متمنين للجميع كل التوفيق.

الجمعية

مينا بديع عبد الملك

الباب الأول

الإحتفال بالذكرى الخمسين لإنتقال أبى الإصلاح البابا كيرلس الرابع البطريرك ١١٠

فى هذا الباب نسجل تفاصيل الإحتفـال بالذكرى الخمسين لإنتقال البابا كيرلس الرابع البطريرك ١١٠ كما سجلها الأستاذ توفيق إسكاروس – مغير القسم الافرنكى بدار الكتب الخديوية - فى كتابه: "نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر" - الجزء الثانى – المطبعة المصرية الأهلية بالقاهرة (١٩١٣م).

فى ٢٤ طوبه سنة ١٦٢٨ للشهداء (١ فبراير ١٩١٢م) نشرت جريدة الأهرام ما يلى:

ومما لا شك فيه أن ذلك البطريرك العظيم جدير ذكره بان يرددوا اسمه بان يكرم لأنه كان مصلحاً كبيراً ورئيساً يفهم معنى الرئاسة ويدرك أعباءها وسهامها ويعرف كيف يقوم بتلك الأعباء الملقاة على عاتقه لا كالذين يعدون الرئاسة منصباً يتألهون فيه فلا يهمهم إلا أن يذلوا شعبهم لإرادتهم ويمتصوا دمه ويهملوا شؤونه ويضطهدوا مصلحيه.

إن البطريرك الذى يحتفل بالسنة الخمسين لوفاته رقى أمته بفتح المدارس وإنشاء المطابع وبناء الكنائس. ومنع زواج البنات قبل سن الرشد ومنع الإكراه بالزواج وعزل الرهبان إلى الأديرة وأطلق حرية المرأة. وتفقد رعيته فى مصر والحبشة. وحصر أملاك الأوقاف إلى آخر ما يذكر المؤرخون القبط من أعماله وأفضاله وفضائله.

فالذين يحتفلون به اليوم انما يحتفلون بالمصلح وبالاصلاح والذين يشاركونهم بهذا الإحتفال إنما يشاركونهم بإجلال الإصلاح. وإذا كانت ذكرى المصلح تؤلم الخامل والمفسد من رؤساء الطوائف الشرقية فلتكن هذه الذكرى التى تبجل وتعلن اليوم مهمازاً فى خواصرهم وليفهموا أن الحياة ليست أكلاً وشرباً وتحلياً بالجواهر وكنزاً للأموال. والرئاسة ليست تعريض الملابس ولبس الديباج والاثرة والأنانية والإستبداد والفساد وإرهاق الشعب والجحود به وأهمال شؤونه بل هى عكس ذلك وضده فمن كان رئيساً ولم يصلح كان ظالماً مذموماً بل كان مجرماً.

فى عدد ٣٠ يناير سنة ١٩١٢م نشرت جريدة "مصر" كلمة لحضرة إسكندر أفندى قزمان الموظف بهندسة السكة الحديد ومؤلف كتاب "الرقى والإعتدال" وابن شقيقة البابا كيرلس الرابع، فكتب يقول:

عزتلو حضرة الفاضل مدير جريدة مصر الغراء

دعيت مع آخرين من عهد قريب على صفحات جريدتكم الغراء إلى أن أنشئ كلمة نظم فى تكريم الأنبا كيرلس الرابع لمناسبة مضى خمسين عاماً من مدة وفاته. ولما كنت من ذوى قربى الفقيد ورأيتنى لم أكن من معاصريه ولا لدى عن حياته العمومية معلومات تزيد عما لمعاصرى وتسوغ لى الإشتراك العملى فى تكريمه مع هذه القرابة أخترت التنحى لولا أجمع أصدقائى الذين قرأوا إقتراح حضرة الأخ سليمان أفندى المصرى على أن هذه النسبة الخصوصية لا تعفينى من نسبة أخرى عمومية وهى قوميتى التى أشترك فيها مع سواى بازاء هذا الرجل. فلبيت ممتثلاً بيد أنى بالرغم من إعتقادى بصحة رأى أصدقائى أخذت تنازعنى هاتان النسبتان فكلما دفعتنى العمومية منهما إلى الإسهاب والإطناب أرجعتنى أختها الخصوصية إلى التحاشى والإختصار ولعل ذلك يقوم لى مقام عذر فيما نظمته من الأبيات القصار. ثم بدا لى أثناء نظمى أمر ذو بال حملتنى أهميته على التعجيل بنشر كلمتى ليتاح لى معها إبداء ذلك الأمر قبل الشروع فى هذا الإحتفال. وهو أنه لما كانت الغاية منه إجلال ذكر رجل كبير واتفق أن يكون ذلك بمسمع من رجل كبير مثله مقيم بين ظهرانينا ويغلب أن يصادف المتكلمون حوادث وشؤوناً تضاربت فيها الآراء والمذاهب كان من واجبات القومية الصادقة ومن مقتضيات الإنسانية الحقة والآداب الراقية مراعاة أمرين. الأول أن يتجافى المتكلمون فى هذا المقام عن ذكر ما يشعر بالموازنة والمقابلة أو ما يؤخذ منه مدح فريق وذم الآخر لأن هذا المنهج لا يعود على الغرض المحتفى له بأدنى فائدة – ثانياً يجب أن لا يقتصر المتكلم فى هذا المقام على إتقاء ما يؤلم ويسوء بل تتقاضاه اللياقة والإنسانية أن يتعمد فيه ما يشجع ويسر كل فريق لأن المقالة الحسنة أدعى إلى التوفيق وأفعل من غيرها فى استمالة النفوس إلى الأعمال الحسنة وفى مثل هذا المقام تتجلى الآداب القائمة على أسس الإعتدال والتضامن والإخلاص بأجمل مظاهرها.

وأنا موقن أن اخوانى المتكلمين فى هذا الإحتفال قد فطنوا لهذا المبدأ الشريف وزاولوه قبل أن يلوح لى وهم أحرص منى على إتباعه ولم أقصد ببسطه وتقريره هنا سوى الفات بقية الأمة اليه قبل الشروع فى هذا الإحتفال حتى يقبلوا عليه وينشطوا إستعماله فى كل الشؤون متى رأوا توحيد الرأى فيه والتجافى عما ينافيه.

وإليك ما قلته مخاطباً الفقيد راجياً أن القليل المفيد يغنى فى هذا المقام عن المزيد ويكفى من القلادة ما أحاط بالجيد:

ذكراك بعد الخمسين

خمسون قد مرت وفضلك مدكر ... ويدوم ذكر الفضل مادام القمر

ولئن غدت منك الحياة قصيرة ... فبنفعها طالت على رغم القصر

لو لم تخاطر فى الشباب بها ابتغاء ... رقى شعبك كنت أعمر من عمر

ولئن أصبت المال مختزناً ... وقيل بذلته لم تبق منه ولم تذر

ودعوته صنماً وقلت أهدّه ... كى يزدرى من عابديه ويحتقر

وآثار هذا سخط بعضهم وقد ... عدوه ذنباً فى الورى لا يغتفر

فاليوم طرا أدركوا أن الذى ... حسبوه سيئة به كم يفتخر

☆☆☆

وكانت جمعية الإخلاص القبطية بالثغر السكندرى (تأسست عام ١٩٠٩م) أول من نبه إلى ضرورة الإحتفال بذكرى أبى الإصلاح والفتت الأنظار إلى وجوب إكرامه بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته فى ٢٣ طوبه سنة ١٦٢٧ للشهداء وكان فى النية الإحتفال به لولا أن حال دون تحقيق أمنيتهم إشتغال الأمة بالحداد العام على وفاة أنجب تلاميذه المرحوم بطرس غالى باشا فأرجأته إلى العام التالى الذى وافق حلوله فى أول فبراير سنة ١٩١٢ وطلبت من حضرة الباحث المدقق جرجس أفندى فيلوثاؤس عوض صاحب المؤلفات المفيدة العديدة والمجلة القبطية أن يلقى محاضرة فى إحتفالها فبادر إلى وضع كتاب وطبعه خصيصاً فى ترجمته بعنوان: "حيوة بعد موت، أول بارقة من بوارق الإصلاح، تاريخ الرجل العظيم " خلاف ما كتبه مجملاً فى الجرائد السيارة قبيل الإحتفال.

وصف الاحتفال الذى أقامته جمعية الإخلاص:

لبى دعوة جمعية الإخلاص القبطية فى الإسكندرية جميع أعيان الأقباط وأدبائهم وذوى الفضل فيهم. فما وافت الساعة السادسة حتى غصت قاعة سينما بالاس بنحو ألف شخص يتقدمهم سبعة من الآباء الكهنة أوفدهم نيافة الأنبا يوأنس المطران الإسكندرى لحضور الإحتفال.

وأعلنت جوقة الموسيقى إفتتاح الحفلة بالسلام الخديوى فوقــف الحاضــرون إجــلالاً وتعظيماً وعرضت صورة الأنبا كيرلس الرابع على لوحة السينماتوغراف فقوبلت بالتصفيق الحاد ثم عرضت على إثرها تحية من روح المحتفل به بشكل جواب هذا نصه:

أبناء أمتى المحبوبة:

بسم الآب والأبن والروح القدس الإله الواحد. شاء ربى أن يثمــر غرســى وأن تحيوا اليوم ذكرى باحتفالكم هذا وتطربوا روحى فى عالم الأبدية فشكراً لأدابكم وكريم عواطفكم ونعمة الله تشملكم له المجد دائماً.

٢٣ طوبه سنة ١٦٢٨ كيرلس

وقرأها رئيس الجمعية بصوت جهورى فقوبلت بالتصفيق الحاد.

ثم تكلم رئيس الجمعية عن الغرض من هذا الإحتفال وشكر من أجــابوا دعــوة الجمعية وخص بالذكر حضرة حبيب أفندى فهمى المحامى بأسيوط وتوفيق أفندى حبيب المحرر فى جريدة الأخبار لمكابدتهما مشاق السفر لمشاركتهم فيه.

ثم قرأ تلغرافاً من نيافة الأنبا مكاريوس مطران أسيوط أظهر فيه أسمى شــعور إصلاحى وحيا فيه المحتفلين والمحتفــل به أجل تحية وشكر للجمعية عنايتها فى إحياء هذه الذكرى المباركة وتمنى للطائفة القبطيــة إصلاحاً ورقياً إتماماً للبناء الإصــلاحى الذى وضع أساسه هذا المصلح الكبير. فقوبل بالتصفيق الحاد.

وعقبه بقراءة تلغراف فى هذا المعنى من الدكتور أخنوخ أفندى فانوس.

ثم سرد أحد أعضاء الجمعية تاريخ الأنبا كيرلس الرابع، وختم كلامه بقولــه إن أكبر دليل على محبة أبناء الطائفة لرؤوسهم الدينيين هو هذا الإحتفال. وتمنى أن يكون الأنبا كيرلس الرابع قدوة صالحة للشعب والإكليروس.

وبعد قصيدة غراء عرضت صورة الأنبا كيرلس الرابع للمرة الثانية بين عــزف الموسيقى والتصفيق. ثم عُرض الخطاب الثانى من روح المحتفل به وهذا نصه:

إلى خلفائى الآباء الكهنة والرعاة

سلام لكم أيها الأخوة الأعزاء. ما أحلى حسن الذكرى فى داركم الفانية وما أنفع العمل الصالح لدارنا الباقية. وما أحب السعى للخدمة العامة وتضحية النفس فى سبيل المقاصد الشريفة فأعملوا بوصايا فادينا يسوع المسيح. وأحرصوا على تعاليمه. ولا تنسوا قوله الطاهر أنتم نور العالم فليضئ نوركم هكذا قدام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات.

٢٣ طوبه سنة ١٦٢٨ كيرلس

ثم تكلم حضرة توفيق أفندى حبيب فذكر بعض مآثر الأنبا كيرلس الرابع وما وصلت إليه حالة الأمة من بعده. فكان لكلامه تأثير كبير فى نفوس السامعين.

وبعد عرض مناظر سينما توغرافية لرواية أدبية إقتصادية خطب حضرة حبيب أفندى المحامى فأسهب فى ذكر أعمال البابا كيرلس الرابع ومقاصده فى إعلاء شأن طائفته وإخلاصه فى خدمته وأشار إلى سعيه فى نيل حقوق الأقباط فى وظائف الحكومة وغير ذلك مما لو إقتفت الطائفة أثره فيه لبلغت شأناً عظيماً من الرقى.

ثم ألقى حضرة نسيم أفندى جرجس قصيدة غراء خاطب بها روح البابا كيرلس الرابع.

وعُرضت الصورة للمرة الثالثة ثم عُرض خطاب من روح البابا كيرلس الرابع إلى أبناء الطائفة هذا نصه:

أبناء أمتى المحبوبة

نعمة لكم وسلام من الرب يسوع. الوداع الوداع أيها الأبناء الأعزاء. لا تنسوا أمتكم التى أظهرتم عليها عطفاً فى هذه الليلة المباركة. آباؤكم المصريون القدماء والشهداء الأطهار بدأوا يستبشرون خيراً بسلالتهم بعد أن حزنوا طويلاً. فحققوا أملهم فى عزائمكم ولا تضنوا فى سبيل خدمة أمتكم. فالملائكة تكتب لكم ما تقدمون من الصالحات وأبوكم الذى فى السموات يُحسن إليكم بأكثر مما تحسنون.

٢٣ طوبه سنة ١٦٢٨ كيرلس

وصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى إعلاناً بختام الاحتفال وأنصرف الحاضرون وكلهم معجبون بنظام وهدوء الحفلة.

أما فى القاهرة فكان الاحتفال بناءً على دعوة نقابة الجمعيات القبطية فلبى الوجهاء والأعيان والأفراد فى النادى الفسيح المهيب المعروف بنادى السيارات وأسندت الرئاسة لحضرة زكى بك فهمى ويصا رئيسها الشرفى ومن أعيان أسيوط الكرام فافتتح الاحتفال بخطاب وجيز ثم إنبرى الخطباء والمؤرخون بإلقاء خطاباتهم وسرد تاريخ البابا كيرلس الرابع وسماع القصائد فتجلت الفصاحة فى أقوالهم وظهرت الغيرة بشاراتهم ودلائل الحماس من التصفيق الحاد المتوالى.

فى مثل هاتين الحفلتين ومثيلاتهما ظهر الشعور الصحيح تقديراً لأعمال هذا المصلح العظيم الحى بذكراها فى القلوب.

وهنا لابد أن نسجل أن أول أمر اهتمت به جمعية النشأة القبطية فى سنة ١٦١٣ للشهداء (١٨٩٧م) عقب تأسيسها هو نقل صورة مكبرة ملوّنة للبابا كيرلس الرابع عن المحفوظة بقاعة المجلس الملى وهو بملابسه الإعتيادية بمعرفة المسيو "أسبيرون" الذى رسمها بنفسه فى أيام البابا كيرلس وأرسلتها إلى أشهر المعامل الألمانية وبعد إقرار الشيوخ الذين عاصروه بمطابقتها للأصل تماماً طبعت عشرة الآف نسخة. وفى السنة التالية عملت مثلها من صورة غبطة الآب البطريرك البابا كيرلس الخامس – البطريرك فى ذلك الوقت – بملابسه الاعتيادية ووساماته وكتبت أسماؤهما باللغات الثلاث القبطية والعربية والفرنسية. وقد تسارع الأقباط لإقتنائهما من مركز الجمعية.



الباب الثانى

مجموعة الخطب التى قيلت فى الذكرى المئوية الأولى

كلمة لجنة الإحتفال

دعا الدكتور زاهر رياض الأستاذ بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، إلى وجوب الاحتفال بالعيد المئوى الأول للبابا كيرلس الرابع، فى المحاضرة التى ألقاها بقاعة محاضرات معهد الدراسات القبطية، فى شهر فبراير سنة ١٩٥٨، ولاقت هذه الدعوة صدى طيباً يومذاك عند جمهور كبير من المثقفين وذوى الرأى.

وراح صاحب الدعوة ينشر دعوته خلال المحاضرات التى ألقاها فى مناسبات مختلفة، فى مدن الزقازيق وميت غمر وطنطا والمنصورة وبورسعيد، حتى أصبحت الأذهان مهيأة بل مستعدة للقيام بهذا الاحتفال، على الصورة التى تليق بذكرى الرجل الذى قاد حركة الإصلاح القبطى خلال القرن التاسع عشر، فى الوقت الذى كان فيها حكام مصر يغلقون المدارس، تمشياً مع سياسة التصفية التى إتبعها محمد على وخلفاؤه منذ سنة ١٨٤١.

فإذا ما أعاد الدعوة بمقاله الذى نشرته له مجلة مدارس الأحد فى نوفمبر سنة ١٩٦٠، حتى تلقفتها جمعية التوفيق القبطية بالقاهرة، ودعت الجمعيات والهيئات القبطية إلى إجتماع يعقد بدارها من أجل القيام بالخطوات العملية لأجل تخليد هذه الذكرى العاطرة، فعقدت الجلسة الأولى لمندوبى الجمعيات القبطية المختلفة فى شهر ديسمبر وقرر المجتمعون أن يكون الاحتفال مهما كانت الصورة التى يتم بها بعد عرض الأمر على غبطة البطريرك المعظم الأنبا كيرلس السادس وتحت رعايته السامية. وما كاد غبطته يعلم بالأمر حتى أبدى سامى غبطته لهذا الأمر وأصدر قراراً بابوياً بتأليف لجنة هذا الاحتفال برياسة السيد المهندس يوسف سعد وكيل المجلس الملى العام على أن تنتخب من بينها لجنة تنفيذية، تقوم بالخطوات العملية كى يكون الاحتفال على أروع صورة تليق بالبابا كيرلس البطريرك الراحل.

وعقدت اللجنة البابوية عدة اجتماعات بالدار البطريركية، انتهت إلى قرارات تتلخص فيما يلى:

١) إطلاق اسم غبطة البابا كيرلس الرابع على مدرسة الأقباط الثانوية للبنين ومدرسة الأقباط الإعدادية للبنات بحارة السقايين.

٢) الكتابة إلى الحكومة باقتراح إصدار طابع بريد تذكارى يحمل صورة البابا كيرلس الرابع.

٣) تخصيص ثلاث جوائز كل منها عشرة جنيهات تمنح لأول خريجى القسم العـالى مـن الكلية اللاهوتية، وأول خريجى القسم المتوسط منها، وأولى ناجحات الشهادة الثانوية العامة.

٤) إقامـة قداسـات فى جميع كنائـس الكرازة المرقسيـة صبيحة يوم الثلاثـاء ٣١ يناير سنة ١٩٦١ يذكر فيها أسم البابا الراحل.

٥) إقامة مهرجان خطابى فى مساء يوم الثلاثاء ٣١ يناير سنة ١٩٦١ يتبادل الخطبـاء فيه الكلام عن نواحى العظمة المختلفة فى حياة البابا كيرلس الرابع.

٦) طبع جميع الخطب التى تلقى فى هذا المهرجان فى كتيب يباع للجماهير بتكاليفه.

٧) طبع صـورة ملونة لغبطة البابا الراحل تـوزع على الجمعيات والهيئات القبطيـة والأفراد كى يحتفظ بها الجميع تخليداً لذكراه.

٨) عمل تمثال لغبطته بالحجم الطبيعى يقام فى فناء الدار البطريركية.

وقد كتبت اللجنة إلى السيد رئيس الجمهورية، بشأن التماس إصدار طابع البريـد التذكارى، فتفضل السيد الرئيس بالموافقة على هذا الاقتراح، وأرسلت إدارة البريد إلى اللجنة خطاباً بهذه الموافقة قابلته برفع شكرها إلى السيد الرئيس.

كما أصدر غبطة البابا كيرلس السادس منشوراً بطريركياً بإقامة القداسـات فـى الكنائس صبيحة يوم ٣١ من يناير.

وقد فتحت اللجنة باب التبرعات، فوجهت كتاباً إلى الجمعيات القبطية والمجـالس الملية الفرعية والهيئات وأصحاب النيافة المطارنة ورؤساء الأديرة والهيئات القبطيـة الأخرى، وكذلك إلى كثيرين من الأفراد الذين عرفوا دائماً بالسبق إلى التبرع فوصلها:

جنيه	
٥٠	من المجلس الملـى العـام
٥٠	من جمعية التوفيق القبطيـة
٢٠	من الجمعية الخيرية القبطية
٢٠	من جمعية تربية الطفـولة
١٠	من جامعـة المحبـة
١٠	من مدارس التوفيق القبطية
٥	من الدكتور نجيب اسكنـدر
٣	من الأستاذ عبد الحليم الياس نصير المحامى

ومازالت اللجنة فى احتياج إلى مزيد من المال، لاسيما وأن إقامة التمثـال بـالحجم الطبيعى، سوف يتكلف ألفاً من الجنيهات، بعد أن تبرع الفنان الكبير الأستاذ راغب عيـاد، المدير السابق لمتحف الفن الحديث والأستاذ بمعهد الدراسات القبطية، بتصميمه بالمجان.

وفى نهاية شهر يناير سنة ١٩٦١، وجه صاحب القداسة البابا البطريرك كيرلس السادس، الدعوة إلى الاحتفال بافتتاح كلية البابا كيـرلس السادس اللاهوتية بأنبا رويس ودعوة أخرى بالمهرجان الخطابى للاحتفال بالعيد المئوى.

وقد تفضل السيد كمال الدين حسين رئيس المجلس التنفيـذى ووزيـر التربيـة والتعليم المركزى، بالاشتراك فى هذين الحفلين حيث شارك مندوب غبطة البطريـرك فى افتتاح الكلية اللاهوتية، وشرف الحفلة الثانية كضيف الشرف فيها حيث ألقى كلمـة تحيـة قوطعت فى جميع مقاطعهـا بالتصفيـق الحاد والهتاف للوحدة المقدسة، وكذلك الهتاف بحياة السيد الرئيس جمال عبد الناصر وها نحن ننشر كلمات الخطباء.

وقد رأى كل من الأب القمص إبراهيم عطية مدير الكلية اللاهوتيـة، والـدكتور سامى جبرة مدير معهد الدراسات القبطية، أن ينتهزا فرصة هذا الاحتفال بهذه المناسبة العظيمة ليقوم مندوب غبطة البطريرك بتوزيع الدرجات العلمية التى حازهـا خريجـو هذين المعهدين على مستحقيها فتم هذا فى نهاية الحفل بعد أن قدم سيادتهما الخـريجين بكلمتين بليغتين، وقد قام السيد الدكتور كمال رمزى استينو وزير التمـوين بتسـليمهم الدرجات العلمية بين تصفيق الجماهير.

حياة قداسة البابا كيرلس الرابع

(١٨٥٣- ١٨٦١)

في عام ١٨١٦ ولد داود توماس بشوت داود – ببلدة الصوامعة الشرقية من أعمال مركز أخميم، من أبوين تقيين اهتما بتربيته، فعلماه بكتاب الكنيسة علوم هذا العصر، وعرف منذ نعومة أظافره بالتقوى وحب الاطلاع والفروسية، حتى إذا بلغ مبلغ الشباب عزف عن المدنية بمباهجها، وولى وجهه شطر دير القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقية، لينخرط فى عداد رهبانه، وهو لم يتعد بعد الثانية والعشرين من عمره وعرف بين زملائه الرهبان بإقباله على الدرس، فكان دائم الاطلاع على ما فى مكتبة الدير. بل كان يعقد الحلقات من زملائه الرهبان، ويشرح لهم بعض ما قرأ. وبعد سنتين من ترهبه توفى رئيس الدير فاختاره الرهبان رئيساً لهم.

وقد عرف البابا بطرس الجاولى سعة أفقه وبعد نظره فانتدبه ليحسم الخلاف الذى كان قد نشب بين الأنبا سلامة الثالث مطران أثيوبيا والأكليروس هناك، ووصل الأمر بينهما إلى حد أن هددهم المطران باستعمال حقه القانونى. فبادروا بشكايته إلى البابا البطريرك. فسار إلى أثيوبيا حيث وجد كل فريق متمسكاً بوجهة نظره، فكان نجاحه محدوداً ولذا عاد والحزن يملأ نفسه فوصل إلى مصر فوجد البابا بطرس قد توفى، والشعب يبحث عن راع صالح، فأجمع الجميع على اختياره مطراناً عاماً (دون ايبارشية) فبطريركا وحمل اسم البابا كيرلس الرابع.

وقد برهن البابا كيرلس الرابع خلال قيادته القصيرة على أن رجل الدين يستطيع أن يؤدى لرعيته أجل الخدمات فى ميادين كثيرة متفرقة سواء اتصلت بالدين أو غير ذلك. وقد أتيح للبابا كيرلس أن يغزو ميادين الإصلاح فى أكثر من جهة حتى أطلق عليه المعاصرون ذلك اللقب الذى إرتبط به وهو "أبو الإصلاح" .

وما كاد البابا كيرلس يتسلم منصب البطريركية الرفيع فى سنة ١٨٥٤ حتى سارع إلى إنشاء مدرسة كبيرة فى الدرب الواسع بجوار البطريركية والكنيسة الكبرى فاستبدل الأماكن التى تلزم لذلك بأماكن أخرى. وباشر البناء بنفسه حتى إذا حلت سنة ١٨٥٥ حتى افتتحت مدرسة الأقباط الكبرى لتقبل بين طلبتها كل من يتقدم إليها مهما كانت ديانته، فكان بذلك القومى الصحيح واسع الأفق لاسيما وقد جعل التعليم فيها بالمجان وقد نجحت المدرسة منذ افتتاحها وشاهد مؤسسها نجاحها.

ولما رأى أن بعض الطلبة يقيمون فى جهات بعيدة، أنشأ لهم مدرسة وكنيسة بحارة السقايين. وكان الطلبة فى كلتا المدرستين يتلقون إلى جانب اللغة العربية اللغة القبطية واللغتين الإنجليزية والإيطالية والحساب والهندسة والعلوم الأخرى، ولم يلبث أن استأذن من سعيد باشا فى إدخال بعض تلاميذ المدرسة القبطية فى مدارس الطب وغيرها من المدارس، فأذن له فكان ذلك ما نسميه فى الوقت الحاضر اعتراف الوزارة بشهادة المدارس القبطية.

وقد عرف البابا البطريرك ما للمرأة من مكانة، فأسرع بإنشاء أول مدرسة للبنات فى مصر بل فى الشرق العربى كله. وهذه الخطوة وحدها دليل على القومية الصحيحة التى تبغى قيادة صحيحة.

وكأنه عرف ما لموقع مصر من أهمية كنقطة ارتكاز العالم أجمع وما على أهلها من واجب جمع الشرق والغرب، فحض على تعليم اللغات الأجنبية، وكان أكثر اهتمامه موجهاً إلى اللغتين الإيطالية والإنجليزية، وكانت الأولى لغة التجارة، أما الأخرى فكانت لموازنة اللغة الأولى كى لا تكون للغة ما أفضلية فى البلاد.

واهتم البابا كيرلس بالكتب فعمل على نشرها ولم تكن هناك من وسيلة لهذا النشاط الثقافى سوى الطباعة، فاهتم بإنشاء مطبعة عربية خاصة بالدار البطريركية فكانت أولى المطابع الأهلية العربية فى مصر.

وحدث أن ساءت العلاقة بين مصر وأثيوبيا بسبب اختلافهما على الحدود وبسبب غارات الجنود غير النظامية. وزادت دسائس الدول الاستعمارية من سوء الظن بين الدولتين. فعزم سعيد على أن يرسل حملة تأديبية تؤدب قبائل الحدود وتعيد إلى المنطقة هدوءها. ولكن الباب العالى أرسل إليه يثنيه عن عزمه. فلم يجد سعيد بداً من اللجوء إلى السياسة. فالتجأ إلى البابا كيرلس، الذى يتيح له مركزه كبطريرك للأسكندرية والنوبة وأثيوبيا والخمس مدن الغربية أن يتدخل فى الأمر فلم يتردد البابا كيرلس فى السفر من أجل إزالة سوء التفاهم. وكان ذلك سنة ١٨٥٦ وهى السنة الثانية من حكم تيودور امبراطور أثيوبيا، الذى وجد فى هذه الزيارة فرصة يوطد بها مركزه على أعدائه، رغم تتويج مطران أثيوبيا الأنبا سلامة له فى فبراير سنة ١٨٥٦.

ورغم ما أحاط هذه السفارة من مؤامرات الدول الاستعمارية، ورغم تصديق الامبراطور تيودور لهذه الدسائس، مما أدى إلى سوء ظنه بالبطريرك، فإن هذه السفارة نجحت وانتهت إلى معاهدة صداقة وقعها الامبراطور. وعاد البطريرك إلى مصر يصحبه وفد أثيوبى يحمل الهدايا إلى سعيد. فما وصل قداسته إلى مصر فى ١٣ فبراير

سنة ١٨٥٨، حتى استقبله الشعب والحكومة فى موكب دينى سار فيه القسس والشمامسة لابسين ملابسهم المذهبة يرفعون الصلبان من شاطئ بولاق حتى حارة السقايين.

وسعى البابا كيرلس الرابع – بفضل حسن علاقته برجال الطوائف المسيحية المختلفة – إلى توحيد الكنائس إلا أن الدسائس عادت إلى الظهور مرة أخرى، ولم يمهل الزمن الرجل لأجل أن يخطو هذه الخطوة الكبرى.

ولم تقف جهود البابا كيرلس عند هذا الحد، بل امتدت يده المصلحة إلى الأديرة فوضع للرهبان أنظمة صارمة لا يخلون بها. فحرم على الرهبان الخروج من الأديرة والطواف بالقرى. ولم يتردد فى إظهار حزمه عند كل مخالفة، حتى أطلق عليه الرهبان اسم (أبو نبوت).

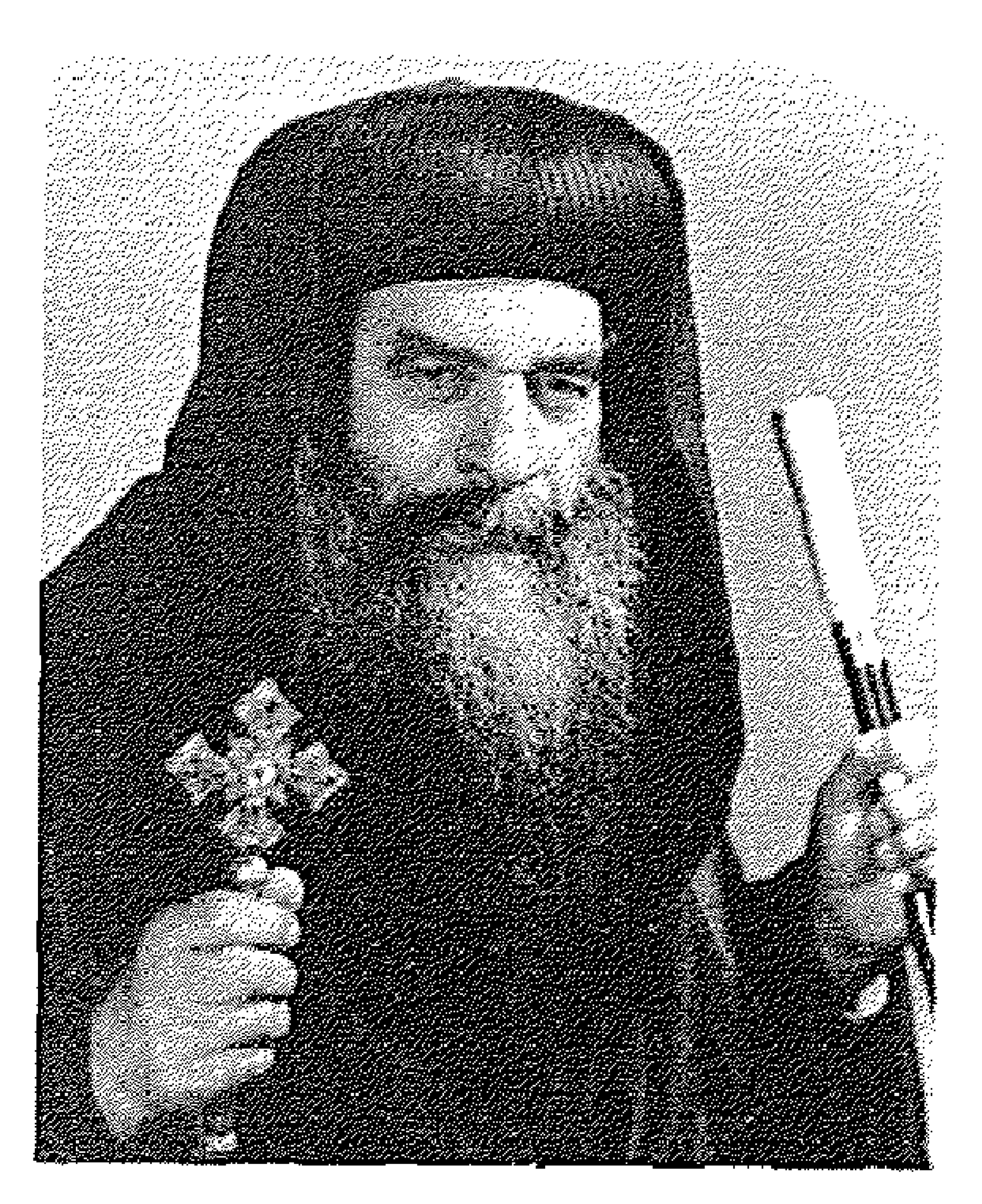
هذا إلى اهتمامه بمكتبات الأديرة فعين لكل منها أميناً، وحتم عليه أن يمسك سجلا بمحتوياتها. كما جعل اهتمامه باللغة القبطية عملياً. فألف لجنة لتضع لها كتاباً لتدريسها وأمر بإدخالها فى منهج المدارس القبطية.

وكان سوء حظ الأمة أن لم تطل مدة هذا البطريرك الجبار رغم صغر سنه فمات فى ظروف غامضة فى الثلاثين من يناير سنة ١٨٦١ وقيل يومئذ أن الوالى سعيد دس له من قتله بالسم.



كلمة غبطة البابا كيرلس السادس

وألقى نيافة الأنبا يؤانس مطران الجيزة كلمة قداسة البابا كيرلس السادس التي بعث بها إلى المحتفلين من الاسكندرية.



تحية الذكرى من كيرلس السادس بنعمة الله بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية إلى سلفه العظيم البابا كيرلس الرابع، المائة والعاشر من باباوات الكرسي الاسكندري.

يبعث كيرلس السادس إلى سلفه العظيم في البطاركة المطوب الذكر، المثلث الرحمات، الأنبا كيرلس الرابع، تحية من الأعماق في يوم الذكرى المئوية لنياحته، مستعرضاً مع الأكليروس والشعب، أعماله الخالدة في خدمة الله والكنيسة والمجتمع والعلم.

وأنه في هذا الجيل ليطوب ذكرى هذا القديس المصلح، الذي أضاء منتصف القرن التاسع عشر بأنوار إصلاحه، هذا الذي شمل الكثير من المرافق مما سيتناوله أبناؤنا المتحدثون في كلماتهم في هذه المناسبة التاريخية.

وستبقى الذكرى العطرة، لهذا البار، هدية للأجيال، يتخذ منها الناس قدوة صالحة، يترسمون خطاها لخدمة النهضة، في إعداد المواطن الصالح وتدعيم كيان الأسرة، والزود عن حياض الوطن.

وإذ نتوجه بقلوبنا إلى رب الكنيسة، له المجد، أن يجزيه عن ثمار غرس يديه، أجراً صالحاً سمائياً، نسأله تعالى أن يكافئ ويؤيد بقوته الإلهية كل من يعمل مخلصاً لنفع الإنسانية مؤازراً برعايته السيد الرئيس جمال عبد الناصر رائد الإصلاح وبطل الوحدة المقدسة، ورجال حكومته الرشيدة. ولإلهنا المجد والشكر الدائم.



كلمة السيد كمال الدين حسين

رئيس المجلس التنفيذى ووزير التربية والتعليم



السيد كمال الدين حسين يفتتح الإحتفال بالذكرى المئوية للبابا كيرلس الرابع وبجواره نيافة الأنبا أثناسيوس مطران كرسى بنى سويف والبهنسا وبينهما نيافة الأنبا يؤنس مطران كرسى الجيزة وخلفهما إلى يسار الصورة د. كمال رمزى أستينو وزير التموين.

وألقى السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم المركزى كلمة، حيا بها ذكرى البابا كيرلس الرابع، قال فيها:

أيها الأخوة. يسعدنى غاية السعادة أن أحضر هذا الحفل، إحياء للذكرى المئوية لذلك القديس الطاهر، الرائد حامل مشعل الإيمان، مشعل العلم والنور، مشعل السلام والانسانية.

إن احتفالنا بهذه الذكرى العطرة تقدير عظيم لهذا الرائد العظيم. تقدير منا للاطهار، منا للذين تحملوا عبء الكفاح من أجل هذا الشعب، تقدير عظيم للمستقبل الذى ينتظره أبناء هذا الجيل. إننا نعطى بهذه الذ كرى مثالا رفيعاً لأبناء هذا الجيل الذى سوف يقوم على أكتافهم بناء المستقبل. حينما يذكرون أعمال القديس البابا كيرلس الرابع، يضعون أمام عيونهم مثالا يستضيئون بشعاع ضوئه فى الطريق إلى الحياة الكريمة، وإلى الحرية، وإلى السلام هذه هى المبادئ التى نعتنقها الآن، ونؤمن بها. لأننا نرى فيها سبيلا لاستكمال ما ينقصنا، نرى فى الايمان بالله سبيلا إلى سعادتنا، وإلى بناء مستقبلنا. ونحن نؤمن بأن الأسرة هى أساس المجتمع، وأن هذه الأسرة قوامها الدين

والأخلاق والوطنية. وقد رسم لنا هذا الرجل العظيم طريقاً إلى الوطنيــة، ورســم لنــا طريقاً إلى الوطنية، ورسم لنا طريقاً إلى الدين. والسادة الآباء الأجلاء، أقدر مني على شرح هذه الناحية، وهم قادرون على أن يجلوا طريق الوطنية الذي سلكه هذا الرجــل العظيم. وأنتم تعلمون ما فعله في سبيل نشر رسالته، وفي سبيل تبديد الظلام الذي كان يحيط بالشعب، تذكرون عهد عباس وسعيد حينما قفل باب التعليم والحرية أمام الشعب. إن للدين وللعلم أبواباً فسيحة تؤدي إلى الحرية والتقدم. ولقد قفلت هذه الأبواب، فجــاء هذا الرائد وفتح الباب أمام الشعب، وأنشأ المدارس، وحطم السلاســل، وفــتح طريقــاً واسعاً أمام الشعب، وقاد حركته الوطنية.

فجدير بنا أن نحيي هذه الذكرى، ونرجو أن نحتفل بمثلها، لتدفعنا إلــى الطريــق نحو مستقبلنا، يقودنا في خطواتنا الناجحة المنتصرة الرئيس جمال عبد الناصر.

كلمة السيد المهندس يوسف سعد

وكيل المجلس الملى العام

سيدى ضيف الشرف كمال الدين حسين:

آبائى أصحاب النيافة المطارنة:

سادتى:

تحتفل البلاد دائماً بأعيادها البارزة كأعياد النصر وأعياد العلم وغيرها واليوم نحتفل بعيد، اسمحوا لى بتسميته عيد الإصلاح.

وإذا ذكر الإصلاح فى محيطنا القبطى، ذهب تفكيرنا فوراً إلى أبى الإصلاح البابا القديس مثلث الرحمات كيرلس الرابع، الذى نحتفل اليوم بذكراه المئوية الأولى.

لست مؤرخاً كى أعدد مناقب هذا القديس الخالد الذكر، الذى سبق جيله بكثير، فسيتلونى من كبار الأساتذة من هم أقدر منى على طرق هذا الباب، وإيفاء الرجل العظيم حقه.

إنما يهمنى كمهندس ووكيل للمجلس الملى العام، أن أذكر أننا فى هذا العهد السعيد، الذى عم فيه الإصلاح كل النواحى بتوجيه زعيم العروبة الرئيس جمال عبد الناصر، ومؤازرة صحبه العاملين، أن يكون الجالس على كرسى القديس مرقس قداسة البابا كيرلس السادس، الذى أوجد فى الفترة القصيرة التى اعتلى فيها الكرسى نهضة روحية فذة والتفافاً حوله بشكل بارز.

وكان يسعدنا أن يكون حاضراً معنا اليوم لنحظى ببركته وصلواته، ولكن أعذاراً قهرية لم تمكنه من الحضور فأناب عن قداسته آباءنا المطارنة الأجلاء.

وكان من شدة عنايته بالإصلاح الشامل وتوجيهاته الحكيمة، أن قام المجلس الملى العام فى قطاعه الخاص باقتداء سياسة الدولة الرشيدة فى الإنشاء والتعمير، وكان طبيعياً أن يسعى المجلس للعمل جاهداً، فى الإنشاءات التى تعود على أفراد الشعب بالخير العميم، من حيث التربية الأخلاقية والدينية والتعليمية.

وها قد تفضل اليوم السيد ضيف الشرف كمال الدين حسين رئيس المجلس التنفيذى ووزير التربية والتعليم المركزى مشكوراً بافتتاح كلية البابا كيرلس السادس اللاهوتية، التى نرجو لها الازدهار لتنمو وتترعرع لتؤتى ثمارها، لرفع مستوى الفضيلة بين المواطنين، ببركة ورعاية قداسة البابا كيرلس السادس.

ويسعدنى أن أذكر أن المجلس الملى العام قد قام فى الفترة الأخيرة بإنشاء كنيسة نموذجية بالمعصرة، تطل على النيل بدلا من الكنيسة القديمة التى تدخلت فى الكورنيش العظيم، الذى أنشأه رجال الثورة بين مصر وحلوان، كذلك قـام بإنشـاء ديـر جديـد للراهبات بجوار دير الأمير تادرس بحارة الروم والذى كاد يتهدم لقدمه.

وجددنا كذلك ما رؤى تجديده بدير العريان، ولا نألو جهدا فى عمل كل ما يمكن عمله فى سبيل الإصلاح كلما أسعفنا المال.

وإن كنت قد ذكرت شيئـاً من أعمال المجلس الملى العام من ناحية الانشـاءات، فلا أنسى المجهود الكبيـر الذى يقـوم به مجلس ملى الإسكندرية وغيره من المجالس الفرعية والجمعيات فى باقى أنحاء القطر.

والآن أتقدم بموفور الشكر والعرفان بالجميل، للسيد ضيف الشرف كمال الـدين حسين، وللسيد الدكتور كمال رمزى استينو وزير التموين المركزى، علـى تفضـلهما بتشريفنا والاشتراك معنا فى افتتاح الكلية وفى هذا الحفل التـذكارى لأبـى الاصـلاح القبطى البابا كيرلس الرابع.

كما أننى أرجو للبلاد كل تقدم وازدهار، لتتبوأ مكانها الوضاء بين شعوب العالم، برئاسة زعيم العروبة الموفق الرئيس جمال عبد الناصر، الذى يقودنا من نصـر إلـى نصر ومن عز إلى عز.

وأشكركم.

البابا كيرلس الرابع والتعليم اللاهوتى

د. وهيب عطا الله*

فى يقينى أن أعظم أعمال البابا كيرلس الرابع الاصلاحية فى الفترة التى أدار فيها دفة كنيستنا القبطية الأرثوذكسية ليس هو إنشاءه للكاتدرائية المرقسية بالقاهرة، ولا إقامته المدرسة الكبرى أو مدرسة حارة السقايين ولا استحضاره المطبعة من أوربا، ولا مناداته بتعليم البنت وإنشاء مدرسة لتعليمها، ولا منعه الرهبان من مغادرة أديرتهم، وإنما أعظم أعماله الاصلاحية جميعاً هو اهتمامه بإنشاء مدرسة إكليريكية لتثقيف رجال الدين وإعدادهم للاضطلاع بمسئوليات الرعاية وواجبات الكهنوت.

تلك الأعمال الاصلاحية كلها جليلة حقاً ما فى ذلك شك، وكلها نافعة حقاً ما فى ذلك ريب، بل وكان سابقا فيها لزمانه بقرون وأخصها مناداته بتعليم البنت. وأما اهتمامه بتثقيف رجال الدين فعمل أجل خطراً وأعظم أثراً من جميع أعماله الأخرى.

رأى أبو الإصلاح القبطى أن المستوى العلمى لرجال الدين فى زمانه قد هوى إلى درجة تنذر بالخطر، وأدرك أنه لا سبيل إلى الإصلاح إذا كانت القيادة معوجّة جاهلة والرعاية ضالة تائهة، وأن الإصلاح الشامل ينبغى أن يبدأ برجل الدين وينتهى إلى الطفل، كما يبدأ بالطفل وينتهى إلى رجل الدين. فالاصلاح الحقيقى إذن يجب أن يسير فى الاتجاهين معا لا فى اتجاه واحد. وكل محاولة لمحاربة أحد الاتجاهين للاكتفاء بالآخر محاولة لاقامة إصلاح أعرج أبتر.

لقد انتصر أبو الإصلاح القبطى للعلم، العلم للولد والبنت، ثم العلم لرجال الدين. فكان جميلا ببطريرك روحانى أن يرفع من قدر العلم وأن يعلى مناره.

قال الوحى بفم الحكيم سليمان "النفس من دون علم غير صالحة" (أمثال ١٩ : ٢) وقال الرب يخاطب الكهنة بفم هوشع النبى "قد هلك شعبى لعدم المعرفة. فبما أنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا أيضا، فلا تكون لى كاهنا" (هوشع ٤ : ٦).

* وكيل كلية البابا كيرلس السادس اللاهوتية بمنطقة الأنبا رويس بالعباسية. فيما بعد نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف عام البحث العلمى والثقافة القبطية (١٩٦٧ - ٢٠٠١م)

وقديما نادى سقراط بأن الجهل رذيلة وأن العلم فضيلة، بل ذهب إلى أبعد من هذا فقال إن الشر جهل وأن الخير علم.

ولئن كان حقاً أن هناك أشراراً بين العلماء، وأخياراً بين الجهال، لكن من الحق أن يقال أيضا إن العلماء الأشرار ليسوا علماء على الحقيقة، وإن الجهال الخيرين ليسوا جهّالا على الحقيقة. فالعلم الحقيقى خير كله وليس فيه شر، والجهل الحقيقى شر كله وليس فيه خير.

وليس العلم هو العلم الذى يتلقونه فى المدارس فحسب، فهناك أيضا العلم الذى يتلقفه الطفل من أبويه فى أسرته، والعلم الذى يأخذه من مدرسة الحياة من تأملاته وخبراته فى المجتمع الذى يحيا فيه. وهناك العلم الذى يهبط على قلب المؤمن من علٍ، ويشرق فى نفسه بالإشراق الباطنى فيلهمه إلهاما يسمو على جميع مصادر المعرفة الفكرية والعقلية.

ولا شك أن مصادر العلم كما قلنا متعددة، ولكن الذى لا شك فيه أن المدرسة الناجحة طريق لابد منه فى عصرنا هذا لتهيئة الطلاب لقبول المعرفة فى جميع مصادرها.

فالطالب يتلقى فيها خبرات السابقين وعلومهم وتجاربهم، لتكون أساساً سليما يبنى عليه ما يختاره لمستقبله. وكلما تقدمت الخبرات الفردية فى حياة النابغين والنابهين من ذوى العقول الثاقبة والاشراق الباطنى تقدمت المدارس التى تضم فى كل يوم جديداً من تلك الخبرات التى اجتمعت للمبرزين والموهوبين والملهمين.

وإذن فلابد من المدرسة بالمعنى الذى نفهمه اليوم، الذى يقبل فى كل يوم جديداً من التطور.

وأن السيد المسيح الذى هبط إلى عالمنا من السماء وحدثنا عن العلم السماوى، أو العلم النازل من السماء[1]، والذى يسكبه الروح القدس فى قلوب المستحقين للإشراق الإلهى، هو الذى أنشأ الاكليريكية الأولى فى العهد الجديد. واختار طلابها من أثنى عشر تلميذاً تركوا كل شئ وانقطعوا للعلم على يدى المعلم الأكبر، مدة تزيد على ثلاث سنوات، سبقتها بطبيعة الحال سنوات أخرى فى معرفة مدرسية منهجية وخبرات عملية.

---

(١) "أنهم يكونون بأجمعهم متعلمين من الروح القدس (من الله)" (يوحنا ٦ : ٤٥).

وعلى نفس المبدأ السيدى، سار التقليد الرسولى فى تهيئة رجال الدين فى العصر الرسولى الأول والعصور التالية إلى يومنا هذا. ولذلك لن تجد كنيسة مسيحية فى زماننا إلا ولها مدرسة لاهوتية تحتضنها الكنيسة: رعاتها وأراخنتها، ويحرص الأساقفة فيهـا والشعب على معاونتها ومساندتها وتشجيعها روحياً وفكرياً ومادياً.

وكنيستنا القبطية المجيدة هى أول من وعى هذا الدرس الثمين من المعلم الأعظم، فأنشأ مارمرقس الرسول البطريرك الأول، مدرسة دينية إلـى جانـب الكنيسـة التـى اشتغلت بتفسير الكتب المقدسة وحل المشكلات القائمة بين الـدين والعلـم. وتطـورت المدرسة تبعا لحالة البلاد وأدخلت إليها العلوم المدنية إلى جانب العلوم الروحية. ولـم ينتصف القرن الثانى للميلاد حتى أصبحت المدرسة الناشئة جامعة لاهوتية كبيرة شملت دراساتها علوم الدين وعلوم الدنيا من فلسفة إلى طب إلى فلك إلى رياضيات إلى تاريخ وآثار فضلا عن الموسيقى ومعرفة اللغات.

وفى نهاية القرن الخامس أراد ملوك بيزنطة أن يفرضوا على آبائنا مـذهبا فـى الدين، أباه الأقباط فى مصر: فاضطهدوهم. وكان لابد للمدرسة اللاهوتية فى الاسكندرية من أن تتأثر بهذا الاضطهاد، فتشتت أساتذتها وطلابها، وعصفت بها أعاصير السياسة فأغلقتهـا ولكن بعضا من أساتذتها وطلابها عشقوا حياة الهدوء فى الأديرة، واستقروا خصوصـا فـى دير أبومقار بوادى النطرون وهذا هو السر فى أن ثمانية وعشرين بطريركا مـن بابـاوات الكرسى المرقسى قد اختيروا من هذا الدير بعد غلق المدرسة اللاهوتية فى الإسكندرية.

إن البابا كيرلس الرابع لم ينشئ للاكليريكية مبنى، ولم يضع لها منهجا علميا منظمـا فقط، ولكنه وضع اللبنة الأولى فى الاكليريكية التى شيدها البابا كيرلس الخـامس، وباركهـا ودعمها البابا كيرلس السادس.

وتلك الصورة المبسطة التى أقامها كيرلس الرابع كانت ذات وجهـين: وجههـا الأول هو: الشبان الصغار الذين إختارهم البابا ليتلقوا دروسا قوية فى الدين المسـيحى، واللغة القبطية، والموسيقى، والألحان القبطية الكنسية. وعين عليهم القمص تكلا وكـان ضليعا فى اللغة القبطية كما كان مشهورا فى فن الموسيقى والتلحين، وعين لمعاونتـه فى تدريس الدين القمص يوسف رزق، وفى تدريس الموسـيقى الموسـيقار الايطـالى المسمى بالكلارينت. وقد تتلمذ على القمص تكلا وعمل معه المعلم عريـان جـرجس مفتاح والقمص فيلوثيؤس إبراهيم.

ولكى يشجع البابا الشباب على دراستهم ويدلل لهم على اهتمامه بهم ورعايته لهم عمل لهم زيا خاصا يرتدونه أثناء الخدمة. ويقال إنه أنفق على هذا الزى ١٧.٠٠٠ سبعة عشر ألف بندقى.

هذا هو الوجه الأول للصورة المبسطة التى كانت عليها الاكليريكية أيام كيرلس الرابع.

أما الوجه الثانى للصورة: فهو مجهوده بالنسبة لكهنة القاهرة وضواحيها الذين كانوا مقامين خداما بالفعل، كان البابا يجمعهم بالبطريركية أسبوعيا، فى كل يوم سبت، وحدد لهم موعداً للمطالعة والمذاكرة والبحث فى المسائل الدينية والشرعية. وكان يحضر بنفسه هذه الاجتماعات، ويشرح للكهنة واجباتهم ويفسر لهم ما أشكل عليهم فهمه، ويجيبهم على أسئلتهم، وكان يعاونه فى مهمته هذه رجل تميز من بينهم بالعلم الواسع هو القمص جرجس ضبيع.

ولم يطل الأمد بأبى الاصلاح ليمتد بهذه المدرسة فى صورتها المتواضعة. ولكن شاء الله أن يحتضن البابا كيرلس الخامس هذه الفكرة الصالحة، فأنشأ الاكليريكية فى مهمشة وكان يحنو على مديرها وأساتذتها وطلابها وكان يفتقدهم من وقت إلى آخر، بل لقد خصص له جناحا فيها ليقيم فيه أحيانا.

وجاء عهد صاحب القداسة البابا كيرلس السادس فأولى الاكليريكية اهتماما خاصا، وأصدر قرارا مجمعيا فى أول مجمع انعقد برياسته فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٩ يقضى بمضاعفة الاهتمام بالنهوض بالكلية الاكليريكية ورسامة خريجيها كهنة. وقداسته حريص كل الحرص على احترام هذا القرار والتزامه دائما مهما تكن الأسباب، وهو على الدوام يحُضّ الآباء المطارنة والأساقفة على وجوب التزام هذا المبدأ اللازم لخير الكنيسة.

ومنذ أن تولى قداسته رياسة الكهنوت العظمى رسم على مدينتى القاهرة والإسكندرية وحدهما أحد عشر كاهنا على الأقل من خريجى الكلية. وهذا بخلاف عدد كبير آخر رسمه أيضا فى سائر ايبارشيات الكرازة المرقسية أصحاب النيافة المطارنة والأساقفة، إيمانا منهم برسالة الكلية.

هذا وقد أولى قداسته الكلية إدارة وأساتذة وطلابا شرفا أيما شرف بتفضله بحضور حفل الكلية فى مساء الثلاثاء ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٩ يحف به ثمانية من

أصحاب النيافة المطارنة والأساقفة، وتفضل أيضا فوزع على خريجى الكلية شهاداتهم بيده الطاهرة بعد أن وقع عليها بخاتمه البابوى.

والكلية الاكليركية التى افتتحها مندوب قداسة البابا كيرلس السادس، والسيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم المركزى ووزير الإدارة المحلية ورئيس المجلس التنفيذى للإقليم الجنوبى، فى الساعة الرابعة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ٣١ من يناير ١٩٦١ الموافق ٢٣ من طوبة ١٦٧٧، والتى تفضل قداسة البابا فارتضى أن تحمل اسمه المبارك وسميت "كلية البابا كيرلس السادس اللاهوتية" هى الكلية اللاهوتية الكبرى فى جميع الأقطار والبلاد التابعة للكرازة المرقسية فى أفريقيا والشرق الأدنى يقصد إليها الطلاب من هذه البلاد بعد أن يتموا علومهم المدنية والدينية فى بلادهم.

يقبل فيها الحاصلون على الثانوية العامة أو ما يعادلها على الأقل، يقيمون فى مبناها نهارا وليلا، يحيون معا حياة اشتراكية مسيحية تعاونية، ويتهيئون فيها لتكوين مجتمع ديمقراطى متماسك.

وتضم بين أقسامها قسما ليليا يقبل الحاصلين على الليسانس أو البكالوريوس من إحدى الجامعات المصرية أو ما يعادلها، ونرجو أن يتحول هذا القسم إلى قسم نهارى ينقطع طلابه للدراسة اللاهوتية انقطاعا تاما.

ولقد أعد لهذه الكلية اللاهوتية منهج ضخم يتألف من ست مجموعات من المواد الدينية والعلمية واللغات الحية والقديمة.

أما المجموعة الأولى: فتشمل دراسة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وتفسير نصوصه.

والمجموعة الثانية: مجموعة العلوم اللاهوتية.

وتشمل المباحث المتنوعة التى تتصل بحقيقة الله، وإثبات وجوده، ووحدانيته، وسائر صفاته، والوحى، والنفس الإنسانية، وروحانيتها، وخلودها، ومصير الإنسان بعد الموت، والمباحث المتصلة بالآخرة، والحساب والثواب، والعقاب، وسائر المعتقدات الدينية المسيحية كالتثليث، والتجسد، والفداء.

أما العلم المتصل بإثبات هذه الحقائق إثباتا منطقيا عقليا من دون حاجة إلى النصوص فيسمى باللاهوت النظرى، وهو كذلك يناقش المعتقدات الدينية من حيث علاقتها بالعلوم والنظريات العلمية الجديدة.

وأما العلم المتصل بإثبات العقائد اعتمادا على نصوص الكتب المقدسة مع مناقشتها وتفسيرها فيسمى باللاهوت العقيدى.

وأما العلم المتصل بالنظريات المختلفة التى ظهرت فى تاريخ المسيحية، فيسمى باللاهوت المقارن.

وأما العلم المتصل بدراسة ترتيبات العبادة وطقوسها التى تمارس فى كنائسنا فيسمى باللاهوت الطقسى.

والمجموعة الثالثة: مجموعة العلوم الكنسية وتشمل تاريخ الكنيسة والباترولوجيا (أقوال الآباء)، وقوانين الكنيسة، والموسيقى القبطية، والألحان الكنسية.

والمجموعة الرابعة: مجموعة العلوم الفلسفية والتربوية.

وهى تشمل الفلسفة وتاريخ الفلسفة، والمنطق وعلم النفس، وأصول التربية، والتربية العملية.

والمجموعة الخامسة: مجموعة العلوم التاريخية والطبيعية، وتشمل تاريخ مصر وسوريا وشعوب الشرق وأفريقيا وآسيا وجغرافيتها. والمجتمع المصرى، وكذلك العلوم العامة من طبيعة وفلك وأحياء، ثم الثقافة الطبية والصحية.

والمجموعة السادسة: مجموعة اللغات الحية والقديمة.

واللغات الحية تشمل اللغة العربية والخطابة ثم اللغة الانجليزية.

وأما اللغات القديمة فتشمل اللغة القبطية، ولغات الكتاب المقدس وهى اليونانية، والعبرانية، والسريانية.

هذه المواد منها ما يدرس على أربع سنوات، ومنها ما يدرس فى ثلاث سنوات أو سنتين، ولكن مجموعة سنى الدراسة أربع سنوات، ينال الطالب بعدها بكالوريوس الكلية فى العلوم اللاهوتية والكنيسية بشرط حصوله على ٦٠% على الأقل من المجموع الكلى.

وللكلية مجلس أساتذة يتألف من أعضاء هيئة التدريس فيها، ومجلس إدارة يتألف من وكيل المجلس الملى العام، وثلاثة أعضاء من لجنة التعليم الملى العام، ثم مدير الكلية ووكيل الكلية ورؤساء الأقسام، وأربعة من كبار الأساتذة فى جامعاتنا المصرية.

ولا يعين مساعد مدرس بالكلية من لم يكن حاصلا على درجة البكالوريوس على الأقل، ومن بين أعضاء هيئة التدريس عدد من الحاصلين على الماجستير، وعدد من الحاصلين على الدكتوراه فى مادة تخصصهم فضلا عن إجازات أخرى جامعية من الجامعات المصرية أو من جامعات أخرى أجنبية.

تلك كلمة عاجلة سريعة، ولا يفوتنا هنا أن نشكر جميع الذين ساهموا فى إقامة هذا الصرح اللاهوائى من الأحياء، ونترحم على الذين ساندوه وأيدوه من الراحلين، ولازلنا نحتاج إلى مضاعفة الجهود وإلى معاونة الكل فى سبيل ازدهار هذه الكلية اللاهوتية لعلنا نلاحق الزمن الذى نعيش فيه اليوم، وحتى نحقق جميع الآمال المعقودة على أكبر معهد لاهوتى للكرازة المرقسية بأسرها.



البابا كيرلس الرابع وعنايته بالنهوض بالفتاة المصرية

الأستاذة إيريس حبيب المصرى*



إن من يتأمل تاريخ هذا الوادى العتيق يجد عجبا: فمصر الفرعونية، خلافاً للشعوب ذات الحضارات القديمة قد منحت المرأة الحرية إلى حد جعل هيرودوت (اليونانى) يقول إنه قد وجد فيها كل شئ مخالفاً للمألوف: وجد الرجال فى البيوت والنسوة فى الأسواق.

وسار الأبناء على منهج الآباء فتمتعت المرأة بالحرية التى أقرها لها آباء الكنيسة.

على أن تاريخ مصر شبيه بالنيل وما يتناوبه من فيضان وانحسار، أو بتعاقب الليل والنهار. فكانت تمر عصور ساطعة يعقبها ظلام دامس. وفى فترات الظلمة اضطرت المرأة المصرية إلى الانزواء.

وإنه لمن دواعى فخرنا واعتزازنا أن الأنبا كيرلس الرابع (الملقب بأبى الإصلاح) كان ممن أوقدوا الشعلة من جديد بعد فترة مظلمة، ثم رفع هذه الشعلة عالياً ليصل ضوءها إلى مختلف الأركان.

ومن الأمور التى ألقى أبو الإصلاح عليها بضوئه أمر المرأة. فقد أدرك بثاقب بصيرته أن مجتمعاً يقبع نصفه فى الظلام هو مجتمع لا يستمتع بالضوء فى صفائه، كما أدرك أن الفتاة التى تنزوى فى ركن مظلم لا يمكنها أن تربى مواطنين صالحين

* (١٩١٠ – ١٩٩٤) أستاذة مادة تاريخ الكنيسة بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة والمؤرخة الكنسية.

يواجهون الضوء من غير أن يخطف أبصارهم، لأن الأم هى المدرسة الأولى والمرشد الأول، وكأنه فى هذه الحقيقة قد توقع ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم بعد ذلك بسنين فى بيته المأثور:

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعبا طيب الأعراق

وبإدراك هذه الحقيقة افتتح الأنبا كيرلس الرابع أول مدرسة من النوع الحديث للبنت فى حارة السقايين. ولا تزال هذه المدرسة عامرة بحمد الله، تتدافع فيها الفتيات أضعاف ما كن يتدافعن فيها أيام أن افتتحها. ومنذ البداية فتحها لتعليم الفتيات المصريات جميعا المسلمات والمسيحيات سواء بسواء.

ولكى ندرك إلى أى مدى سبق أبو الإصلاح جيله، نقول بمناسبة افتتاحه مدرسة البنات أن آباء أولئك البنات غضبوا غضبة مضريه، ورفعوا شكواهم إلى الوالى طالبين إليه إغلاق المدرسة، إذ لا يليق بالبنت أن تتعلم! ومن حسن الحظ أن الوالى يومذاك جاء فى صف أبى الإصلاح إلى درجة جعلته يوقف بعض الأفدنة على هذه المدرسة.

ولم تتناول عنايته بالفتاة أمر تعليمها فحسب، بل امتدت إلى إنصافها بإعطائها حقها فى الميراث أسوة بأخيها. فقد حدث أن إختلف ورثة إحدى العائلات. ومع أنهم كانوا من الكاثوليك إلا أنهم رأوا الاحتكام إلى الأنبا كيرلس الرابع والنزول على رأيه. فلما استفتوه فى المسألة سألهم: "حينما تصنع المرأة الصلاح فهل يعطيها الله تعالى المثوبة من عنده أم لا؟". أجابوه: "نعم يعطيها". فعاد يسألهم " وهل يعطيها المثوبة ناقصة لأنها امرأة؟" أجابوه: "كلا – إنه يعطيها جزاءها كاملا". فقال لهم : "مادام الله يعطى المثوبة للمرأة كاملة أفلا يجدر بمن يؤمنون به أن يعملوا مثله ويطيعوا أوامره" ، فقبل المحتكمون إليه مشورته وأعطوا أخواتهم حقوقهن. ولقد إرتكن أبو الإصلاح فى مشورته هذه إلى ما قاله ابن كاتب قيصر فى تفسيره لكلمات وردت فى إحدى رسائل بولس الرسول حيث قال: "إن الله تعالى لما عظم الرجل بخلقه على صورته ومثاله خشى أن يتسامح ويظن أن بين الرجل والمرأة فرقا فى الجوهر فتلافى ذلك بأن جعلها مجد بعلها أى جماله وشرفه إذ هى معينته فى الحياة بكل ما فيها من سعادة وبؤس وخير وشر".

وليس من شك في أن أبى الإصلاح استوحى حكمه من أسلافه الأماجد ومن معلمى الإسكندرية الذين تلقى العالم كله تعاليمهم في إجلال واحترام فقد قال اكليمدص الاسكندرى فى هذا الصدد: إن الجنس أمر عرضى يزول بزوال هذا الجسد، والجزاء الأبدى ليس لذكر أو لأنثى بل للإنسان فحسب إذ تزول الرغبة الجنسية التى تفرق بين الناس. ومن البديهى أن الذين يتشاركون الحياة لهم نعمة مشتركة وخلاص مشترك".

وعلى أساس هذه التعاليم المستقاة من أقوال مخلصنا نفسه، بنى أبو الإصلاح أحكامه. فقد قال لنا السيد المسيح : "تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله ... لأن أبناء هذا الدهر يزوِّجون ويزوَّجون أما الذين حسبوا أهلا للحياة فى الدهر الآتى فلا يتزوجون بل يصيرون كملائكة الله". وتفسيراً لهذا التعليم الكريم قال اكليمدص الاسكندرى أيضاً: "إنه فى هذا الدهر الزائل فقط يوجد ذكر وأنثى، أما فى الدهر الآتى الباقى فالأمر ليس كذلك. فهنا الزواج، أما هناك فالجزاء عن هذه الحياة الاجتماعية المقدسة".

ويقول بعض الناس عن أبى الإصلاح أنه كان يتحاشى المجتمعات التى يكون فيها عدد من السيدات وبخاصة فى الأفراح والولائم. على أن مسلكه هذا لا يتعارض مع جهوده فى سبيل إصلاح شأن المرأة. فقد كان زاهداً متقشفا، هجر العالم ومباهجه، واختار البتولة بدلا من الزواج. وإلى جانب ذلك فقد عاش فى عصر ساده الزعم بأن المرأة وسيلة يتذرع بها الشيطان للإيقاع بالرجال. فكان الزهاد يتباعدون عنها قدر الإمكان. كذلك لم يكن المجتمع فى عصر الأنبا كيرلس يستسيغ فكرة التعاون والألفة بين الجنسين، فكان الشخص – رجلا أو امرأة – الذى يسمح لنفسه بالتقرب من الجنس الأخر عرضة للنقد اللاذع من الجميع. لذلك رأى أبو الإصلاح وجوب الابتعاد عن المجتمعات النسائية لكى لا يعترض أحد، ولكى يكون هو نفسه فى مأمن من الهواجس والخيالات – ولكنه – مع هذا المسلك الذى فرضه على نفسه لم يكن ليكتفى بأنه افتتح مدرسة للبنات، بل كان يزور هذه المدرسة ويدخل الفصول ويرقب التلميذات وكراريسهن. وبهذه الزيارات شجع التلميذات على الاجتهاد.

فالأنبا كيرلس الرابع – مع كونه سبق جيله فى التفكير وفى تمهيد الطريق أمام أجيال أسعد حالا من جيله – مع كونه هذا كله، إلا أنه راعى مقتضيات العرف فيما

يتعلق بمقابلة النساء، كما راعى مقتضيات الطبيعة الإنسانية فتحاشى ما قد تجره عليه من صراع نفسى ومن انتقاد خارجى، فالمصلحون قادة وقدوة معا – ونرى هاتين الصفتين متوفرتين فى أبى الإصلاح – فقد قاد الشعب نحو التقدم وكان قدوة له فى المحافظة على التقاليد السائدة المستندة إلى ما يجب أن يكون بين الناس من احتشام.

ولئن وقفنا اليوم نتذاكر جهود البابا كيرلس الرابع فما ذلك إلا لنجعل من سيرته حافزا للسعى المتواصل لعلنا نبلغ الهدف الذى سعى هو لأجله. فنحن إذن نقف بين الذكرى والرجاء: ذكرى الجهود الجبارة التى بذلها فمكنته من أن يثمر فى سبع سنين ما لم ينتجه غيره فى أضعاف هذه المدة، والرجاء فى أن نواصل سعيه الذكرى الوطنية الجياشة والجرأة العجيبة التى امتاز بها أبو الإصلاح، والرجاء فى أن نتحلى نحن أيضا بهذه الصفات المثالية. وأننا كشعب له ماض عريق سحيق وإمكانيات جزيلة عظيمة نتطلع نحو مستقبل ساطع. وفى تطلعنا نحو هذا المستقبل نستوحى سير الأبطال الأمجاد أمثال الأنبا كيرلس الرابع.

ومن دواعى ثقتنا واغتباطنا أن العناية بشأن المرأة والنهوض بها فى جميع مرافق الحياة من الأمور التى تلقى التشجيع والتعضيد من رئيسنا المقدام جمال عبد الناصر. وهكذا يجد أبناء مصر وبناتها من يسعى إلى النهوض بهم فى مختلف الأزمنة. لذلك حق لنا أن نهتف مع أمير الشعراء أحمد شوقى مرددين قوله:

يصلح الملك على طائفة هم جمال الأرض حينا بعد حين

ملأوا الدنيا على قلتها وقديما ملئت بالمرسلين

زيارة البابا كيرلس الرابع لأثيوبيا

د. زاهر رياض*

دخلت المسيحية أثيوبيا عن طريق مصر، منذ القرن الرابع الميلادى وظلت كنيسة أثيوبيا طوال ستة عشر قرنا تتمتع ببنوة صادقة أمينة من رعاة الكنيسة المصرية وبطاركتها. فعملت على هداية الأثيوبيين إلى الإيمان القويم عن طريق الكتب القبطية والعربية التى ترجمت إلى اللغة الجعزية بواسطة الرهبان المصريين الذين عاشوا فى الأديرة الأثيوبية أو الرهبان الأثيوبيين الذين عاشوا فى الأديرة المصرية. كما عملت على دحض البدع والهرطقات بالكتابة إلى المطارنة أن يقوموا بدورهم بهذا العمل وإظهار حقيقة هذه البدع للشعب. فإذا كان العالم المسيحى قد عرف الانقسام عن طريق هذه المذاهب المسيحية المختلفة فإن هذه الفرقة لم تظهر مطلقا فى أثيوبيا. وظل اعتقاد الشعب الأثيوبى أرثوذكسيا سليما. لا تعرف الاختلافات والانقسامات إليه سبيلا.

ولعل أظهر ما ميز تاريخ العلاقات بين الكنيستين الأثيوبية والمصرية ظاهرتان، أولاهما موقف الكنيسة المصرية من الاستعمار الأجنبى. فإذا ما هدد أثيوبيا خطر أجنبى أو حاول معتد الاعتداء على أراضيها، وقفت الكنيسة المصرية ومعها الكنيسة الأثيوبية فى صف الشعب. ولم تحملا، سواء فى سبيل الدفاع عن العقيدة أو الشعب أو الأرض، سلاحا إلا سلاح العقيدة والإيمان. ولعل أقرب هذه المواقف إلى الأذهان حين رفض الأنبا كيرلس المطران السابق ذهب المعز، وفضل النفى والاضطهاد على فصل الكنيسة الأثيوبية عن الكنيسة المصرية متمتعا برئاستها مع لقب بطريرك حين عرضها عليه المستعمرون الايطاليون.

وقام هؤلاء المستعمرون بمحاولتهم الأثمة، ومضوا إلى أقصى ما يستطيعون، وكانت تجربة قاسية عاناها الشعب، ولكن كان لها دلالتها وفوائدها. فقد عرف الشعب الأثيوبى عن طريقها أن الكنيسة المصرية كانت فى هذه الأيام القاسية، كما كانت طوال تاريخها الماضى، أمينة على رسالتها. الممثلة الحقيقية للقومية الأثيوبية.

---

* (١٩٠٨ – ١٩٨٠) رئيس قسم الدراسات الأفريقية بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة.

وثانية هذه الظواهر التى ميزت تاريخ العلاقة بين الكنيستين هى سعى الكنيسة المصرية المتواصل لإيجاد جو من الود والصداقة وحسن التفاهم بين الحكومة المصرية والحكومات الأفريقية الأخرى التى تخضع لسلطانها الدينى، كحكومة أثيوبيا والنوبة. لأنها تعلم بل تدرك أن هذه الصداقة وهذا السلام هما اللذان تأمر بهما الديانة المسيحية، فكانت الكنيسة المصرية بذلك مرة أخرى أمينة على أداء رسالتها منفذه لمبادئ المسيحية تنفيذاً عملياً. كما كانت تعلم وتدرك أيضاً أن هذه الصداقة وهذا السلام هما الجو الطبيعى الذى تستطيع الكنيسة فى ظله أن تقوم برسالتها على أحسن ما يكون القيام. فقد حدث أن أراد داود ملك النوبة أن يغزو مصر عند ابتداء الدولة المملوكية لتخريب عيذاب وأسوان اللتين كانتا سوقاً لاستقبال تجارة الشرق. فالتجأ السلطان إلى البطريرك اثناسيوس الثالث يرجو منه أن يكتب إلى الملك داود يطلب منه العودة عن هذا العزم، ففعل البطريرك ذلك وعادت الجيوش الغازية عن عزمها كما عادت العلاقات إلى ما كانت عليه من الصفاء والمودة.

ويزخر صبح الأعشى بمجموعة من الرسائل التى تبادلها سلاطين المماليك مع أباطرة أثيوبيا من أجل إقامة جو من الصداقة بين الحكومتين. وكان لبطاركة الكنيسة المصرية الفضل كل الفضل فى هذا السعى الحميد. فقد كان اختلاف الديانة بين الحكومات فى الماضى سبباً من أسباب قيام العداوة بينهما. ولكن الأمر لم يكن كذلك مطلقاً بين الحكومتين الأثيوبية والمصرية. بفضل بطاركة الكنيسة المصرية الذين دأبوا متوالين، متعاقبين على بذل السعى فى هذا السبيل، بل دأب الأباطرة الأثيوبيون بمجرد اعتلائهم العرش الأثيوبى على أن يكتبوا إلى كل من بطريرك الإسكندرية وعاهل القاهرة خبر هذا الاعتلاء. ونرى هذا واضحاً ظاهراً فى خطاب الملك داود إلى السلطان برقوق، وتعهده فى هذا الخطاب بحسن معاملة مسلمى أثيوبيا لقاء حسن معاملة السلطان برقوق لمسيحيى مصر. بل حرص الإمبراطور داود على أن يظهر للسلطان برقوق مختلف الحقوق والحريات التى يتمتع بها مسلمو أثيوبيا كى يلعبوا دورهم كمواطنين صالحين. وفعل مثل ذلك الإمبراطور عمداصيون الذى يعتبر عصره مثلا أعلى لما كانت عليه العلاقات من المودة والصداقة حتى أشار إلى ذلك كثير من الأباطرة فى كتبهم وفعل ذلك أيضاً زرء يعقوب وغيره من الأباطرة.

وكانت الوفود التى تحمل هذه الكتب تحمل معها فى العادة هدية ثمينة بل بلغت هدية الإمبراطور داود إلى السلطان برقوق مبلغاً هائلا من الكثير حتى حملها عشرون جملا، كما كانت تستقبل بما يليق بمرسلها من التبجيل والاحترام. وقد أفاض ابن إياس فى وصف مظاهر استقبالها كما أظهر ما كان بين العاهلين والحكومتين من الصداقة والود القائم على الاحترام المتبادل من كل منهما لحقوق الآخر.

وكانت هذه الجهود المسيحية الحقة التى بذلها بطاركة الكنيسة المصرية تتوج دائماً بالنجاح رغم مؤامرات المتآمرين، الذين كان يعنيهم أن يحل العداء محل الصداقة كى ينفذوا ما يريدون. وكى يصلوا إلى مآربهم التى كانت شخصية بحتة الغرض منها الإثراء من مباشرة تجارة الرقيق الذى كانوا يقومون بتوريده إلى الممالك الكبيرة التى كان يعنيها الحصول عليه من أجل تجييش الجيوش. وقد وصلت هذه المؤامرات إلى حد تحريض أبناء البلاد على القيام فى وجه حكامها فيدفعون إليهم بالمال والرجال والذخيرة من أجل الثورة، حتى إذا قام الأباطرة بسحق هذه الثورات تمكيناً للوحدة القومية، اتجهت هذه المؤامرات إلى إشاعه أخبار السوء عن هذه الحروب وإظهارها أمام العالم على غير مظهرها، كى تصل من وراء ذلك إلى مآربها الخفية.

ولذا كان لجوء الوالى سعيد إلى الأنبا كيرلس الرابع فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر، من أجل إحلال الصداقة بين الحكومتين المصرية والأثيوبية محل العداء، أمراً طبيعياً ومنطقياً، يتسق تماماً مع السياسة التقليدية التى جرت عليها الحكومات من قبل، كما يتسق مع الدور الذى لعبته ومازالت تلعبه الكنيسة المصرية بين أبنائها المختلفين.

كانت الظروف السياسية السائدة فى كل من أثيوبيا والسودان – الذى كان تابعا لمصر آنذاك – تحتم هذا التدخل لمصلحة الطرفين. فقد تولى العرش الأثيوبى فى سنة ١٨٥٥ الإمبراطور تيودور الثانى بعد عهد طويل ملئ بالفوضى والاضطراب وسفك الدماء، استمر أكثر من قرن من الزمان وظلت الثورات تلاحقه وظل هو من جانبه يعمل على سحقها وتحطيم القائمين بها.

وكان أكبر المناوئين له الرأس عالى الذى كان قبل سنة ١٨٥٥ يسيطر على إقليم بجامدر ودمبية وولكايت المتاخمة للحدود السودانية عند منطقتى كسلا والقضارف وضم إليه جودجام. وكان هذا الزعيم قد إستقر فى جوندار مدعيا لقب نجوس نجست. واعترفت به فرنسا وأرسلت إليه وفداً إمبراطوريا يحمل هذا الاعتراف. كما يحمل مشروعا لمعاهدة تجعل من أثيوبيا منطقة نفوذ فرنسي. وكانت فرنسا قد رسمت منذ سنة ١٨٣٠ سياسة استعمارية قائمة على الحرب والاغتيال تارة، كما فعلت فى الجزائر، وعلى الختال والخداع ومعاهدات الحماية تارة أخرى. وإذا ما إرتقى العرش الفرنسى الإمبراطور نابليون الثالث بارك هذه السياسة وأيدها، بل اندفع فى تنفيذها. فإذا ما انتصر تيودور على الرأس غالى وسجنه واعتلى العرش الأثيوبى بل حصل على السند الشرعى حين توجه الأنبا سلامه الثالث فى فبراير ١٨٥٥، دأب أنصار هذا الزعيم على إشاعة الاضطراب تؤيده مؤامرات الدولة الاستعمارية، وكانت منطقة بجامدر هى منطقة نشاطه. فكانت الجيوش الإمبراطورية تطاردها فتهرب أمامها إلى المناطق السودانية مخربة للقرى. ناهبة سكانها. بل لم تكن الجيوش الإمبراطورية تتردد فى تعقبها من أجل القضاء عليها قضاء تاماً.

وكانت منطقة كسلا بدورها مسرحا لكثير من الثورات المتعاقبة منذ أن افتتحت فى سنة ١٨٤٠ أيام أحمد باشا المعروف بأبو ودان. فقد كثرت ثورات الهدندوة التى تقطن هذه الأنحاء. كما كثرت ثورات الجند المرابط من جراء تأخر مرتباتهم ولم تكن كل من القبائل أو الجيوش الساخطة تتردد فى الهجوم على القرى ونهبها. ولم تكن تعرف حدوداً سياسية تقف عندها بل كانت تصل فى عداوتها إلى القرى الأثيوبية، فكانت سبباً جديداً من أسباب الاضطراب. وكان قيام الإمبراطور بصدها ثم تعقبها والانتقام لما حدث لرعاياه من تقتيل ونهب واغتصاب للأملاك سبباً ثالثاً. وتعددت الثورات أيام أحمد باشا المنكلى وخالد باشا وعبد اللطيف باشا وعلى باشا شركس، ولعبت المؤامرات الأجنبية دورها فى الأزمة أيضاً كما لعبته فى الماضى. وصورت فرنسا لسعيد صورة خيالية عن الخطر الأثيوبى الذى تؤيده انجلترا فمال إلى الحرب.

وكان سعيد من ناحيته مهتما بجيشه فخوراً به، راغباً فى إظهار شجاعته فى مختلف المناسبات، حتى لقد أرسل سرية مصرية لتحارب فى صف صديقه نابليون

الثالث فى المكسيك. فأراد أن يلجأ إلى القوة فى هذه المرة أيضاً. بل جرت الاستعدادات فعلا. إلا أنه أضطر أن يعدل عن هذا الطريق تحت ضغط السلطان الذى كان تواقا أن يحرم تابعه من حرية العمل ويرفض عليه استعمال جيشه إلا فى خدمة السلطان. فلم يجد سعيد بدأ من أن يفاتح الأنبا كيرلس فى الأمر فوجد الأنبا كيرلس أن يولى هذا الأمر اهتمامه الشخصى، وأن لا يندب له أحد غيره وكان الرجل فى ذلك مضحياً حقاً. فقد سافر إلى أثيوبيا قبل ذلك بأربع سنوات حين ندبه إليها الأنبا بطرس الجاولى ليحسم النزاع الذى نشأ بين الأنبا سلامة وبعض أفراد الإكليروس الأثيوبى، لما أتوه من أعمال منافية للمبادئ المسيحية، وهددهم باستعمال حقه القانونى. فكانت شدته هذه سبباً فى شكايتهم له لدى البطريرك، فندب كيرلس للأمر وكان لا يزال راهباً إلا أن توسطه لم يأت بنتيجة، ولذا كره الأنبا كيرلس ندبه للمرة الثانية، ولكنه آثر المصلحة العامة وقرر أن لا يترك للدسائس الأجنبية فرصة الإضرار بمصالح أبنائه ووطنه. وهما الجارتان اللتان تحتم عليهما مصلحتهما أن يكونا مثلا طيبا للعلاقات الدولية القائمة على التفهم الصحيح لمصلحتهما. فرضخ للأمر وتجهز للسفر، وأمر سعيد أن تجهز للبابا البطريرك باخرة نيلية تسير به صوب السودان. ثم أمر أن تزود بما يلزمها من المؤونة من كل البلاد التى تصل إليها بعد أن تطلق لها المدافع إكراما لمن تحمله. كما جهزت له الخيول والجمال ليستعملها الوفد خلال رحلته البرية. وسمع تيودور بالأمر فخرج من عاصمته مجدلا، متجهاً إلى الحدود لاستقبال ضيفه العزيز. لا لأنه رئيسه الدينى فحسب بل ليجد فى هذه الزيارة فرصة يوطد بها مركزه ويقضى على كل ما يبذله أعداؤه من جهود للقضاء عليه أو إقصائه عن العرش.

ولذا لم يكد الأب البطريرك يفاتح الإمبراطور فى المهمة التى وصل من أجلها، وهى وقف اعتداء الأثيوبيين على الأملاك المصرية وتحديد الحدود بصفة نهائية، حتى أظهر ارتياحه وحرر بالصلح مشروع إتفاق لتوقيعه بل طلب أيضا خبراء مصريين لصنع الأسلحة لجيشه.

وهنا ظهرت الدسائس مرة أخرى لتلعب دورها التقليدى. فتقدم القنصل الفرنسى من جديد إلى سعيد، ليؤكد له اتفاق كل من البطريرك وتيودور على غزو مصر بينما

أكدت الدسائس فى بلاط تيودور أن زيارة سعيد للسودان (وقد حدثت فى هذا الوقت) ليست إلا تمهيداً للغزو المصرى المرتقب، الذى أرسل البابا البطريرك لغرض حجبه. فكانت هذه الفرية سبباً فى إهانة تيودور للأب البطريرك على نحو ما أجمعت عليه الروايات المختلفة، ولكن سعة حيلة الأب البطريرك وعمق تفكيره كانتا وسيلته إلى تبديد هذه الشكوك. واثبات براءته وبراءة سعيد بل براءة مصر كلها من كل ما ترمى به من تهم كيدية يريد بها الاستعمار بث العداوة بين الصديقتين التقليديتين.

وسرعان ما كفر تيودور عن سوء ظنه بالاعتذار الكامل إلى الأنبا كيرلس وتوقيعه الاتفاق وتسييره الهدايا مع وفد أثيوبى استقبله سعيد بالتجلة والاحترام، وكان يوم استقباله بمصر حافلا، من كل من الشعب والحكومة فسار موكبه الرسمى يتقدمه رجال الإكليروس ينشدون ألحان الكنيسة فى أصوات مرتفعة من بولاق إلى حارة السقايين.

وإذا كان الأنبا كيرلس قد نجح فى وفادته هذه، وكانت نتيجتها هذه الصداقة التى قامت بين أثيوبيا ومصر لم تشبها شائبة إلا حين نقضها إسماعيل بأطماعه. فإنه نجح أيضا فى وضع الأساس الأول لتقارب أفريقى، بل تعاون أفريقى يقف فى وجه الأطماع الاستعمارية الأجنبية، وهى نفس السياسة التى تحاول حكومتنا الآن أن تبعثها وتسير على هداها، بعد أن نجح الاستعمار خلال الربع الأخير من القرن الماضى ونصف القرن الحالى فى تحطيمها وبث روح الفرقة بين أبناء الوطن الأفريقى. فكأن الأنبا كيرلس الرابع طيب الله ثراه ونيح روحه كان الراسم الحقيقى للخطوط العريضة الأولى للصداقة الأفريقية، والقائمة على تفهم المصالح المشتركة والعمل فيها، ظلها بروح التعاون فى سبيل إقامتها، بل توطيدها. فإذا كنا الآن نقيم هذا العيد المئوى الأول لوفاة الأنبا كيرلس الرابع فإنما لنحيي فى ذكراه العاطرة هذه السياسة الأفريقية السديدة التى تترسمها حكومتنا الرشيدة فى الوقت الحاضر.

أثر نهضة أبى الإصلاح فى حياتنا الملية والاجتماعية

الأستاذ راغب إسكندر المحامى*

إن عصر الأنبا كيرلس الرابع الزاهر ونهضته الصادقة سواء فى شئوننا الدينية أو التربوية، كان لها ولا ريب أثرها الصالح وإن طال أمرها فى جمهرة الشعب، بل فى نفوس مريديه والمؤتمين به من رجال هذا العصر وشبابه. وإن رانت نتائجها على الشيوخ والمتزمتين من الرجال فإنها لم تخف على الشباب أثرها فى كيانهم وكيان الشعب ومستقبله معهم.

فما كانت هذه الوثبة الصادقة إلا لتؤتى ثمارها إن آجلا أو عاجلا فى كياننا وأمورنا بل وفى مصيرنا. فالمدارس التى أنشأها دينيا وعلميا والكنائس التى أقامها وخاصة المرقسية الكبرى، كان لها أثرها فى محيطنا العلمى والاجتماعى. فقد تابع الشعب أثرها من رجال ونساء وقد رضعوا لبان العلم بل والروح الدينية والملية من ثمار نهضته.

والأمر الذى يجب أن يلفت النظر، بل ويدعو إلى الإعجاب والتقدير بل والمثل الصالح، هو أنه رغم ما صادفه من حركات رجعية من الجامدين المتزمتين، فإنه لم يلق إليها بالا ولم يعرها وزنا أو اعتبارا، بل سار فى طريقه والإيمان يملأ قلبه ويوجهه إلى الطريق السوى الصحيح. فاستمر فى جهاده وجهوده هذه لا ينئ ولا يمل ولا يلتفت إلى الوراء. وفيما عدا المدرسة الاكليريكية فإن المدارس العلمية بنين وبنات التى أنشأها أبو الإصلاح لم تكن بثاقب رأيه وواسع أفقه خاصة بالأقباط، بل فتح أبوابها واسعة للشباب من قطان مصر. وإذا كانت هذه المدارس قد فتحت أبوابها للناشئة قبل أن يخطو ولاة الأمر فينا حينذاك خطوة ولو بطيئة فى هذا السبيل، فإننا لا ننسى أنه كانت هناك مدارس للجزويت وضعت أسسها مع الحملة الفرنسية كما فتحت مدارس إنجيلية ورغم أن أغراضها الأصلية كانت دينية محض فلا ننسى فضلها على كثير من النشأة الذين رضعوا لبان العلم فيها كما خرج منها رجال يشار إليهم بالبنان.

ولعل هذه الحركة بالذات كانت أقوى الأسباب التى حفزت همة أبى الإصلاح إلى إنشاء المعهد الدينى والمعاهد التربوية وفتح أبوابها لجميع المصريين بغير تميز وبغير دخل للعقيدة أو الدين. فكانت معاهده هدى ونبراسا صالحا ومثلا قويا يحتذى.

---

* وكيل جمعية التوفيق القبطية بالقاهرة.

وإذ نذكر أن المدة التى قضاها الأنبا كيرلس الرابع فى الكرسى المرقسى ست أو سبع سنوات وكانت وفاته فى مقتبل العمر وبعد أن تعلقت الآمال بوثبتـه الإصـلاحية والدينية فإن وفاته المبكرة كانت صدمة شديدة للأقباط خصوصا مع ما أحيط بموته من الأقوال والإشاعات.

ولم نجد فى كتب التاريخ القبطى – وهى مع الأسف قاصرة – مـا يـدل علـى متابعة النهضة الدينية والإصلاحية فى الخمس عشرة سنة التالية لعهده الميمون، ولـم نسمع فى مدتها قيام أى مصلح دينى أو زعيم قومى يأخـذ بـذيول نهضـته ويمسـك بزمامها وينهج على منوالها ويدفع بعجلة الإصلاح إلى الأمام، وكأنه قد خيمـت علـى القوم غيوم كثيفة سواء من ناحية رجال الدين أو من العلمـانيين وصـفوتهم، أو مـن الشعب بصفة عامة. وربما حادث وفاته بالصورة التى ذاعت قد ألقى فى الروع شـيئا قليلا أو كثيرا من السكون والدعة والاستكانة.

وقد كان مفروضا على رجال الدين أن يرعوا الشعب ويساندوه ويواسوه ويسندوا ظهره ويقووا من عزيمته، كما فعل البطريرك المصلح وأخذا بسنته والسير على منواله الكريم، لكنهم لم يتحركوا فى قليل أو كثير. كما ظل الكرسى المرقسـى شـاغراً مـدة قصيرة ثم تولى الأنبا ديمتريوس الكرسى البطريركى ولم يذكر له نشاط معين. وربمـا كانت استكانته وانطواؤه على نفسه من أسباب الجمود الذى سيطر على الأقبـاط، فلـم نسمع فى أيامه بأى نهضة أو حركة إصلاحية أو دينية.

وظل الكرسى شاغراً بعد وفاته فى يناير سنة ١٨٧٠ زهاء أربع سنوات ونيف، وكانت الحالة فيها قد ازدادت سوءاً على سوء، كأن هذه الفترة التى انقضت منذ وفـاة أبى الاصلاح فى سنة ١٨٦١ واعتلاء الأنبا كيرلس الخامس العرش البـابوى، كانـت بمثابة فترة الاحتضان التى لبثتها البذرة فى التربة حتى حان وقت نبتها. فلم يلبث بعض من رضع لبان العلم شباباً أن فكروا فى ضرورة إزالة ثلج الجمود والتطلع إلـى أفـق جديد لخلاص الشعب من كبوته، متخذين من شعار الكنيسة الشعبية الواحـدة الوحيـدة الجامعة الرسولية مرشداً لهم، خصوصا لأنها هى الكنيسة التى تدين بالديمقراطية بـين الشعب ورجال الدين والاشتراك معهم فى شئونها ومرافقها.

ولم يكن هؤلاء الرجال كما ذكرنا إلا ممن رضعوا لبان العلم والمعرفة فى عهـد المصلح الكبير، وقد شربوا من روحه الوثابة وغيرته الأرثوذكسية وعزيمته الجارفـة، فكان أن تقدموا للأنبا مرقص القائم بأعمال البطريركية آنذاك بتقرير أشاروا فيـه إلـى حالة الركود التى يعانيها الشعب القبطى ثم كونـوا جماعـة مـنهم سـموها الجمعيـة

الإصلاحية، فدعا فريقا منهم وعرض عليهم تشكيل مجلس للنظر فى الشئون الطائفية وانتهى اجتماعهم إلى تشكيل مجلس استشارى لمساعدته فى تصريف الأمور والنظر فى الخلافات (العائلية). ومهدت هذه الهيئة لاجتماع فريق من أفراد الأمة فى السادس من يناير سنة ١٨٧٤ وأسفر اجتماعهم عن المطالبة بتشكيل مجلس ملى. وتلا هذا اجتماع آخر فى السادس عشر من ذات الشهر والسنة عرض فيه تشكيل جمعية رسمية تنظر فى شئون الأقباط وترعى مصالحهم. ولاقت هذه الحركة تشجيعاً من بعض رجال الاكليروس وعلى رأسهم المرحوم الايغومانس فيلوثاؤس عرض رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى حينئذاك. وقد تزعم هذه الحركة المغفور له بطرس غالى، واستصدر على إثر ذلك أمرا عاليا بتشكيل أول مجلس فى الخامس من فبراير سنة ١٨٧٤ وظل المجلس المذكور بعد وضع لائحته الداخلية يعمل فى إدارة الشئون المحلية ونظر قضايا الأحوال الشخصية وما إليه، وفى أعداد العدة لانتخاب البطريرك، وتم فعلا رسامة الراهب "يوحنا الناسخ" رئيس دير البراموس بطريركاً باسم الأنبا كيرلس الخامس فى أول نوفمبر سنة ١٨٧٤.

وقد بدأ التعاون وثيقا بينه وبين الأعضاء المليين، ومهد لها برسالة منه وعهد إلى الشعب. ولم يدم هذا الحال طويلا وانتهى بأن أمسك وحده زمام الشئون. وتعطلت فى الوقت نفسه المدرسة الاكليريكية ومدرسة البنات اللتين أسسهما أبو الإصلاح. ثم بدرت بادرة طيبة بتأسيس الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨١ برئاسة بطرس غالى والعاملين معه من رجال الأمة، واعتبرها الناس باكورة لنهضة إصلاحية شاملة. وكانت مساعيهم المبرورة وحفزهم عليها أيضا بعدها الحركاة العرابية القومية، فأعيد تشكيل المجلس الملى الثانى بأمر عال، وتم انتخاب المجلس الجديد فى مارس سنة ١٨٨٣ من ٢٤ عضوا ونائبا، وصودق على تشكيله وكان قد شحذ المجلس الهمة فى تعديل اللائحة حتى صدر بها الأمر العالى فى ١٤ مايو سنة ١٨٨٢. وذكر المرحوم جرجس فيلوثاؤس عوض المؤرخ المعروف مشيرا إلى عمل المجلس "واستمر المجلس قليلا وعاد الخلاف بين أعضائه لتشعب المشارب بشأن الرهبان وأوقافهم" ولم تبعث فكرة تجديده من قبرها حتى قامت جمعية التوفيق، وكان من أعضائها العاملين والمساعدين لها فى بث روح الإصلاح أيام نشأتها، تلاميذ أبى الإصلاح القبطى. ومع أن العدد كان قليلا فى ذلك الحين إلا أنهم تغلبوا على كل الصعوبات وذللوها لأن المتنيح الإيغومانوس فيلوثاؤس عوض كان باذلا قصارى جهده فى إيضاح الحقائق بما كان يبثه من الآراء المفيدة التى لم يكن الغرض منها سوى ترقية شأن الأمة وفصل الماديات عن الروحانيات.

ورغم بعض المنازعات المناهضة لسير حركة الإصلاح الملـــي، تــم انتخـــاب المجلس الملى العام الثالث فى التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٩٢. ويكفى إشـــارة بمكانته وأهمية مركز المجلس في المحيط القبطى أن نذكر أسماء أعضـــائه المنتخبـــين وهم "بطرس غالى أول رئيس للجمعية الخيرية القبطية ومؤسسها حنا يوسف نصر الله، بطرس يوسف، مقار عبد الشهيد، قلينى فهمى، خليل إبراهيم، يوسف وهبـــه، يوســـف سليمان، حنا باخـــوم، نخله يوســـف الباراتى، حبشى مفتاح (عضو مجلس إدارة جمعية التوفيـــق) يعقـــوب نخله رفيله (من أعضائـــه) وباسيلى تادرس، وعبد المسيح حبشى، دكتور إبراهيم منصور (الرئيس الثالث لجمعية التوفيق)، وهبه يوســـف عبـــده. رفلـــه جرجس (رئيس أول جمعيـــة التوفيـــق). إبراهيـــم روفائيل الطوخى، مرقص ســـميكه (عضو مجلس إدارة جمعية التوفيق والرئيس الثانى لجمعية كلية البنات القبطية)، فـــرج إبراهيم، بطرس بادير، باسيلى روفائيل الطوخى، يعقوب نخله يوسف، عوض سعد الله ومنهم رئيسا وزارتين سابقتين، ووزير سابق ورجال القانون والقضاء والمال والأعمال والإدارة والتاريخ.

ورغم نفوذ هذا المجلس ومركز رجاله، فإنه قد عانى من المعارضة فـــى القيـــام بمهام منصبه، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بين البطريرك وبطرس غالى ممثلا للمجلـــس. وأهم ما إنصب عليه هو بطبيعة الحال أوقاف أديرة الرهبـــان وهـــى الصـــخرة التـــى تحطمت عليها كل حركة إصلاحية زهاء ستين سنة خلت. ولم يفت ذلـــك فـــى عضـــد العاملين لمقاومة هذه الحركة وتزعمها رجال جمعية التوفيق وانتهت بذهاب البطريرك والأنبا يؤانس وكيل الكرازة المرقسية حينذاك والبطريرك الأسبق إلى الدير. ولما عـــاد للمقر الكرسى تم الاتفاق على حل وقتى، فصدر به أمر عال فى السابع عشر من يونيو سنة ١٨٩٣ بإحلال لجنة محل المجلس ألفت من أربعة من الرجال المليـــين وبرئاســـة غبطة البطريرك. ولم يترتب على تأليف هذه اللجنة إلا أن ساءت شـــئون البطريركيـــة وقد أضحى الأمر كله فى يد البطريرك وحاشيته وترك الأعضاء الحبل على الغارب، مما أثار حركة شديدة فى صفوف العاملين، وأدت للرجوع إلى تنفيذ أحكـــام اللائحـــة ونصوصها بحذافيرها فانتخاب المجلس الملى الرابع فى الثانى والعشرين من ديســـمبر سنة ١٩٠٥ وحل فى انتخابه الصفوة من رجالات الأمة البارزين. ولم يهن ذلـــك فـــى همة المعارضين لكل حركة إصلاحية تقدمية فى معارضة تولى المجلس إدارة أوقـــاف الأديرة فبقيت فى أيدى رؤسائها يتصرف كل منهم فيها تصرف المالك. ولم تبد بـــادرة منهم بطبيعة الحال لإصلاح أحوال هذه الأديرة. وتم بعدها تعديل رجعـــى آخـــر فـــى

اللائحة بأمر عال فى الثانى من فبراير سنة ١٩١٢ وذلك بتشكيل مجلس جديد برئاسة البطريرك مؤلف من إثنى عشر عضوا يعين أربعة منهم من رجال الاكليروس والثمانية الباقون بطريق الانتخاب فى جمعية عمومية ويكون عدد أعضائها مائة وخمسين على الأقل.

وبناء على هذا الأمر العالى ألغى من اختصاص المجلس فيما ألغى، إدارة أوقاف الأديرة خارج مدينة القاهرة وضواحيها وكذا النظر فى شئون رجال الاكليروس وبالاتحاد معهم وإنشاء المدارس الدينية الخاصة بهم إذ أضحى ذلك كله من اختصاص لجنة من الأعضاء الأكليريكيين برئاسة البطريرك، وقصر بذلك اختصاص المجلس فى إدارة الأوقاف التابعة للبطريركية رأسا وكذا الأوقاف الخاصة بالأديرة القائمة بمدينة القاهرة. ولم يكن النص الصريح فى هذا التعديل على التزام اهتمام البطريرك واللجنة المذكورة بشئون هذه الأديرة وضبط أوقافها وتحسين إيراداتها وصرفها فيما يعود عليها بالمنفعة والرقى حسب شروط الواقفين. لم يكن لهذا النص مع معناه الواضح أى نتيجة أو رقابة على تنفيذه فبقى حبرا على ورق وإن كان هذا لم يمنع بعض الرؤساء من التوسع فى تملك الأديرة للأطيان الزراعية وبناء بعض العمارات. وبنى أحدهم سوراً فخما بمركز الدير وكذلك سوراً شامخا تكلف عشرات الألوف، وكل هذا بلا رقابة ولا إشراف حتى من البطريرك ذاته وبواسطة لجنة خاصة. أما تثقيف الرهبان وإعدادهم ليكونوا نواة صالحة للرعاية الدينية وللوعظ والإرشاد فلم يلقوا لها بالا. ولا كانت حتى من برامجهم الإصلاحية.

هذا وقد عجز الأعضاء المنتخبون بمقتضى هذا التعديل عن القيام بأى إصلاح فى شئون الكنيسة وإدارة أعمالها وديوانها فقد كانت السلطة مركزة جميعها في يد البطريرك وحاشيته. ومن هذه الحاشية من كان يسيطر سيطرة تامة على هذه الشئون ناهيك بما ترتب على ذلك من آثار لا تحمد عقباها وتناولتها الألسنة والمجالس بالألم والأسى.

وأعيد تشكيل المجلس فى سنة ١٩١٨ من أثنى عشر عضواً طبقا لتعديل سنة ١٩١٢ وكان بديهيا – فيما عدا أعمال الإدارة الروتينية بالديوان وقضاء الأحوال الشخصية أن لا ينتج كثيراً فى حديقة الإصلاح الحقيقى لرقى الشعب دينياً واجتماعياً. وقد سن لائحة انتخابات المجلس الملى العام والمجالس الفرعية ولائحة الإجراءات الداخلية فيه.

وتفاقمت الأمور وتدهورت الأحوال وتسلطت الحاشية على كافة الشئون بأيد غير سليمة مع تقدم البطريرك فى السن وبلغت حداً ينذر بكثير من المخاطر على كيان

الأمة ووحدتها. فقام فى سنة ١٩٢٧ فريق من ذوى الغيرة والإخلاص واستعانوا بالمرحوم الدكتور سوريال جرجس سوريال عضو الشيوخ حينذاك فقدم للمجلس مشروعا بقانون باعادة العمل بلائحة سنة ١٨٨٣ نصا وروحا. وبذلك تم إلغاء التعديلين اللذين حدثا فى سنتى ١٩٠٨ و ١٩١٢ ووافق مجلس الشيوخ فالنواب على المشروع بحذافيره وصودق عليه بتاريخ ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٢ وصار نشره بالجريدة الرسمية قانونا نافذاً، وأعيدت بمقتضاه اختصاصات المجلس الملى كما كانت طبقا للائحة سنة ١٨٨٢ اللهم إلا النص فى المادة الثالثة من هذا القانون الصادر برقم ١٩ سنة ١٩٢٧ على أن يراعى عند النظر فى حسابات الأوقاف تنفيذ شروط الواقفين وهو طبيعى.

ويجب هنا أن ننوه أنه رغم الوساطات التى بذلك لدى المغفور له سعد زغلول فإنه لم يكترث لها وتشجع على هذه الروح التقدمية بتولى الشعب القبطى شئونه الإدارية والملية فى شخص مجلسه الملى. وقد أثار ذلك غضب البطريرك كيرلس الخامس وصرح أنه لن يكون حيا وهذا القانون نافذاً. وقد تنيح غبطته فى هذه السنة بالذات فى يوم الأحد ٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ وبعد أن جلس على كرسى البطريركية ثلاثا وخمسين سنة. وقد تم انتخاب المجلس الجديد فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧ على أساس لائحة سنة ١٨٨٣ لائحة الانتخاب المعمول بها حينذاك وبقى هذا المجلس يدير أعماله مدة نيابته.

وكان المرحوم يوسف سليمان (باشا) وكيلا له وأنتخب المجلس التالى فى ٧ مارس سنة ١٩٣٩ وبوكالة المرحوم كامل (بك) إبراهيم. فالمرحوم كامل (باشا) صدقى فالمرحوم حبيب حنين المصرى (باشا) فى الدورة الواحدة لتولى الأولين الوزارة الواحدة بعد الآخر، وبتنحيه تولاها المرحوم الدكتور إبراهيم فهمى المنياوى (باشا) وأعيد وكيلا فى انتخابات سنة ١٩٤٤ وعينت الحكومة فى سنة ١٩٥٠ مجلسا مؤقتا حتى تم انتخاب المجلس الجديد فى أغسطس سنة ١٩٥٠ وكان الدكتور المنياوى وكيلا له واستقال هو وبعض من زملائه فى سنة ١٩٥١ وانتخب الأستاذ كامل يوسف صالح وكيلا ثم حل المجلس فى سنة ١٩٥٥ وعينت هيئة له بقرار مجلس الوزراء وانتخب الأستاذ اسكندر حنا دميان وكيلا له. وجرت الانتخابات فى سنة ١٩٥٦ وانتخب فيه وكيلا إلى أن استقال وبعض من زملائه على إثر صدور لائحة انتخاب البطريرك الجديد. وإنى لأذكر فى هذا المقام ما كان من همة وغيرة وكلاء المجلس السابقين ممن اختارهم الله بعد أن خدموا أمتهم خدمات نذكرها لهم بالشكر والعرفان. وكان للمرحوم الدكتور المنياوى جولات صادقة ومنها إقامة المبنى الكبير بدير أنبا رويس.

وسارت الأمور فى هذه المجالس بين شد وجذب بين البطريرك المتنيح الأنبا يوأنس والذى تولى الكرسى فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٨ فى جمعية تكاد تكون معينة ولا ظل للشعبية فيها. وقد توفى فى ٢١ يونيو سنة ١٩٤٢ وظل متوليا الكرسى المرقسى ثلاثة عشر سنة ونصف. وظل كسلفه فى الإصرار على عدم تنفيذ القانون فيما يختص بإدارة أوقاف الأديرة. وتولى الكرسى بعده المتنيح الأنبا مكاريوس وكان شديد الميل إلى قيام المجلس بإدارة شئون الأوقاف، ولكن وقف سبيل مسعاه بعض الآباء المطارنة ولم يدم على كرسيه طويلا إذ توفاه الله سنة ١٩٤٥ وخلفه الأنبا يوساب ثم تولاه برحمته.

وكانت مدة رئاسة هذا الأخير مشوبة بكثير من الأمور التى لم يرض عنها الشعب وآذنت بعهد ساد فيه الاضطراب والخلاف مع المجلس الملى. وفى مدة جلوسه على الكرسى صدر قانون فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ بأحكام الولاية على المال ثم القانون رقم ١١٩ سنة ١٩٥٢.

وعلى إثر الخلافات التى قامت واشتدت بين البطريرك والمجلس من جهة وبين المجمع المقدس والبطريرك على إثر التصرفات والشكاوى العديدة التى بلغت حداً لا تحمد عقباه، قام الأنبا يوساب بالانتقال إلى الدير المحرق حيث أقام مدة فيها ثم نقل إلى المستشفى القبطى وهو يعانى آلام المرض المبرحة وعاد إلى البطريركية وقد اشتد عليه المرض ولم يمكث سوى يومين بعدها وانتقل إلى رحمة مولاه. وعلى إثر الخلافات المتقدمة ألغى من اختصاص المجلس إصالة النظر فى قضاء الأحوال الشخصية بالقانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ الصادر فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٥ والقاضى بإلغاء المحاكم الشرعية والمحاكم الملية ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وجعل الاختصاص فيها للمحاكم الوطنية على أن تنظر قضايا الأحوال الشخصية والوقف التى كانت أصلا من اختصاص المحاكم الشرعية أو المجالس الملية.

وتلا ذلك بعد ثورة سنة ١٩٥٢ مباشرة وبالذات بالقانون رقم ١٣٨ سنة ١٩٥٢ الصادر بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٢ وبلائحته التنفيذية الصادرة بعده والقوانين المتممة له وهو القانون المعروف بقانون الإصلاح الزراعى والذى حددت فيه ملكية أى شخص بما لا يزيد عن مائتى فدان. واعتبر هذا القانون مما ينطبق وبحدود معينة على أموال البطريركية سواء منها الموقوفة والداخلة فى دائرة مدينة القاهرة فضواحيها أو أوقاف أديرة الرهبان.

وتلا ذلك كله القضاء على مشكلة أوقاف الأديرة المزمنة وذلك بالقانون رقم ١٤٣٣ سنة ١٩٦٠ الصادر بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٩٦٠ بإنشاء لجنة للهيمنة على الأوقاف جميعها من بعض المطارنة وبعض ذوى المكانة من رجالات الأمة وبرئاسة غبطة البابا.

ولا نعلق بقليل أو كثير على هذا التعديل الجوهرى الذى من اختصاص المجلس فى شئون الأوقاف عموماً والأديرة خصوصا، وإن كانت إدارة الأوقاف الكائنة بمدينة القاهرة باقية على ما هى عليه ولكن للجنة الجديدة سلطة الإشراف عليها.

ولم يبق فى الوضع الحالى إلا الأمل المرتجى فى أن يؤدى تشكيل لجنة الأوقاف من أحبار وعلمانيين لهم مكانتهم ومنزلتهم إلى إصلاح هذه الأديرة وصلاحها والنهوض بها إلى الأفق الذى ترتضيه كرامتنا وعزتنا القومية ونساير فيه الأمم – بل بالأقل بلادنا العزيزة – فى سبيل الرقى الدينى ولا أقول الاجتماعى فقد خطت الأمة فيه كوحدة مقدسة خطوات بعد خطوات إلى الأمام ولا ينقصنا سوى أن يتبصر رجال الدين فى أمر الواجبات المفروضة عليهم للأخذ بأسباب النهضة المثمرة متضامنين مع الشعب وهم منه وهو منهم، والعمل بجد وإخلاص للمحافظة على كياننا دينا ودنيا، وحتى تكون هذه الأديرة نواة صالحة لتخريج أفواج من الرهبان الصالحين لتولى مراكزهم ومهامهم فى الإرشاد والرعاية الصالحة، وتحتذى خطوات الطوائف القائمة بيننا معتزة بالدين عاملة على تقويم الناشئة بسننه ونواهيه. ولعل دير مارمينا الذى رأى غبطة البابا إنشاءه يكون مثالا صالحا للثقافة الدينية والعلمية فتحتذيه الأديرة الأخرى ولا ننكر أن من بينها من قام بمجهود يحمد عليه وإن كان أقل مما نرتجيه.

ويجدر بى أن أشيد بهمة نيافة الأنبا ثاوفيلس رئيس دير السريان وحسن إدارته وإنشائه مطبعة بالدير يطبع فيها سلسلة من الكتب الدينية والتاريخية الهامة.

أما من جهة المجلس الملى فقد أضحى رغم ضمور اختصاصاته إلى ما قدمنا فمازال أداة صالحة للعمل المثمر المنتج وإذ يجمع بين دفتيه إدارة أوقاف البطريركية بالقاهرة وضواحيها وهى – رغم ما سيؤخذ منها للإصلاح الزراعى وجارية بشأنه مباحثات جديدة بين هيئة إدارة الأوقاف وهيئة الإصلاح الزراعى – أملاك لها قيمتها وبعضها قد يبدو بسياسة منظمة مدروسة مالا وفيرا لو أحسن استغلاله وهيمن عليه

المجلس بإدارة حازمة تتولى الإشراف الفعلى وتجعل منهــا أداة التخطــيط وميزانيــة صالحة للتوسع. وناهيك بأراضى البناء ببولاق ومصر القديمة والمعادى وغيرها، وهى واسعة الرحاب. ويشرف المجلس كذلك على المدارس والكنائس ورعاية الفقراء ولحــد ما إذ تتولى الجمعيات القبطية لحد كبير هذه المهمة وإن كان الكثير منها فى حاجة إلى تقويم وتنظيم.

ويختص المجلس أيضا بالإشراف على الكلية الاكليريكية ونرجو بعد أن شيد لها هذا البناء الصالح كل تقدم وازدهار لتتبوأ مكانها اللائق فى خدمة الكنيسة المنتصرة.

كما يدخل فى اختصاصه كذلك الإشراف على أديرة الراهبــات الكائنــة بمدينــة القاهرة، وهى فى حاجة إلى إصلاح كبير نوه عنه فى تقرير سابق مقدم من إحدى لجان المجلس ولم ير مع الأسف النور بعد لتنفيذ ما ورد فيه من مقترحات عديدة لإصلاحها، إن أريد لها البقاء فى مستوى لائق.

وأخيرا فإن علاقته بالمجالس الملية الفرعية والإبارشيات مازالت قائمة وهى فى حاجة إلى تنظيم وتوجيه واتصالات ثابتة قائمة فضلا عن الرغبة الصادقة فى تمكــين علاقته بالجمعيات على نحو ما قدر المجلس من قبل ووقف فى سبيله من هذه الجمعيات لمجرد الشهوة والتفاخر.

وهناك أيضا العمل فى حقل الإصلاح الاجتماعى. وأعلم أن هناك هيئة خاصــة بالدار البطريركية تعنى بهذه الناحية الحيوية ولكنها فى حاجة إلى التوسع ومزيد مــن العناية ويدخل فى أعمال المجلس أيضا الإشراف على معهد الدراسات القبطيــة وهــو معهد جليل يؤمل منه الكثير ليكون نواة للعلم والتاريخ والآثــار القبطيــة بمــا يليــق بأغراضه القوية بل هو جزء هام وخطير فى المحيط القبطى.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا تطلعنا إلى المجلس الملى القادم بآمال واســعة بعــد أن تقوضت أركان المجلس الحالى وضعفت مكانته سواء لاستقالة نخبة منه فى شهر يناير سنة ١٩٥٨ على أثر صدور لائحة انتخاب الكرسى البطريركى ثم باســتقالة الــبعض الآخر أخيرا، إثر خلافات فى العمل من الميسور تلافيها حتى يقوم المجلس بعمله فــى الشهور القليلة الباقية من دورته ومحافظته على كيانه وبعد أن تعطلت جلســاته لعــدم تكامل نصاب اجتماعاته وللإعداد اللازم للانتخابات الملية القادمة التى نرجو منها عهداً

جديداً وتجديداً لازماً. وقد إنتخب المجلس الحالى وباشر أعماله فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٦. وكان من بين أعماله أن ساعد بهمة ونشاط بعض رجال العلم والتاريخ والآثار لإنشاء معهد الدراسات القبطية وشكل لجنة لدراسة حال الأكليروس ووضع الأسس اللازمة لرفع مستواها – لكنها لم تلق استجابة من رجال الاكليروس – وشكل لجنة لوضع نظام لقيد أقباط كل إيبارشية فى سجلات خاصة للرجوع إليه. ولعل هذه تشكل من جديد بمعرفة المجلس الملى القادم لتقوم بمهامها بالاشتراك مع الآباء المطارنة والمجالس الفرعية. وعمل بكل جهد لإصلاح حال الديوان والأرشيف الخاص به وحفظ مستندات التمليك فى ملفات منظمة – وقد كانت مبعثرة ومعرضة للإهمال بل السرقة – وعمل على تجديد كل من الكنيستين الكبرى والصغرى. وأيد قرارا صادراً من المجمع المقدس بعدم ترشيح المطارنة للكرسى المرقسى. كما بذل المساعى للتوفيق مع المطارنة للوصول إلى نتيجة صالحة لانتخاب البطريرك القادم وانتهت بالنتائج المعلومة.

إننى أشير إلى هذا كله وأرجو أن يكون هذا العصر بداية طيبة مثمرة برعاية الراعى الصالح الجالس على الكرسى المرقسى والذى تعلقت به آمال شعبه فى كل ناحية أفراداً وجماعات. وبداية صالحة كفيلة بقيام أوثق العلاقات بين هيئة المجتمع المقدس والمجلس الملى العام، وهو السلطة التى تنبع من الشعب وإليه، ومن حقها أن تشترك اشتراكا فعلياً كاملا فى شئون الكنيسة الإدارية والمالية.

كما لا أشك أن الشعب كله يقف وقفة واحدة حازمة فى سبيل المحافظة على هذا النظام وتقويمه إذا لزم الأمر. وإن كانت هناك ثمة بعض العيوب فى إدارته فإن الاختيار الصالح ولمصلحة الأمة العليا كفيل بإقامة هيئة متفقة متعاونة مع غبطة رئيسها على سنن من النظام والتقدم المرموق.

ولست بحاجة لأن أنوه بأن الظروف المالية تدعونا أكثر من أى وقت مضى إلى التكاتف والتضامن بين الشعب والاكليروس فى كتلة صالحة للعمل الدينى والدنيوى على حد سواء. وعلينا أن ننظر إلى أمورنا وأحوالنا بعين واعية وبصيرة نافذة وغيرة صادقة وتضحية كاملة وإيمان بالكنيسة المنتصرة وصخرتها الأرثوذكسية المقدسة والمستقيمة الرأى.

هدانا المولى إلى الخير والبر والصلاح.

لم يتبين مع الأسف أى أثر لأى نهضة فكرية أو ملية أو إصلاحية، ولعلهم استكانوا وقتها لعلة أو لأخرى أو حتى تمر أزمة خلو الكرسى البطريركى والتى دامت قليلا على ما قدمنا. ورسم الأنبا ديمتريوس الثانى فى ١٥ يونيو سنة ١٨٦٣، ومكث على كرسيه حوالى ثمانى سنوات وتنيح فى الثامن عشر من يناير ١٨٧٠ ولم يذكر التاريخ إبان توليه الكرسى أى جهود بذلك للسير بمقدرات الكنيسة والشعب الذى تزعمه. وذكر المؤرخ الكبير المرحوم توفيق اسكاروس فى كتابه "توابع الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر" أن اسمه ميخائيل رئيس دير أبو مقار زار الصعيد ورد الكثيرين للأمانة وتشرف بمقابلة السلطان عبد العزيز وأنعم عليه بألفى فدان للمدارس". وكانت الأحوال سائرة فى ركود جمود تام، استكان معه الأقباط وكانت الآمال معلقة على أولئك الرجال والشبان الذين رضعوا لبان نهضة أبى الإصلاح وائتموا بها وبمثابة الإيمان بوثبة إلى الأمام محافظة على كيان الشعب وإسعاده. ونوهنا بالحركة الإصلاحية التى بدت وأثمرت بانتخاب المجلس الملى. وإلى ما كان من رسامة الأنبا كيرلس الخامس فى نوفمبر سنة ١٨٧٤ وتظاهره بمسايرة الإصلاح وتأييد المجلس الملى فترة قليلة من الزمن ثم تنكره له تنكرا تاما. وليست غائبة عن المعاصرين الأحداث العديدة التى جرت فى أيامه وأشرنا إلى بعضها.

هذا من ناحية جهود رجال الدين فى هذه المدة الطويلة لرفع شأن الكنيسة والتى لم تثمر فى أحياء الشعور الدينى إلا بمساندة وتعضيد بعض الرجال الغيورين الذين عاصروا الأنبا كيرلس الرابع، وفى مقدمتهم المغفور له بطرس غالى والذى كان له الفضل فى تأسيس الجمعية الخيرية القبطية، وفى الصفوة الممتازة من الشباب الناهض العامل والذين أثمرت جهودهم فوق تأسيس المجلس الملى والمحافظة على كيانه، بتأسيس جمعية التوفيق القبطية بعدها فى الرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٨٩١، والحوادث التى جرت وتزعمها رجال الجمعية حينذاك ليست بعيدة عن الأذهان. ولم تجد هذه الحركة الإصلاحية مع الأسف استجابة من الحكومة على المحتلين الذين كانوا يقفون فى وجه كل حركة إصلاحية تقدمية، بل بالعكس لاقت المرعى الخصيب فى مساندة الرجعية على ما قدمنا عنه البيان الكافى من قبل.

وعلى الرغم من العوامل الحكومية والرجعية لاثباط الهمم ومناهضة الشعب ممثلا فى مجلسه الملى الذى لم يكن له رغبة إلا العمل على إصلاح شأن رجال الدين

والنهوض بمرافق الشعب ومعاهده كافة، الدينية منها أو العملية، على الرغم من هذا فقد بدت النهضة الإصلاحية فى محيط الجمعيات والهيئات التى أسست لهـذه الأغـراض النبيلة. وقد أثمرت مساعى الجمعيات التى أنشئت فى إعداد جيل من الشباب النـاهض الذى أراد أن يرضع لبان العلم ويكون عونا على النهـوض والعمـل علـى إصـلاح الأحوال.

ولم يقف الأمر عند حد الجمعيتين الكبيرتين – الجمعية الخيرية وجمعية التوفيـق – بل تعداها إلى العديد من الجمعيات، ومنها جمعية كلية البنات القبطية والتـى أنشـئت كليتها الحالية بمساعى وهمة بعض الأفراد الغيورين. وتبنى هذه الحركة فـى إنشـائها نخبة من الرجال المعروفين وعلى رأسهم المرحوم نجيب بطرس غالى وأضحت معهدا كبيرا ومثالا يحتذى فى النجاح والنظام فى أعماله وعلى أكمل وجه. ومنها أيضا جمعية الإيمان القبطية بشبرا، وقد توسعـت فى مشروعاتها، وكان النجاح حليفها لولا نكسـة عطلت سيرها وجمـدت مؤسساتها بسبب ضعـف الرقابة وشهوات البعض ممـا أدى بالوزارة المختصة إلى ضم أعمالها إلى الجمعية الخيرية الكبرى. ونحن نرجـو مـن صميم قلوبنا أن تقال هذه الجمعية من عثرتها.

ولا ننسى مجهودات جمعية السلام القبطية بشبرا وجمعية الإخـلاص القبطيـة بمصر الجديدة. ونأمل أن يكون الخلاف القائم فى محيطها قد زال. وكذا جمعية ثمـرة التوفيق القبطية بالفجالة فلها مدرستها ومستوصفها فوق ملجأ العجـزة القـائم بسـراى المرحوم بطرس غالى الذى نرجو له مزيداً من النجاح. وغيرها من الجمعيات الأخرى المنبثة فى كل مكان. وعسى أن تتحقق آمالنا فى تضامنها وتعاونها فى سبيل المصلحة العليا للأمة والشعب.

كما نذكر بكل تقدير وإعجاب نهضة سيداتنا المباركة فى هذا الحفـل وخاصـة جمعية السيدات القبطية التى ترأسها السيدة مدام نجيب بطرس غالى وجمعية الصديقات لتربية الطفولة التى أسستها المرحومة السيدة فايقة عزمى قرينة الدكتور العالم نجيـب محفوظ، وكلتاهما تقومان بعملهما فى سبيل الخير والبر بكثير من النشاط والنجاح.

وقد بلغت الجمعيات التى أنشئت العشرات وخصوصا فى مدينة القاهرة ولكنهـا فى حاجة إلى تنسيـق وتنظيـم وتضامن للأعمـال المثمرة المنتجة فى حقل الإصلاح الاجتماعى والخيرى من ناحية وفى النهضة الدينية الصالحة من ناحية أخرى. وقد أراد المجلس الملى من قبـل أن يساند هذه الجمعيـات فى النهوض بها وتنسـيق أعمالهـا

وأغراضها وعقد لذلك عدة جلسات مع مندوبى الجمعيات وانتهت بلا نتيجة لأن هذه الجمعيات أرادت أن تستقل بأعمالها دون تنسيق بين أغراضها المختلفة.

وفكرت جمعية التوفيق القبطية فى حركة من هذا القبيل ودعت هذه الجمعيات فى أكثر من فرصة للاجتماع بمندوبيها للعمل على الإصلاح فى تعاون مثمر ومجهود منتج وتنسيق تام وتوحيد لأعمالها. واتصلت فى هذا الشأن بالمجلس الملى العام فى أوائل سنة ١٩٥٧. وعاودت هذه الحركة أخيراً معتقده أن هذه الجمعيات تنظر إلى هذا الموضوع نظرة واسعة وأفق واسع بعيداً عن الأنانية وحب الذات. وقد جاء فى نداء الجمعية سنة ١٩٥٧ لزميلاتها عن أغراض هذا التعاون مع المجلس الملى ما يأتى:

"... يسعدنى أن أكتب هذا مبينا الخطوات الأولية التى اتخذت بصدد دعم تعاون وثيق بين المجلس الملى العام والجمعيات القبطية فى أنحاء الجمهورية، هذا التعاون الذى تحتمه الضرورة وتمليه المصلحة العامة. فالمجلس الملى كأخ أكبر يتصل فى لجنة مشتركة مع أخوته "الجمعيات القبطية" للتشاور فى النفع المشترك الذى يعود على الكنيسة بالإنتاج الوفير والخير الكثير، إنتاجا فى النواحى الروحية والأدبية، وخيراً فى الناحية المدنية والمادية لتعمل كلها على رفع مستوى الشعب القبطى ودعمه على أساس سليم من التنظيم فى مشروعاته والنضوج فى حياته وتقوية الروح المعنوية فى هيئاته.

وقد اجتمع فعلا ممثلوا المجلس الملى العام بممثلى الجمعيات العامة بالقاهرة فى سنة ١٩٥٧ أكثر من ثلاث مرات وأسفرت هذه الاجتماعات عن تكوين لجنة مشتركة من مندوبى المجلس الملى العام وممثلى الجمعيات القبطية يكون مقرها المجلس العام بالقاهرة وديوان المجالس الملية الفرعية بالأقاليم تكون مهمتها:

(١) العمل على التعاون بين المجلس والجمعيات فيما يتصل بإحياء اختصاص المجلس الملى العام المعطى له بموجب اللائحة التأسيسية الصادرة فى سنة ١٨٨٣ بتشكيل المجلس وفيها نص صريح على رعاية الجمعيات وتقديم كل معونة ممكنة لها لتيسر تحقيق رسالتها.

(٢) معاونة الجمعيات على حل مشاكلها الداخلية والخارجية حسب رغبتها.

(٣) العمل على توجيه الجمعيات وجهة صحيحة فى مشروعاتها ومعاضدتها إلى أبعد حد ممكن.

(٤) تزويد الجمعيات بالخبرة الفنية والإدارية التى تساعدها على أداء خدمتها على الوجه الأكمل.

وبالإجمال، العمل على إيجاد تعاون وثيق يربط بين أعضاء الجسد الواحد فى كل شئون الأمة القبطية.

ويشرفنى أن أرجو سيادتكم أن توافونا بآرائكم التى تعيننا على النهوض بتحقيق هذا التعاون.

فلم تجد أيضا استجابة لها إلا من عدد يعد على أصابع اليد. وبقيت كل جمعية تعتز بشخصيتها وتنفرد بعملها ولو كان صغيرا تافها فلا يقاس بمجهود تعاونى صحيح بينها وما تترتب عليه من نجاح حقيقى لبث روح نهضة اجتماعية وإصلاحية ودينية فى صفوف الشعب.

ولا ننكر أن بعضها يقوم فى محيطه - ولو فى نطاق محدود - بعمله فى نجاح كبير ومنها من يعمل على إحياء اللغة القبطية والوعظ والإرشاد الدينى. ولكن هذا لا يكفى لنهضة نبتغيها وإصلاح نرتجيه خصوصا والأحداث تتوالى وتتابع وتدعوها إلى كثير من اليقظة والنشاط للمحافظة على كياننا من التدهور لا قدر الله.

ونذكر مع الفخر ما تقوم به بعض الجمعيات العاملة المثمرة كجمعيات الإخلاص والتوفيق والثبات والاتحاد القبطية بالإسكندرية فى هذا السبيل بنجاح موفور وبإنتاج جدير بالإشارة والتنويه والتقدير. وكذا بعض الجمعيات العاملة فى حقل الإصلاح قد احتفلت بالإسكندرية احتفالا شائقا بمرور الخمسين عاما على نياحة أبى الإصلاح.

ونختتم حديثنا بالترحم على ذكرى الأنبا كيرلس الرابع .. سائلين الحق جلت قدرته أن يوفق سميه الأنبا كيرلس السادس فى رسالته للنهوض بالشعب ومتضامنا معه ومعه مجلسه الملى القادم. حياه الله وأبقاه ووفقنا جميعا إلى ما فيه الخير والصلاح والبر بأمتنا.

المثل الذى ضربه البابا كيرلس الرابع

"ذكرى الصديـق يدوم إلى الأبـد" (مز ١١٢: ٢)

"اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم" (عب١٣: ٧)

القمص جرجس إبراهيم*

لقد كان الأنبا كيرلس الرابع على خلق عظيم، يحمل بين جنبيه قلباً كبيراً ينـبض بمحبة الله ونفساً كريمة تميل بكل شعورها وأحاسيسها إلى صـنع الخيـر. فلمـا رأى ما وصل إليه الشعب فى ذلك الجيل التعس من حال سيئ من الجمود والتأخر، يكتنفـه ظلام الجهل من كل جانب، كرس نفسه للعمل على إسعاد شعبه ولهذا كانت عنايـة الله تقوده فى طريق الحياة وتعده لهذا العمل العظيم.

لقد نشأ منذ حداثته على أخلاق طيبة كريمـة فكان مؤمناً تقياً وعلاقته بالله كانت قوية واكتسب فى شبابه صفات فاضلة، فكان عالى الهمة طموحاً إلى المعالى، وبجانب هذا كان متواضعاً منكراً لذاته. فلم ينظر إلى ما هو لنفسه بل إلى ما هو للآخرين. لقـد كان عظيما أمينـاً شجاعاً، وكان ثابتـاً على المبدأ مهما كلفـه الأمر فلم يتراجع إلـى الوراء، وفى سبيل الواجب والحق ضحى بحياته وأصبح فى عداد الشهداء. وياترى هل كان على درجة كبيرة من العلم؟ لم يدخل أبو الإصلاح جامعة من الجامعات، بل دخل مدرسة الحياة بقلبه الكبير وعقله الناضج، وصقلته تجارب الحياة القاسـية واختباراتهـا فأنتصر على أهوائها، ولمعت أخلاقه السامية وبرزت فيـه المواهـب الكامنـة، ورأى الناس فيه نزاهة وإخلاصاً وشجاعة وصراحة. رأوا فيه رجولة كاملة وإنسانية ممتازة، رأوا فيه مروءة وشهامة، هذه كلها أهلته أن يكون أميناً على بيت الله فدعته نعمـة الله قبل إرادة الشعب أن يصل عن جدارة واستحقاق إلى مركز الصدارة، ويتبوأ مكانه من الزعامة والقيادة، فكان بنعمة الله بطريركا "ولن يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضاً" (عب ٥ : ٤).

وما أن وصل إلى هذا المركز الخطير، حتى أحس بالمسئوليات التى وضعها الله على عاتقه، فكافح بكل إخلاص وشجاعة لانتشال الشعب من وهدتـه، والسـعى بكـل الوسائل الممكنة فى سبيل خيره ورفعته، فبذل النفس والنفيس لإخراج الشعب من ظلام

* (١٩٢٢- ١٩٧٣) كاهن كنيسة مارجرجس – القللى – القاهرة ثم كنيسة الملاك ميخائيل – طوسون – شبرا – القاهرة.

الجهل إلى عالم النور ثم اهتم بإصلاح المختل من الأمور. وبالإجمال كان ساهراً على إنجاز ما رسمه للإصلاح بهمة لا تعرف الكلل حتى جدد للكنيسة عهد شبابها وأعاد للشعب مكانته وكرامته.

لقد مضى على انتقال أبى الإصلاح إلى عالم المجد جيل كامل. ومع ذلك فهو "وإن مات يتكلم بعد" إننا اليوم لانكتفى بذكراه للإعجاب والتكريم، وذكراه من أمجد الذكريات، بل لنتخذ منها أسمى الدروس وابلغ العبر. لقد قدم فى حياته، فى صفاته وجهاده مثلا عالياً لما يجب أن يتوافر فى المصلحين المخلصين.

لقد كان أبو الإصلاح مثالا لقوة الشخصية لأنه بشجاعته وأمانته اكتسب قوة روحية كان لها الأثر البعيد فى نجاح قيادته الصالحة فهو بحياته قدم برهاناً عن: كيف يؤثر الفرد فى الجماعة؟ ويكفيه شرفاً أنه أستطاع بمفرده، وفى جيل لم تتوافر فيه إمكانيات الجيل الحاضر، أن ينهض بشعبه نهضة قوية استرجع بها مكانته بين مصاف الشعوب الراقية، وإذ دعاه الله لمركز الزعامة الروحية فقد استعان بالله ولم يكن له مال ولا مؤهل عال من العلم بل كان بالإيمان، توافرت فيه قوة الإرادة وصدق العزيمة ووصل سريعاً إلى تحقيق الأهداف التى غنياً كان ينشدها وفى هدوء وصمت كان يعمل أبعد ما يكون عن المظاهر الكاذبة وكان يخاف الله واكتسب من قوة شخصيته هيبة وجلالاً جعلت الجميع يسيرون وراءه صفاً واحداً. إن إشعياء النبى يرثى حال أمته "ليس لها من يقودها من جميع البنين الذين ولدتهم، ولا من يمسك بيدها من جمع البنين الذى ربتهم" (أش٥١ : ١٨) فماذا نقول عن تقصير الجيل الحاضر وتخلفه فى موكب الحياة ونحس بالمسئولية الخطيرة عند استعراض ذكرى أبى الإصلاح الذى قام بجلائل الأعمال وصنع العجائب فى نهضة الأمة وفى جيل ساده الجهل والجمود.

ماذا نقول وفينا الآن الصفوة الممتازة من رجال العلم والثروة والمكانة ولكن مع الأسف الشديد انصرف كل منهم إلى حال سبيله، آثروا مصلحتهم الخاصة على المصلحة العامة غلبتهم الأنانية وتفرقت كلمتهم، لايعرف الواحد منهم الآخر وكأن لا رابطة تجمعه بالآخرين. إننا لسنا اليوم فى حاجة إلى كثير من العلم أو مزيد من الثروة، إنما نحن فى مسيس الحاجة إلى وعى مستيقظ إلى الكثير من الأخلاق.

فلتكن ذكرى أبى الإصلاح محفزة لنا لنصلح أمرنا، فننكر أنفسنا ونوحد كلمتنا لنترك توافه الأمور ونهتم بالجوهر، لنفضل مصلحتنا العامة على مصالحنا الخاصة، وحسب الإنسان أن يكون أميناً فى تأدية واجبه إذ لكل واحد عمله، وعندئذ يكون الجسم كله سليما

يؤدى كل عضو وظيفته تحت رأس مفكرة حكيمة، هل الكل يريدون أن يكون زعماء؟ هـذا سر الداء وهذا منتهى الجهل والغباء، إننا نريد أن يكون الجميع أمناء وتتوحد الصفوف وراء قيادة صالحة أقامها الله.

إن الإصلاح الحقيقى لا يقف عند حد الكلام، بل هو كما يعلمه لنا أبو الإصـلاح جهاد وتضحية، هو شعور شريف نبيل يدفع المصلحين المخلصين في شجاعة وحكمـة لتحقيق حياة أفضل ترفع الناس إلى مستو عال من الأخلاق الكريمة، فيتعاونون بـالبر والتقوى على صنع الخير وإسعاد المجتمع الذى يعيشون فيه.

فلنتخذ من حياة أبى الإصلاح مثلا عملياً نقتدى به، فها هى روحه النبيلـة التـى كان يعمل بها وها هى غيرته وشجاعته، بل ها هى حكمته وبعد نظره فى معرفة مـا تحتاج إليه الأمة من إصلاح عملى. لقد رسم تخطيطاً سليما لمشاريع جبارة نفذها بكـل حزم بعدما عرف مواطن الداء وسر البلاء فحقق للشعب ما كان يرجوه له مـن رقـى ورفعة.

كان البابا كيرلس الرابع يبدأ دائماً بالأساس المتين ثم يبنى عليه – من مجمـوع الأسر تتكون الأمة – فبدأ بإصلاح البيت، صان للأسرة كرامتها وحافظ علـى كيانهـا وسلامتها فكان قاسياًعلى كل عابث بسر الزيجة فلم يسمع فى زمانه بقضية طلاق وكان أول من علم الفتاة ليوجد منها المرأة الفاضلة التى تسعد بيتها وتنفع كنيستها وبلادها.

وشيد الكنائس وفى مقدمتها الكاتدرائية الكبرى بالأزبكية وحـث علـى التـدين الصحيح لأن الشعب المبتعد عن الله، لا ينفع كنيسته ولا يخدم أمته.

ولم يترك البابا كيرلس الرابع مالاً أو عقاراً بل أنفق بسخاء وكرم فى سبيل تشييد المدارس والمدرسة الكبرى التى استحضر لها المعلمين الأكفاء وجعلهـا فـى مقدمـة المدارس التى خرجت الرعيل الأول من رجال الأمة مسلمين وأقباط، ولم يعتن باللغات الأوربية كالفرنسية والإنجليزية والإيطالية فحسب بل واعتنى باللغة القبطية وسعى فـى سبيل نشرها، لا لأنها لغة الكنيسة بل هى لغة المعرفة لغة العلوم والحكمة التى عرفت بها مصر، ويوم يتحدث القبطى بلغته يعرف قدر نفسه ويحس بقوميته فيعتز بكرامتـه، ليس تشبهاً بالأمم المتمدنة الراقية – ولكن أضعف الإيمان – أن تكون لنا من النـوبيين أسوة حسنة.

لقد وضع الأساس لنشر العلـوم والمعـارف وأراد أن يخـرج للشـعب كنـوز المخطوطات إلى عالم المطبوعات باستحضار المطبعة من أوربا ولا ننسى ما قاله رداً

على المنتقدين استقبالها بالمحطة باحتفاء دينى أدهش الناس "ولو كنت حاضراً بالقاهرة لرقصت أمامها كما رقص داود أمام تابوت العهد" هذا ما صنعه البابا كيرلس الرابع مع الشعب مما يبرهن على عظمته وعلى حكمته وبعد نظره.

ولما أراد أن يجدد للكنيسة عهد شبابها ويرجعها إلى سابق مجدها. نظر أولا إلى الرهبنة فأصلحها. فى شبابه اشتاق إلى الحياة الملائكية حياة النسك والقداسة فذهب إلى الدير زاهداً فى مجد العالم الزائل ورغبة منه فى عبادته تعالى، لا ليتخذ منه سلماً يثب منه إلى الوظائف العليا كما كان يحلم البعض، بل جعل همه أن يعيد للرهبنة هيبتها وكرامتها فنظم القوانين وحبب إلى الرهبان ملازمة أديرتهم حيث قد ماتوا عن العالم.

أما الأساس الثانى لإنعاش الكنيسة فهو إصلاح المختل من الأمور بالمحافظة على ما تأمر به القوانين، فهى ليست فى حاجة إلى تشريع جديد أو تنظيم عصرى، فإن نظامها الرسولى واتباع أوامر آبائها كفيلان إرجاعها إلى مجدها الأول - أليست الكنيسة هى الأمينة المحافظة على الإيمان وفى سبيله سفكت دماء شهدائها فكيف يعقل أن تستعين بوسائل تضاد تقاليدها وروح عقيدتها فقد استحضر علماء جهابزة للمدارس العلمية التى أنشأها ولكنه لم يرسل بعثات للخارج أو يستقدم علماء اللاهوت من أوربا وأمريكا. لقد كان أبو الإصلاح أميناً على بيت الله، على زعيمة كنائس العالم التى كانت كما يشهد لها التاريخ ترأس المجامع وترسل فى كل عام منشورها قبل عيد الفصح. وإن إصلاح الكنيسة لا يأتى من الخارج بل من الداخل، وهذا هو الأساس الصحيح.

كان شديد الوطأة على رجال الدين الذين أهملوا واجبهم. فكان يشجعهم ليكونوا مثلا عليا للرعية.

وأخيراً لقد ضرب لنا أبو الإصلاح مثالا فى الثبات إلى النهاية بالاحتمال والصبر وهذا هو سر نجاح المخلصين العاملين بل سر عظمتهم، لقد قاوموه فافتروا عليه وحاربوه بالدسائس. افترى عليه وهو فى الحبشة بأنه تزوج وانجب أولاداً وهو الرجل الطاهر العفيف. وافترى عليه العرفاء العميان لمنع الشبيبة القبط عن الذهاب إلى المدرسة الكبرى رغم جعله التعليم مجاناً، ولكنه عالج الأمر بحكمته وطول أناته وأنتصر على كل العقبات. وعمل الحسد والحقد فى القلوب فكانت الدسائس الأجنبية لإيغار صدر الخديوى عليه، كل هذا بسبب أمانته للكنيسة، ووطنيته الصادقة لبلاده. وكم تحمل من المشاق فى سبيل سفره إلى أثيوبيا مرتين ولم يكن سهلا كما فى وقتنا الحاضر، ويا ترى

هل كان إلهام من الله أن يتمرن على ركوب الخيل والإبل فى شبابه، حتى أشتهر بالفروسية بين العرب الضاربين خيامهم قرب بلدته، ألم يكن هذا إعداد له المستقبل وهو لم يكن يدرى أن عناية الله تقوده فى طريق مرسوم لهذا العمل العظيم الذى قام به وأتمه.

كان أبو الإصلاح وقد استهدف للخطر لا يخشى غير الله يذكر قول الإنجيل "لا تخافوا ممن يقتلون الجسد بل خافوا من الذى له سلطان أن يلقى الجسد والنفس كليهما فى جهنم" لقد ذهب ضحية الدسائس ومات شهيداً ولسان حاله يقول "الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر، قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعى حفظت الإيمان، وأخيراً قد وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل" ١تى ٤: ٦ – ٨.

فى يوم الذكرى الخالدة نحي الروح العظيمة وهى فى عالم المجد، وهى بدورها ترنو إلينا مباركة لنا تطلبنا أن نسير فى خطاها، ونقتدى بالمثل التى ضربها لنا فى جيلنا الحاضر خلفه وسميه الأنبا كيرلس السادس مختار الله وحبيب الشعب الذى ينسج على منوال سلفه. أطال الله حياته وحقق له آماله وجمع شمل أبنائه ليسير الجميع وراءه صفاً واحداً، ونعمل جميعاً متحدين ومتعاونين لرفع شأن الكنيسة وخير الشعب أسعد الله بفضل صلواته الطاهرة جميع طبقات الأمة، ووفق الله بنعمته زعيمنا الرئيس جمال عبد الناصر لتتمتع بلاده المحبوبة بإقليميها الشمالى والجنوبى بسلام شامل ومجد كامل.



فضل أبى الإصلاح على الثقافة والتعليم

الأستاذ عبد الحليم الياس نصير المحامى*

يشرق فى كل جيل فى ظلمات أحداث الزمن، قادة موهوبة يحملون مشاعل العقل والحكمة وخصائص القيادة والكفاح والإصلاح، يوقظون النوام ويوجهون الأجيال إلى ما ينفع الناس ويمكنك فى الأرض، ويفتحون النوافذ والأبواب للفكر البشرى. ومن هؤلاء القادة العظماء البابا كيرلس الرابع البطريرك العاشر بعد المائة فى عداد بابوات الإسكندرية وأورشليم وأثيوبيا والمشرق وسائر الكرازة المرقسية. الذى ولد سنة ١٨١٦ وتوفى فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ بعد أن أضاء سماء مصر والشرق فى منتصف القرن التاسع عشر وأرسى أسس الإصلاح الشامل والتعليم القومى ونشر الرسالة الجامعية فى تثقيف الشبان والشابات وتعليم رجال الدنيا والدين، وفتح المدارس الحديثة للبنين والبنات للمسلمين والأقباط وسائر السكان دون تفريق ودون أن يقتضى أجراً ما عن التعليم أو الكتب. فقد منح العلم لجميع المصريين وطلاب العلم أجمعين مجاناً لوجه الوطن ووجه العلم دون تفريق بسبب العقيدة أو الدين أو المذهب وهكذا كان أعظم بنّاء للقومية المصرية العربية، كما تدل عليه سماته وآثاره الخالدة.

سر عظمته ومصادر ثقافته:

ألهم أبو الإصلاح إنه لن تقوم للشعب قائمة إلا بالتعليم القومى المجانى والثقافة العالية، فثار على الجهل والجهال واستحدث المدارس الحديثة واستعان بخيرة المعلمين والعلماء والخبراء من جميع الأجناس، ولقد تقدمنى بعض السادة فى تبيان بعض أمجاد البابا كيرلس الرابع وآثاره المضيئة التى ذاع صيتها ورددها ساسة العالم والمؤرخون. والواقع أن حياته القصيرة التى لم تتجاوز ٤٥ عاما - إنما تعادل أجيالا فى أعمار بعض المعمرين: ونخص بالذكر من جهاده نهوضه بالثقافة والتعليم القومى نهضة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الشرق.

وإذا كانت جهوده المثمرة قد تناولت الكثير من نواحى الحياة - فغنى عن البيان أن الناحية الثقافية والتعليمية قد نالت النصيب الأوفى من عنايته وثمار غرس يديه، حتى أنه لا يستطيع أى مؤرخ أو خطيب أو كاتب أن يتحدث عن البابا كيرلس الرابع إلا ويشير إلى هذه الناحية من نواحى نشاطه وكفاحه المثالى.

---

* عضو المجلس الملى العام سابقاً.

ولنا أن نتساءل من أية أكاديمية ومن أية جامعات عالية تخرج البابا كيرلس وتخصص فى التربية والتعليم؟

لقد تخرج هذا الرائد العظيم والعالم العامل من كتاب قرية الصوامعة بمديرية أخميم (وقتئذ) وهى مديرية جرجا فيما بعد.

لكن كيرلس كان رجلا موهوبا عالى الهمة محبا للاطلاع وكان قائداً يحكم الخطط ويقرن القول بالعمل، وقد هام حبا بحياة الصحراء والرياضة والكشف والفروسية. وقد لا يعلم الكثيرون أن البابا كيرلس كان من هواة ركوب الخيل والهجن، والمسابقة فى المضمار، حتى ذاع صيت فروسيته بين عرب الصحارى واتقاه كل مغوار، وكان يرتدى الزى العربى فى البادية فى مهابة وكان بهى الطلعة.

ولقد استهوته الحياة الروحانية فدخل دير القديس أنطونيوس بجبل العربة فى الصحراء الشرقية سنة ١٨٣٨ وترهبن وهو فى سن الثانية والعشرين. ولم يشأ أن يقضى حياته هباء وسدى وخمولا، بل أراد أن يكون صاحب رسالة تخدمه فى الدارين، وتنفع الناس وتمكث فى الأرض.

فبحث كيف يشغل أوقات فراغه العريض فى الدير والرهبنة – فى ميدان الزراعة مثل أبيه المزارع؟ – لقد استبعد نشاط الحقل الخاص الذى يذكره بحياته السابقة على الدير – حيث زهد فى مباهج القرية وفتنتها – ولا يخفى أن بعض قرى الصعيد الجوانى حافل ببعض الجميلات – والبابا كيرلس بطبعه كان عزوفا عن مغريات هذا اللون من الحياة وكان يغض الطرف حياء حتى من ظل امرأة.

كما وجد أن التوظيف فى الدواوين أو الدوائر والأعمال الروتينية لا يوفر له حياة النسك والروحانية، كما لم يكن هناك صناعة تتسع لمواهبه.

ولكنه وجد فى الدير بعض الكتب القديمة متناثرة فأقبل على مطالعتها كما أغرم بكتب النحو والأدب والتاريخ واللاهوت، ونظم حلقات للمذاكرة والمناظرة مع إخوانه الرهبان والزوار من السائحين. وقد وجد بعض كتب بلغات لا يعرفها، فبحث عن فك طلاسمها، مما أوحى إليه بدراسة مبادئ لغات العصر وحياة الناس، وتعمق فى اللغة العربية واللغة القبطية واليونانية وغيرها.

حتى لقد ذكرت السيدة بوتشر الانجليزية فى كتابها عن الأقباط أن البابا كيرلس الرابع الملقب بالمصلح، كان ضمن طلبة المعهد الانجليزى بمصر الذى كانت تدرس فيه اللغات الانجليزية والعربية والقبطية.

بل إنه وهو على الكرسى البابوية كان يستقدم أفاضل الأساتذة المتخصصين للتدريس فى مدارسه، كما كان هو أيضا يدرس على أيديهم ويتلقى الدروس عنهم – ونذكر على سبيل المثال أنه كان يعطى الأستاذ محمد بدر بك الحكيم ماهية عشرين جنيها ذهبا فى الشهر نظير تدريسه اللغة الانجليزية، كما كان يدفع مرتبات عالية لسائر الأخصائيين أمثال الأستاذ مصطفى رشوان مدرس اللغة الفرنسية والعربية والأستاذ اسكندر جروه – السورى ناظر مدرسة الأقباط الكبرى بالدرب الواسع، وكان أديبا وشاعرا ومتضلعا فى اللغات.

وكانت ماهية الأستاذ بدر بك الحكيم تعادل الآن مرتب أستاذ كبير بالجامعة.

وقد أجمع المؤرخون على أن البابا كان يتفقد مدرسة الأزبكية يوميا ومدارس حارة السقايين كل أسبوع – وقد خصص مكتبا لاستقبال الزائرين والسائحين وجعل سجلا لتدوين ملاحظات الزائرين والعمل على تنفيذ الصالح منها – وكان قداسته يجلس فى الفصول مستمعا إلى جانب الطلبة – وكان يختبرهم بنفسه من حين لآخر – وإذا انتهت الحصة يشجع الطلبة بقوله (لقد استفدت اليوم من دروسكم فوائد جزيلة لم يسبق لى علم بها). وكثيرا ما كان يقص عليهم نوادر فى الاجتهاد وأسباب النجاح.

وكان البابا كيرلس صديقا لكثير من علماء الأزهر وللأستاذ الأكبر، وكان يعقد حلقات مذاكرة ومناظرة عملية مع كبار العلماء فى جو من الألفة والمحبة والسماحة والكرامة، وكان يبادله السادة العلماء حبا بحب.

وقد نضج البابا فى تثقيف نفسه بنفسه، وأجاد اللغات العربية والقبطية والتركية واليونانية، كما ألم بالانجليزية والايطالية، كما تعلم الوطنية العليا من سلفه البابا بطرس الجاولى الذى سعى لديه مندوب قيصر روسيا ودعاه لقبول حماية روسيا للشعب القبطى، فسأله البابا المصرى هل "ملكك يحيا إلى الأبد" فأجابه "كلا" فعقب البابا بقوله "أما نحن فنعيش تحت حماية ملك لا يموت وهو الله"..!! فعاد مندوب القيصر ليقول لمولاه، إنه لم يعجبه فى مصر أكثر من وطنية بطريرك الأقباط – وهكذا خلفه كيرلس الرابع وعلم نفسه بنفسه، وسما بوطنيته وحكمته وذكائه وشجاعته وتواضعه حتى تتلمذ على تلاميذه وعلى معلميهم فى وقت معا، فارتفع إلى ذروة العلماء العاملين المخلصين، وملأ الدنيا بثمار مدارسه وشغل الناس بفضله وإصلاحه الشامل.

لقد استفاد أبو الإصلاح من تعدد أسفاره وسياحاته فطاف بأقاليم مصر والسودان وأثيوبيا وبكثير من أقطار أفريقيا كما طاف بالقدس وكثير من أقطار آسيا، وكان رسول سلام بين الأسر والشعوب، وفض المنازعات بين مصر وأثيوبيا - كما أمّن ظهر الجيش المصرى على حدود السودان وحد من دسائس الاستعمار البريطانى الفرنسى.

وعاش مقبلا على الاطلاع، وصان استقلال الكنيسة الوطنية المصرية، وتفقه فى اللغة القبطية وعمل على نشرها بجميع الوسائل.

وقد عاش أبو الإصلاح فى خدمة القيم المثالية وإعداد الأبناء الصالحين وتقديس القيم المثالية، ماثلة فى خدمة الوطن والتعليم والشعب والجيش ودعم الاتحاد القومى بين عنصرى الأمة حتى استحق لقب أبى الإصلاح.

برامج التعليم بمدارس أبى الإصلاح:

لقد استشار البابا كيرلس نوابغ عصره من العلماء والمعلمين من مختلف الأجناس لأنه كان يعتقد أن العلم مال مشاع. وعلى أساس توصيات خبراء التعليم والتربية وضع مناهج التعليم، وتتلخص فى تدريس المواد التالية:

أولا: اللغات

١) العربية.
٢) المصرية القديمة (القبطية).
٣) الانجليزية.
٤) التركية.
٥) الايطالية.
٦) الفرنسية

ثانيا: العلوم الحديثة

التاريخ - الجغرافيا - الإنشاء - الهندسة - الكيمياء - الخطوط.

ثالثا: الفنون الجميلة

الرسم - الموسيقى - الألحان.

وكان البابا المصلح يتخير الموهوبين فى جمال الصوت لتعلم الموسيقى والتلحين.

اختيار نوابغ الأساتذة:

زوّد البابا مدارسه بنخبة ممتازة من المعلمين والأساتذة من مصريين أقباطا ومسلمين وسوريين ولبنانيين وإيطاليين وإنجليز - وفتح أبوابها مجانا لأبناء وبنات المسلمين والأقباط على السواء بل وسائر سكان مصر والشرق وكأنه كان ملهماً لرسالة القومية العربية إلى

جانب مصريته الصميمة – وكان يقدم الكتب والأدوات لجميع التلاميذ والتلميذات مجانا حتى لأبناء الميسرين – وبهذا سبق زمانه وتقدم عصره ورفع منارة التعليم إلى القمة.

لقد حمل أبو الاصلاح الأعباء المالية لرسالة التعليم فى حدود موارده المالية فلم يسلم من تقريع الجهال والرجعيين حتى اتهموه بتبذير المال فى بناء المدارس وجلب المعلمين وتعليم أبناء الشعب بالمجان.

مدارس كيرلس الرابع:

أنشأ أبو الاصلاح عدداً من المدارس المجانية للمسلمين والأقباط معاً وكان البابا كيرلس أول مصلح فى الشرق قام بإنشاء أكبر عدد من هذه المدارس الحديثة النظامية تدرس أبناء الشعب وبناته بالمجان وتمنحهم الكتب والأدوات بالمجان، ليرقى ببلاده وينهض بالأمة المصرية جمعاء، حيث أنشأ المعاهد التالية:

أولا : مدرسة الأقباط للبنين بالدرب الواسع بجوار بطريركية الأقباط.

ثانياً: مدرسة البنات القبطية بجوار البطريركية بكلوت بك.

ثالثاً: مدرسة البنين بحارة السقايين بعابدين.

رابعاً: مدرسة البنات بحارة السقايين بعابدين.

خامساً: مدرسة المنصورة للبنين بالمنصورة.

سادساً: مدرسة بوش للبنين بعزبة أوقاف أنبا أنطونيوس ببوش.

سابعاً: مكاتب بكل دير لتعليم الرهبان والأهالى.

ثامناً: أنشأ دور مكاتب عامة لتثقيف الشعب فى كل دير.

تاسعاً: أنشأ أول مطبعة أهلية بعد المطبعة الأميرية – وقد جلبها من إيطاليا واحتفل بانتقالها فى المحطة احتفالا هائلا.

بعض النظار والمديرين لمدارس أبى الإصلاح:

(١) كان أول ناظر لمدرسة البابا كيرلس الرابع – وهى مدرسة الأقباط الكبرى التى أنشأها بجوار ديوان البطريركية بقسم الأزبكية وأفتتحها فى سنة ١٩٥٤ هو المرحوم الأستاذ اسكندر جروه السورى العربى. وكان أديبا وشاعراً ويجيد عدة لغات.

(٢) وعين بعده ناظراً القمص فلتاؤس إبراهيم بغدادى. وهو رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى والواعظ القدير ومؤلف قانون الأحوال الشخصية لغير المسلمين.

(٣) المرحوم وهبى بك تادرس، وكان شاعرا وأديبا – وقد تتلمذ فى الأزهر متخفيا – ولما كشف أمره أشهروا عليه سلاح ذلك الزمن – ولكن فضيلة الأستاذ الأكبر أنقذه وطيب خاطره وأذن بقبوله لمتابعة حلقات دروس الأزهر، هو وزميله المرحوم الأستاذ ميخائيل عبد السيد مؤسس جريدة الوطن.

(٤) المرحوم إبراهيم بك تكلا من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٠.

(٥) المرحوم عريان بك جرجس شقيق الأستاذ الكبير مرقس بك فهمى المحامى – وظل ناظراً من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٩.

(٦) الأستاذ عزمى نوار من رواد الإصلاح وصاحب فضل فى إنشاء دار كلية مارمرقس بدير أنبا رويس.

(٧) الأستاذ توفيق سرور من كبار موظفى وزارة التربية والتعليم.

(٨) الأستاذ هنرى إبراهيم مدير كلية الأقباط حاليا.

بعض نوابغ خريجى مدارس كيرلس الرابع بالأزبكية وحارة السقايين وهم المغفور لهم الخالدون من مدرسة الأقباط الكبرى بكلوت بك

١- محمد توفيق الساوى باشا – من كبار موظفى الدولة وأول دفعته وقد نال أعلى درجة فى العربية فى امتحان شهادة البكالوريا.

٢- عبد الحميد مصطفى باشا – وكيل المالية.

٣- محمود عبد الرازق باشا – وكيل وزارة الداخلية.

٤- الدكتور سيد كامل – سكرتير عام بنك مصر.

٥- عبد الكريم رؤوف بك المحامى.

٦- المستشار أحمد شرف الدين بك.

٧- إسماعيل بك زهدى المحامى.

٨- حسن كامل الششينى باشا مدير عام بنك التسليف الزراعى.

وهم ممن ثاروا على اشتداد المستشار دنلوب فرحبت بهم مدارس الأقباط.

٩- المستشار مينا بك إبراهيم.

١٠- إسماعيل باشا حسنين وكيل وزارة المعارف.

١١- المستشار سليمان بك يسرى.

١٢- ميخائيل شاروبيم بك القاضى والمؤرخ.

١٣- القمص فلتاؤوس إبراهيم بغدادى رئيس الكنيسة المرقسية والخطيب المشهور.

١٤- وهبى بك تادرس الأزهرى ومدير المدارس القبطية والشاعر.

١٥- الأستاذ ميخائيل عبد السيد الأزهرى والأديب والصحفى ومؤسس الوطن.

١٦- باسيلى بك روفائيل الطوخى من أعلام اللغة القبطية.

١٧- يعقوب بك نخلة رفيلة المؤرخ.

١٨- حبشى بك مفتاح من كبار موظفى السكة الحديد.

١٩- الأستاذ برسوم الراهب من كبار أساتذة اللغة القبطية.

٢٠- المستشار حنا باشا نصر الله (خال المرحوم الدكتور سامى صابونجى).

٢١- حبيب فرج مليكه والد الصحفى النابغة المرحوم توفيق حبيب.

٢٢- خليل باشا إبراهيم المحامى.

٢٣- القمص حنا مرقس والد المرحوم مرقس باشا حنا الوزير الوطنى.

٢٤- ميخائيل بك تادرس من كبار موظفى الدائرة السنية.

٢٥- سعيد زقلمة عمدة النخيلة.

٢٦- تادرس بطرس شلبى من كبار مصلحة السكة الحديد وكان خطيبا.

٢٧- حبيب شلبى من الأعيان وباسمه شارع بالفجالة وعم الدكتور شفيق شلبى.

٢٨- رزق الله بك فرح وقد تبرعت من بعده زوجته ووالدته بثلاثة وأربعين فداناً للجمعية الخيرية القبطية وهى كل ما تمتلكان.

٢٩- عوض بك بادير ناظر محطة الإسكندرية وكان يجيد اللغات العربية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

٣٠- بطرس بك بادير من كبار موظفى السكة الحديد.

٣١- الأستاذ إسماعيل حمزة المحامى بالإسكندرية.

٣٢- جرجس بك يوسف ملطى الدهشورى باشكاتب محكمة الاستئناف الأهلية وهو ابن المعلم ملطى قاضى الديوان الكبير فى عهد المماليك والحملة الفرنسية.

٣٣- جرجس عصفور من كبار موظفى السكة الحديد ووالد المرحوم جفرى عصفور رئيس جمعية ثمرة التوفيق.

٣٤- برسوم بك جريس رفيله – القاضى – ومن رواد الإصلاح.

٣٥- رزق الله بك غبريال وكيل إدارة السكة الحديد.

٣٦- يس باشا أحمد – المستشار

بعض نوابغ خريجى مدرسة حارة السقايين:

١- المرحوم بطرس باشا غالى

٢- المرحوم يوسف باشا وهبه

٣- المرحوم عبد الخالق ثروت باشا

٤- الدكتور طلعت منصور

٥- إبراهيم بك منصور

٦- القمص بولس الكبير وكيل بطريركية الأقباط ومدرس الرياضة بمدرسة حارة السقايين فى عهد كيرلس الرابع – وهو خال الأستاذ جورجى إبراهيم.

٧- قلينى فهمى باشا

٨- كامل عوض سعد الله بك – رئيس جمعية التوفيق

٩- الأستاذ بطرس حنين.

١٠- المستشار إبراهيم يحيى إبراهيم.

١١- الدكتور على يحيى إبراهيم

١٢- الأستاذ عبد الشهيد توت - الذى تزوج بإحدى الطالبات الإنجليزيات بمدرسة بنات حارة السقايين - وكانت تدعى جانيت أو حنينه - ومن أحفادهما الأستاذ فهمى جورج المحرر بجريدة البورص سابقاً - والآن مقيم بفرنسا.

١٣- حسين رشدى باشا - رئيس مجلس الوزراء.

١٤- سعد بك عبده من أقطاب الإصلاح ومن أعظم أنصار أبى الإصلاح.

أبو الإصلاح ينهض بالمكتبات العامة

١- نهض أبو الإصلاح بإنشاء دور الكتب العامة وتعميمها فى المدارس والأديرة، فأنشأ أول مكتبة عامة فى دير أنبا أنطونيوس ببوش وتلاها بمكتبة عامة بمدرسة الأقباط الكبرى بالأزبكية (وهى كلية الأقباط حاليا) وتضم الآن قرابة أربعة آلاف كتاب تضاف إليها الدوريات من مجلات وصحف ونشرات.

٢- وقد أهدى إليها المرحوم يوسف وهبه باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا مكتبته الخاصة النفيسة، المكونة من ٥٤٥ كتاباً.

٣- كما أهداها المرحوم عريان بك جرجس مدير مدارس الأقباط مكتبة أيضاً وهدية كتب كبرى من السيد عمر طوسون والأستاذ توفيق اسكارون وغيره والمكتبة مفتوحة لجمهور محبى الاطلاع. ويشرف عليها حالياً الأستاذ المهذب رياض محمود.

٤- وعلى الشعب أن يذكر دائماً بأن البابا كيرلس الرابع هو أول من أنشأ المكتبات العامة القومية والمدارس الوطنية الحرة المجانية لتثقيف الشعب وتعليمه بالمجان. وأنه أول بابا فى الشرق نادى بتعليم الفتاة وتحريرها ومساواتها فى الحقوق بالرجل، على أن تكون سيدة بيتها.

العقبات ضد الإصلاح والمدارس التقدمية ثورة العرفاء والجهلاء على العلم

١- أن القائد العظيم والرائد المجلى هو من يعرف كيف يواجه الصعاب ويذلل العقبات ويقهر دعاة الهزيمة ويكسب المعركة الأخيرة. ولقد لقى أبو الإصلاح منذ حمل رسالة النهضة والتعليم مخاطر لا تعد وعقبات لا توصف، وقد تحالف عليه الجهال والرجعيون والحساد وأعداء التقدم، وحارب العرفاء مدارسه الحديثة لأنهم استشعروا أن فيها القضاء على كتاتيبهم وعلى رواتب العائلات لهم من عيديه التلاميذ من قمح وفطير وكسوة ونقدية وبلح ولحم فى كل موسم وعيد.

٢- وقد إستشعر العرفاء الخطر من قيام مدارس البابا كيرلس فأشاعوا أنها تعلم الكفر وفساد الأخلاق والعقائد - وأن مصير تلاميذها إلى جهنم - وتأثر الأهالى وأعيان الأسر بهذه الدعايات الخبيثة فكانوا يمنعون أولادهم من الالتحاق بمدارس البابا كيرلس المجانية ويصبون فى عقول الآباء كراهية مدارسه التقدمية التى تعلم اللغات الحية والعلوم الحديثة التى تجهد العقول وتفتح مغاليقها وتحيى اللغة القبطية المصرية بعد هجرهما عدة قرون.

٣- وقد حكى المؤرخ ميخائيل بك شاروبين أن أحد العرفاء العميان لما علم بأن البابا كيرلس نجح فى إدخال عدد كبير من أبناء الأعيان فى مدارسه أخذ يبصق حوله ويزفر بالقذف واللعن فى حقه بأعلى صوته حتى أغمى عليه.

٤- فلما علم أبو الإصلاح بتمرد العرفاء لم يأخذهم بعصيانهم، بل عالج تمردهم بحكمته المأثورة، حيث دعاهم إلى مكتبه وكاشفهم بأنه عهد إليهم بالمرحلة الأولى من تعليم الصغار نظير أجر شهرى، وأنه سيجرى اختبارات للتلاميذ كل ستة شهور ويختار النابهين إلى مدارسه، ويجرى على العرفاء المجدين الناجحين مكافآت سخية، وهكذا أسلس قيادهم وحد من عصيانهم وسوء دعايتهم، وتغلب بحكمته على ضلالهم ورجعيتهم، أما جهال الأعيان والعامة وأرباب الأسر فقد حشد لهم ألسنة الكهنة والمعلمين والمثقفين لتنوير عقولهم وتبصيرهم بمستقبل أولادهم وما يعود عليهم من مزايا التعليم بالمدارس التقدمية.

جهود البابا كيرلس لاعتراف الحكومة بمدارسه

فى أواسط القرن التاسع عشر، تأسست فى مصر والشرق بعض المدارس الأجنبية للإرساليات الأمريكية والفرنسية واللاتينية والانجليزية ورأى أبو الاصلاح أن الوطن يناديه أن يستعين بالعلم والتعليم فى إنشاء المدارس القومية للمحافظة على كيان بنى مصر والشرق ومسايرة ركب الحضارة وتغذية أبناء الوطن بنفس العلوم التى نهضت بالأمم التى تقدمتنا، وسرعان ما أنشأ أبو الاصلاح مدارس مثل مدارس الأجانب تعلم اللغات الحية والعلوم العملية والنظرية، ثم خصص مدارس للبنين وأخرى للبنات وفتح أبوابها لبنى مصر أجمعين دون تفريق بسبب العقيدة أو الدين أو المذهب، ومنح جميع التلاميذ والتلميذات حق التعليم بدون أجر مع منح الكتب والأدوات بدون ثمن ... فكانت مدارس البابا كيرلس أول مدارس حديثة بالمجان فى تاريخ مصر.

ولم يلبث قداسة أبى الاصلاح أن سعى لدى الحكومة للإشراف على امتحانات المدارس وبرامجها وعلى توزيع جوائز النجاح والقيام بافتتاح العام الدراسى، وقد أثمر سعيه الحكيم ولكنه تحقق بعد وفاته .. ويحضرنا فى ذلك الأحداث التاريخية التالية:

أمر إلى رئيس مجلس الأحكام

بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٢٨٠ هجرية صدر أمر إلى رئيس مجلس الأحكام بإشراف نظارة المعارف على المدارس القبطية وامتحاناتها وتوظيف خريجيها وتعريف قداسة البطريرك بالكتب الأميرية الجارى تدريسها بمدارس الحكومة لكى تدرس فى مدرستى الأزبكية وحارة السقايين ورخص بأن يمتحن تلاميذها بين المدرسين أمام لجنة الامتحانات الحكومية وأن يؤخذ من طلاب هاتين المدرستين موظفون للخدمات الأميرية حسب الإيجاب. كما منحت الحكومة المصرية البطريركية خمسمائة فدان للإنفاق منها على معاهدها بأنواعها.

الحكومة تحتفل بالعام الدراسى لمدارس الأقباط بحضور كبار رجال الدولة

وصفت الوقائع المصرية "جريدة الحكومة" الاحتفال الذى أقيم بمدرسة الأقباط سنة ١٢٨٣هـ برياسة المهندس الوزير محمود بك الفلكى وحضور شريف باشا ناظر الداخلية ومدير عموم المدارس المصرية وحافظ باشا ناظر المالية وراغب باشا رئيس شورى النواب وعبد الله باشا رئيس مجلس الأحكام وإسماعيل صديق باشا المفتش – وعقبت الوقائع المصرية على هذا الاحتفال التاريخى بما نورد بعضه فيما يلى:

"إن التلاميذ الذين امتحنوا أبدوا ما يشهد لهم بالفطنة الغريزية والرشد والسداد والاستعداد وأحسنوا فى كل جواب".

احتفال الحكومة المصرية بمدارس الأقباط نقلا عن الوقائع المصرية فى ١٨٧١/٢/١٦ الصفحة الأولى

ما دعينا إليه بمحضر شريف من سادة علماء أخيار، وقادة أرباب اعتبار، وأهال وطنيين وأجانب متفرجين، فما منهم أحد إلا وقد تهلل وجهه بسمات الفرح وانبسط خاطره لما شاهده وانشرح، ولكن لا يسعنا إلا أن نصف لمن غاب عنا فى هذا الامتحان .. فما من تلميذ انتصب للامتحان على التمييز أمام الممتحنين إلا ورفعت راية فضله، وتلقاها هذا المحفل باليمين ... يبدى من اللغة العربية ما يعذب عن قطر الندا، ومن الفرنساوية والطليانية والانجليز والقبطية، ومن الحساب والخط ما يرفع ذكره على المدى . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، وحق الثناء على حضرة المطران وكيل مسند البطريركية الذى أشرق به هذا الامتحان وزعت به هذه الدعوى الاحتفالية، كما نقر بأن نجاح هذه المدرسة إلهية، وامتحان هذه السنة الحالية إنما هو من حسن مساعى حضرة ناظرها القمص فيلتاؤس إبراهيم المحتشم، الجارى فى جميع تنظيمها وجليل ترتيبها على سنن أقوم، وكذلك حضرات خوجاتنا فإنهم مساهمون فى بذر صلاحية غرس تعليماتها على منهج سديد.

ومقالة الجناب المبدع البادع فى اللغات الأجنبية والفنون الأدبية حضرة مصطفى أفندى رضوان معلم الفرنساوية.

وصلاة وسلام على أنبيائه الأخيار الذين هدوا بما بلغوه من الرسائل والآثار والأخبار.

(عن الوقائع المصرية سنة ١٨٧١)

خطبة على فهمى بك من كبار رجال الامتحان بنظارة المعارف فى احتفال مدرستى الأقباط بالأزبكية وحارة السقايين عن الوقائع المصرية فى يوم الخميس ١٦ فبراير سنة ١٨٧١

الحمد لمن جعل العلوم أشرف ما تنفق لها نفائس النفوس والأعمار وتشرق بها فى آفاق البسيطة شموس الأفكار ويتسع بها نطاق العمار والصلاة والسلام على الرسول العربى وكل صفى ونبى.

وبعد فإن أرباب امتحان هذه المدرسة العيسوية الغراء المؤسسة على ما يجده لها بين أخواتها من المدارس المصرية حمدا ويخلد لها ذكراً ها قد أجبنا الدعوة لامتحـــان هؤلاء التلامذة الإنجاب، وكل داع لأمر خيرى أو ساع فيه لاشك أنه يلبى ويجاب وقــد أجرينا على طبق العادة السنوية.

كلمة ختامية

اقتصر على هذا العرض لضيق المقام – وقد وضح سبق أعمال أبى الإصـــلاح فى خدمة الثقافة والتعليم القومى وفى إنشاء المدارس للبنين والبنات واستحداث التعلـــيم العالى الجامعى الحر فى معاهده التى فتح أبوابها لكل طالب وطالبة بالمجان مع مـــنح الكتب أيضاً بالمجان وكان يردد الآية:

(مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا) ولم يفرق فى توزيع نعمة العلم والتعليم بـــين قبطـــى ومسلم وأى ساكن فى البلاد. وظفر لمعاهده بنخبة من الأساتذة والمعلمين والعلماء مـــن مختلف الأجناس والأديان.

وقد أعددنا كتاباً مفضلا لجلائل أعماله سنهديه للأمة .. تحية لذكرى هذا القائـــد العظيم والعالم الفذ والمصلح الموفق الذى لا يجود الدهر بمثله إلا نادراً – والمرجو من الأعماق أن توفق وزارة التربية والتعليم إلى تعميم تدريس تاريخ أبى الإصلاح وأعماله الخالدة فى خدمة العلم والتعليم والوطن والإنسانية وفى الإعداد بإنشاء المدارس الثانوية وتعميمها من بعده فى أرجاء مصر.



حركة البعث أو النهضة الحديثة فى الشعب القبطى
ورائدها الأول كيرلس الرابع

الأستاذ كامل ميخائيل عبد السيد

مقدمة:

حركة البعث أو النهضة فى التاريخ الأوربى الحديث يطلقون عليها بالإفرنجية كلمة Renaissance أى الميلاد الجديد. ويتخذون لها مبدأ تعارفوا عليه هو عام ١٤٥٣ تلك السنة التى سقطت فيها القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية فى يد الأتراك العثمانيين ... مما أدى إلى هجرة علمائها اليونان، فارين من وجه هؤلاء البرابرة من العثمانيين، حاملين معهم ما قدروا على حمله من كتب الفلسفة والعلوم القديمة ... وتشتتوا غربا فى أوربا، حيث نشروا فيها هذه العلوم، وأحيوا التراث اليونانى القديم، فحركوا الأفكار، وأزاحوا غشاوة الجهل عن العقول والأبصار، وحرروها من القيود التى اصطنعتها العصور الوسطى، التى استمرت نحو الألف سنة (٤٧٦ – ١٤٥٣) تنشر عليها ظلمة داكنة حجبت عنها أنوار العلم والبحث الحر الطليق من القيود التى فرضها الجهل، فأبعدهم عن تقصى أسرار الطبيعة وكشف حقائقها وفهم قوانينها، فركدت الحركة الفكرية ركوداً دفعنا لأن نسمى هذه الحقبة من الزمن بـ (العصور المظلمة).

ويطيب لبعض المؤرخين أن يتخذ من كشف أمريكا عام ١٤٩٢ مبدأ لحركة البعض أو النهضة هذه، مع اعتبار أن حادث كشف أمريكا كان له أثر عظيم فى تاريخ الحضارة الحديثة من سقوط القسطنطينية وتشتت علمائها.

هذا مبدأ حركة البعث أو النهضة من أو قل الميلاد الحضارى الجديد فى أوربا. أما فى مصر عامة فقد تأخرت هذه الحركة عن الظهور نحو ثلاثة قرون. إذ يتخذون عام ١٧٩٨ مبدأ لحركة النهضة والتحرر الفكرى عندما عدنا نتصل بأوربا ونأخذ عنها وعن حضارتها ... غير أن الحال مع مسيحى الأمة المصرية كان يختلف عن ذلك. فقد ظهرت طلائع هذا البعث بينهم متأخرة نحو نصف قرن زيادة عن مواطنيهم – أى إلى عام ١٨٥٤ حينما أرتقى الكرسى المرقسى مثلث الرحمات الأب الطوباوى الأنبا كيرلس الرابع المائة والعاشر فى عداد بطاركة هذا الكرسى الرسولى العظيم.

كيرلس الرابع:

كان كيرلس الرابع شخصية فذة نادرة، قلما يجود الدهر بمثلها. فقد قام بثورة روحية واجتماعية وأدبية قلبت الأوضاع البالية التى كان المجتمع القبطى قد أسن فى مائها العطن، وتعفن فى رواسبها الفاسدة قروناً طويلة تحت ضغط سوء نظام الحكم الذى كان قائماً، إذ كان الأقباط يعانون حالة ركود فكرى ويحيون حياة جمود نتيجة ما أنزلته بهم هذه الحكومات العاتية، والعابثة بالكرامات والحريات، من أمثال حكومات المماليك الظالمة، إلى حكومات العثمانية الباغية من مغارم ومظالم، وما أصابهم على يديها من عسف وجور، أضعفا فيهم الروح المعنوية، وضيقا مجال الرزق والعمل المنتج على أيديهم ... فجاء هذا الرجل البار كيرلس ونفخ فيهم من روحه الطيبة – روح الحياة الحرة والإحساس بما هم فيه من تدهور روحى وأدبى ومادى. فأيقظ الوعى بينهم، وأنعش نفوسهم وحرك قواهم المعطلة فهبوا للجهاد والعمل فى حقل الرب.

لقد كان كيرلس رائداً من رواد النهضة فى القرن التاسع عشر. فأخرج الأقباط من ظلمات العصور الوسطى إلى وهج نور النهضة الحديثة. وقام بإصلاحات شاملة مذهلة لبعد مداها من جهة، وما تركته من أثر استمر أعواماً طويلة من جهة أخرى ... فقد دفع عجلة الإصلاح دفعاً قوياً واصلت به السير إلى يومنا هذا، رغم انتكاسنا من بعده وعودة الفوضى إلى مرافقنا مما عّوق سيرنا ورغم عودة الرجعية إلى التحكم فى مجتمعنا الذى كان كيرلس قد شرع فى النهوض به.

لم يقم كيرلس على الكرسى البطريركى أكثر من ست سنوات وبضعة أشهر. قضى شطراً كبيراً منها فى الخارج عندما لجأت إليه حكومة الوالى محمد سعيد باشا وطلبت إليه أن يسعى بنفوذه الروحى للصلح بين مصر بلده العزيز وبين شقيقتها فى الكنيسة أثيوبيا.

الاحتفاء بذكراه السابق:

فى سنة ١٩١٢ احتفلنا بمرور خمسين عاماً على نياحته إحياء لذكراه العطرة واعترافاً وتقديراً لفضله على الشعب القبطى خاصة والأمة المصرية عامة. وفى ٣١ يناير من تلك السنة كتبت جريدة الأهرام معلقة على إحياء هذه الذكرى الكريمة، وهى صحيفة محايدة لا تبغى غير تقدير حقيقة تاريخية لا يسع أى منصف أن يتجاهلها فقالت:

مما لا شك فيه أن ذلك البطريرك العظيم جدير ذكره بأن يردد، واسمه أن يكرم، لأنه كان مصلحاً كبيراً ورئيساً يفهم معنى الرياسة، ويدرك أعباءها وسهامها، ويعرف كيف يقوم بتلك الأعباء الملقاة على عاتقه، لا كالذين يعدون الرياسة منصباً يتألهون فيه، فلا يهمهم إلا أن يذلوا شعبهم لإرادتهم، ويمتصوا دمه ويهملوا شئونه ويضطهدون مصلحيه.

إن البطريرك الذى يحتفل بالسنة الخمسين لوفاته، رقى أمته بفتح المدارس وإنشاء المطابع وبناء الكنائس، ومنع زواج البنات قبل سن الرشد، ومنع الإكراه بالزواج ... وعزل الرهبان إلى الأديرة، وأطلق حرية المرأة، وتفقد رعيته فى مصر والحبشة، وحصر أملاك الأوقاف، إلى آخر ما يذكر المؤرخون القبط من أعماله وأفضاله وفضائله. فالذين يحتفلون به اليوم إنما هم يحتفلون بالمصلح وبالإصلاح. والذين يشاركونهم فى هذا الاحتفال إنما يشاركونهم بإجلال الإصلاح.

وإذا كانت ذكرى المصلح تؤلم الخامل والمفسد من رؤساء الطوائف الشرقية. فلتكن هذه الذكرى التى تبجل وتعلن اليوم مهمازاً فى خواطرهم وليفهموا أن الحياة ليست أكلا وشربا وتحليا بالجواهر، وكنز للأموال، والرياسة ليست تعريض الملابس، ولبس الديباج والأثرة والأنانية والاستبداد والفساد وإرهاق الشعب والجمود به وإهمال شئونه، بل هى عكس ذلك وضده. فمن كان رئيسا ولم يصلح كان ظالما مذموما، بل كان مجرما.

هذا ما كتبته جريدة الأهرام من خمسين عاما فى مناسبة إحياء هذه الذكرى. ولقد رسمت لنا فى عباراتها البليغة صورة ما يجب أن يكون عليها الرئيس الدينى الصحيح، واستمدت خطوط هذه الصورة ومعالمها دون شك مما كان يتحلى به مصلحنا العظيم.

عصر كيرلس الرابع:

ولكى نفهم العصر الذى ظهر فيه رائدنا وراعينا كيرلس ونقدر الظروف التى كانت تحيط به يوم أن سلمناه عصا الرعاية، فتتجلى لنا عظمته على أتمها، وتبرز لنا شخصيته النادرة فى أكمل صورها، يجب علينا أن نسأل: كيف كان حال القبط فى ذلك العصر، يوم أن اختاره الله ليقودنا ويتولى تدبير شئوننا؟ كيف كانوا يعيشون وتحت أى نوع من أنظمة الحكم يخضعون؟

كانت حال القبط الروحية والثقافية والاقتصادية فى ذلك العصر قد تدهورت ونزلت إلى الحضيض. وتناقص عددهم إلى حد كبير. إذ كان بعض رجال العلم فى الحملة الفرنسية وقت إقامتهم فى مصر يقدرونهم بنحو تسعين ألفا من الأنفس فقط ... ولو أن بعض الكتاب يرفع هذا العدد إلى ١٥٠ ألفا ... غير أننا نحس بالمبالغة فى الرقم الأخير. ولهذا نكتفى بالتوسط بين الرقمين، فنقول فى اطمئنان إن عددهم كان لا يزيد عن ١٢٠ ألفا، من مليونين ونصف المليون من جملة سكان مصر وقتئذ، بعد أن كانوا أكثر من ثمانية عشر مليونا وقت الفتح العربى سنة ٦٤٠م.

كان إذا ظهر الثراء أو سمات النعمة على أحدهم، انقض عليه الحاكم وجرده مما يملك. وكان بذلك أنشى ظالميه هؤلاء الحكام من الأتراك الطغاة والمماليك البغاة، وكلاهما غريب عن هذا البلد، لا يحسان بإحساسه ولا يرتجيان لحاله. اغتصباه من أهله بقوة السيف وبسعير نار الهمجية والوحشية التى طبعا بها وكانت من طبيعتهما.

☆☆☆

تولى عباس الأول ولاية مصر سنة ١٨٤٨ فأذاق المصريين عامة والأقباط خاصة الأمرين. وكان حكمه استمراراً للحكم التركى البغيض بكل مساوئه ومفاسده. وكان يكره المسيحيين كرهاً شديداً. فهيأت له أحلامه وروحه الشريرة أن يخرجهم من البلاد، وهم أصحابها الأصليون المتأصلون.

ولكنه أراد أن يختلق سببا وينتحل علة يستند عليها للوصول إلى هذه الغاية. فأرسل يوما وراء شيخ الإسلام المرحوم الشيخ الباجورى وطلب إليه أن يصدر فتوى بذلك ... ولكن الشيخ الكريم أبى أن يجاريه أو ينزل على رغبته. ورفض ما طلب منه، وآثر أن يواجه غضب الوالى الغاشم عن أن يواجه غضب الله. وبذلك استجاب لداعى الضمير والحق والوطن...

وقد سجل هذا الحادث مؤرخنا الكبير المرحوم ميخائيل بك شاروبيم فى الجزء الرابع من كتاب "الكافى" فقال:

وكان (عباس) شديد البغض للنصرانية: ناقما على النصارى، لاسيما منهم أهل البلاد، فاخرج الكثير منهم من خدمة الدولة، ومنع استخدامهم وبالغ فى تذليلهم. وأتى للمباشرين (أى جباة الضرائب) منهم بطائفة من الأجداث الأغرار وأبناء المكاتب،

فجعلهم فى وظائفهم، وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم. وضرب لهم أجلا. فأختل نظام المصالح الديوانية، وتطرق الفساد إلى جميع الأعمال، وكسدت حرفة القلم وتحقرت ...

قيل، واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر إخراجهم من وطنهم وتبعيدهم إلى أقاصى السودان.. وأرسل إلى الأستاذ الشيخ الباجورى شيخ الإسلام يومئذ، يسأله فى ذلك. فلما جلس الشيخ قال له:

"أسألك أمراً لا تكتمه على، وقال ما هو يا أمير؟ قال: أنى أقصد تبعيد النصارى كافة عن بلادى ومقر حكومتى إلى أقصى السودان! وقد دبرت لذلك تدبيراً. فما قولك؟؟ قيل فقطب الشيخ وجهه. وقال أى النصارى تعني يا أمير؟ إن كنت تعني الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ ولم يستول عليها خلل حتى تقدمه بمن هم فى ذمته إلى اليوم الآخر!!. وإن كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين فى بلادك، فإنى أخاف إذا فعلت بهم شراً أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيس ... قيل، فغضب عباس باشا ونادى أتباعه: خذوه عنى!! فقام الشيخ وهو يقول أى ويعلم الله. أى ويعلم الله!!".

وكانت هذه القصة موضوع يومية من اليوميات التى يكتبها المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى جريدة "السياسة الأسبوعية" التى كانت تصدر فيما بين "١٩٢١ – ١٩٢٥".

وقد سجلها أيضا الأستاذ محمد أمين حسونة فى كتابه "كفاح الشعب" ولكن بصورة تفيد أن عباسا فصل فعلا جميع موظفى الحكومة الأقباط أو أكثرهم. وأصدر فعلا الأمر بإجلاء النصارى عن مصر، لولا تدخل المرحوم شيخ الجامع الأزهر. وإليك نص روايته:

"وكان يبغض النصارى، فأخرج منهم من كان يتولى منصباً حكومياً. ونالهم أذى واضطهاد شديد .. ولما ثار غضبه عليهم أصدر أمراً بإخراج جميع المسيحيين من الأراضى المصرية ونفيهم إلى السودان. فجاءه الشيخ الباجورى شيخ الجامع الأزهر. وكانت تربطه به صلة سابقة. إذ كان عباس يشهد دروسه فى الأزهر ويستمع إليها، رغم أنه لا يعرف العربية.

وقال الشيخ: الحمد لله الذى لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ، ولم يسئول عليه خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته إلى اليوم الآخر .. فلماذا هذا الأمر الذى أصدرته بنفيهم؟.. وإذا كنت تعنى النصارى من الإفرنج النازلين بلادنا فإنى أخاف إن فعلت بهم شراً، أن يحل ببلادنا ما حل بالجزائر على أيدى الفرنسيس.

"فغضب عباس وقال لأتباعه خذوه عنى!! فقال الشيخ وهو ينهض أى ويعلم الله!! أى ويعلم الله!!" لقد لقن شيخ الإسلام الأستاذ الشيخ الباجورى رحمه الله هذا الغر ومن كان على شاكلته درساً فى الدين الصحيح فالله لا يرضى فى أى دين من الأديان بأن يكون الشر والحقد والنوايا السيئة أساسا للمعاملة بين الناس.

☆☆☆

كان هذا حال الأقباط يوم أن تولى كيرلس رعايتهم .. ولكن الله لا ينسى شعبه مادام الشعب إلهه. فلما تأزمت أحوالهم واشتدت البلية بهم ضجوا بالضراعات ورفعوا الابتهالات لرب السماء! فصعدت إليه تعالى أصوات أنينهم. فدبر لهم هذا الراعى الأمين ليتولى زمامهم ويدفع عنهم بقوة مسيحه اضطهاد هذا الطاغية عباس الأول الذى أوقع بموظفى حكومته من القبط الأبرياء. وطردهم من أعمالهم. وقطع أرزاقهم وأرزاق عيالهم. لغير ما ذنب أو علة إلا نصرانيتهم كما رأينا. وهم بعد ذلك بإخراجهم من ديارهم وتشريدهم فى مجاهل السودان وفيافيه للقضاء عليهم.

أعتلى كيرلس الرابع الكرسى المرقسى فى ١٧ يونيه سنة ١٨٥٤ وقت أن كان الشعب القبطى يعانى هذه المحنة القاسية على يد حاكميه كما سلف .. ولكن لم يمض عليه شهر واحد حتى أزاح الله من طريقة هذا الوالى الظالم فاغتاله غلمانه فى ليلة ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤ فى قصره ببنها. وحمل خفية إلى قبره بغير تكريم أو تبجيل. ودون أن يهتم أحد بالمطالبة بدمه. أو يبحث عن قاتليه. أو يجرى تحقيق رسمى فى أسباب اغتياله .. وهذا أمر فى غاية الغرابة - حاكم البلاد يقتل. ثم يدرج فى الأكفان ويوارى التراب دون تحقيق أو محاكمة للقاتلين.

لم يكن كيرلس رجل دين فحسب، بل كان رجل إدارة وسياسة. وقد لمس فيه سلفه الصالح الأنبا بطرس السابع أو الجاولى، صفات الكياسة واللباقة من فجر رهبنته وخدمته، فوثق به وعينه على حداثة سنه رئيسا لديره - دير الأنبا أنطونيوس - ولم يتجاوز العشرين من عمره بكثير. وكان اسمه القس داود.

ولما وقع الخلاف بين مطران أثيوبيا القبطى الأنبا سلامة وبين شعبه على مسائل عقائدية. وتفاقم النزاع بينهما، لم يجد البطريرك الأنبا بطرس من هو أجدر من القس داود ليحل هذا الخلاف ويسويه، ويعيد السلام والهدوء إلى الكنيسة الأثيوبية. فأوكل إليه هذه المهمة الدقيقة والشاقة معا ... والتى كانت تطلب المعرفة الروحية والمقدرة السياسية. وقد نجح فى مهمته أتم نجاح .. كما استطاع أيضا تسوية الخلاف الذى أثاره بعض الرهبان الأثيوبيين فى القدس حول ملكية دير السلطان. فاستطاع أن يقنع الأثيوبيين بحق القبط فى ملكيته. وقضى القس داود فى هذه الرحلة نحو الثمانية عشر شهرا.

☆☆☆

لم يكتب لنا كيرلس أو معاصروه بيانا بما رسمه لنفسه عندما جلس على كرسيه، أو يعلن فى حفل سيامته عن خطته الإصلاحية، أو ما ينتوى أن يقوم به وما يهدف إليه من أغراض يعتزم تحقيقها ... ولكننا نتبين من تصرفاته ومعالجته لشئوننا أنه كان يعمل بانتظام وترتيب، ولو لم يعلن ذلك، وأنه يسير وفق خطة رسمها لنفسه والتزم بها. إذ لم يكن يرتجل الحلول ارتجالا، ولم نلحظ اضطرابا أو خلخلة فى أى عمل يشرع فيه.

كانت مهمته الرعوية شاقة، والحمل الذى وضعته الظروف على كاهله ثقيلا ... كان عليه أن يضمد تلك الجروح الغائرة التى أثخن بها الظلمة جسم الشعب القبطى ويداويها أولا ... وأن يعمل على إعادة الصحة لهذا الجسم السقيم الذى أصابه الهزال من كثرة ما عانى وتحمل من بطش الغاشمين، حتى يستطيع أن يقف على قدميه ويسير فى ركب الحياة الحرة ويعمل للإنتاج ... لقد كان أمامه "الحصاد كثير، ولكن الفعلة قليلون" فى حقل الرب. غير أنه بما حباه الله من نعمة وبصيرة ثاقبة وعزيمة ماضية طلب (من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده). ووضع يده على المحراث وسار به إلى الأمام...

لم يكن طريق الإصلاح معبداً سهلا أمامه. بل كانت تملأه الأشواك وتقوم فيه العوائق والعثرات – من الداخل ومن الخارج ... فمن الداخل كانت الرجعية المثبطة للهمم والعقلية المتحجرة التى استنامت للذل وطابت لها حياة الركود. تشكك الناس فى كل ما هو جديد أو حديث .. ومن الخارج كان الحكام الذين استمرأوا هضم حقوق هذا الشعب واستضعفوه فامتصوا دمه.

أما موقفه بإزاء الفريق الأول وهم الرجعيون وأنصار القديم فقد تـذرع معهـم بالحزم والصبر ومضى فى مشاريعه الإصلاحية بكل قوة وشجاعة .. ولما حـاولوا أن يشوهوا مقاصده التعليمية والثقافية باعاقتة عن فتح المدارس وبناء الكنائس لم يعـرهم التفاتا..

زعموا أنه يعلم أبناء القبط ليدخلهم الجيش، لكى يكونوا وقوداً للحروب التى كان يتورط فيها الولاة. وقام معلمو الكتاتيب يمرون بالبيوت يحرضون الأهليين على عـدم إرسال أبنائهم إلى المدارس الحديثة التى أنشأها كيرلس ... وزعموا أنه يسـرف فـى أعمال البناء ويبعثر المال الذى اكتنزه سلفه مدة رياسته الطويلة التى جاوزت الاثنـين والأربعين عاما، غير أنه كان مؤمنا بأهدافه واثقا من فائدة مشروعاته. ولهذا لم يعبـأ بتخرصاتهم وقال لهم: "فيما يصرف المال إذا لم يكن فى البناء والتعمير وعمل الخيـر لصالح الشعب؟!".

تولى حكم مصر محمد سعيد باشا بعد مصرع ابن أخيـه عبـاس الأول. وكـان الأخير يسعى قبل وفاته لنقل الموارثة إلى إبنه الهامى باشا اعتماداً على تأييد السـلطان عبد المجيد، رغم أن الولاية كانت من حق سعيد بوصفه أرشـد أسـرة محمـد علـى حينذاك، وكنص للفرمان المنظم للوراثة الصادر من السلطان لمحمد على وكان لالهامى بن عباس أيضا أنصار فى مصر كثيرون من كبار رجال الدولـة الأتـراك. غيـر أن محمد سعيد وقد كان فى الإسكندرية أسرع إلى القاهرة واستطاع أن يحمل المعارضين على قبول ولايته، وخاصة لأن الهامى باشا كان متغيبا فى انجلترا.

وكان لضعف مركز الوالى الجديد (الناشئ من مزاحمة الهامى لـه) أثـر غيـر مباشر فى أحوالنا الطائفية فى أول حكمه، لأنه أراد أن يرضى الشعب ويكسب ثقتـه. فقال ما لم يقله غيره ممن تولوا شئون مصر من أسرة محمد على إنه "مصرى لا تركى".

أضف إلى ذلك أن سعيداً كان ألين عريكة وأقل جرأة فى الشر من سـلفه. وقـد تظاهر بالميل إلى سماع شكاة الشاكين والأخذ بناصر المظلـومين فمـا أن اسـتقرت الأحوال بالوالى سعيد حتى تقدم إليه كيرلس الرابع:-

(١) وعرض عليه ظلامة الشعب القبطى وما أصاب الموظفين القبط بـإخراجهم من خدمة الحكومة فبادر برفع الغبن عنهم وأعاد من فُصل منهم فى عهد سلفه. وكانت هذه باكورة خدمات كيرلس الرابع لرفع الحيف عن أبنائه وإعادة الطمأنينة إلى قلوبهم.

(٢) ثم شكا إليه مما يلقاه القبط من عنت وإحراج لا مبرر لهما بعدم التصريح لهم ببناء الكنائس أو ترميمها أو برفع الصلبان على قبابها. مما يجرح ويؤذى نفوسهم الطيبة فاستجاب له.

(٣) وكان الأقباط مبعدين عن الخدمة العسكرية إذ كانت الحكومة تعتبرهم غير جديرين بشرف الجندية ومميزاتها. فسعى كيرلس لدى الوالى محمد سعيد لتغيير موقف الحكومة بإزاء شباب القبط وتجنيدهم أسوة بمواطنيهم. فقد كان الأقباط دائما أخلص أبناء مصر وأبرهم بها وأشدهم غيره على مصالحها، وحرصاً على سلامتها وأمنها وليس من الإنصاف أن يحرموا من شرف الدفاع عنها.

وقد سبب هذا السعى مضايقات كثيرة للأنبا كيرلس من قصار النظر بما أثاروه عليه من حملات النقد والاستنكار لأن الجندية كانت مكروهة من عامة المصريين لاستخدام الجند فى تحقيق مطامع أسرة محمد على وإشباع شهواتهم الجامحة ... ولكن كيرلس كان أبعد نظراً من هؤلاء، لأن الواجبات يقابلها حقوق. فإذا ما أعفوا من أداء هذا الواجب الوطنى الجليل كان ذلك انتقاصا لحقوقهم الوطنية وإنكارا لبنوتهم لأمهم مصر، إذ يصبحون وكأنهم جالية أجنبية فى بلادهم. وفى هذا ما فيه من امتهان لكرامتهم الوطنية وعزتهم القومية.

وحدث يوما عندما اشتدت الحملة على البطريرك أن دخل عليه أحد ذوى النفوذ وأراد أن يتودد إليه لأمر كان يريد قضاءه عنده، فعرض عليه أن يسعى لإعفاء أبناء الأقباط من الخدمة العسكرية حتى يستطيع أن يخمد صوت المعارضين له. فغضب كيرلس وقال لمحدثه: "أغرب عنى!! الأقباط ليسوا أقل وطنية من سواهم من أهل مصر وحرمانهم من الخدمة العسكرية هو إذلال لهم وحرمان من حق وواجب مقدس".

(٤) وكان مركز الدائرة فى إصلاحاته العديدة يقوم على التعليم ونشره بين جميع طبقات الشعب وإيقاظ الوعى بين أفراده.. فعلّم الرهبان عندما كان رئيسا لدير الأنبا أنطونيوس. وأنشأ مكتبة ومدرسة لهم فى الدير.. ولما سيم بطريركا فتح المدارس لتعليم البنين والبنات على النظام الأوربى الحديث، حيث كانت تعلم اللغات الحية المختلفة. وعنى بإحياء اللغة القبطية وأمر بتعليمها إجباريا فى كل مدرسة. وأهتم بتعليم الكهنة وتثقيفهم. وأبتاع مطبعة لطبع الكتب اللازمة وهكذا. فبعث النشاط وحرك الهمم وبث روح العمل فى كل مرافق الطائفة. ومما يلاحظ أن المؤسسات التى أقامها لم يطلق على واحدة منها اسمه وهذا دون شك مبالغة منه فى نكران الذات.

(٥) ومن أهم الإصلاحات الاجتماعية التى وجه التفاته إليهـا، تحريـر المـرأة وإعطاؤها حقها من التعليم والتثقيف، وحماية كرامتها من الامتهان بمنع الإكـراه فـى الزواج أو زواج الفتيات قبل سن الرشد. وكان أول من سن سنة أخذ اعتراف الزوجين بالرضا والقبول قبل الزواج. ورسم عمل العقد الإبتدائى أو "الجابانيوت" قبل الإكليـل، حتى يتأكد من الوئام والاتفاق بين الزوجين قبل الإكليل الذى لا يمكن فصمه .. وكـان يتشدد فى الطلاق إلى حد المنع القطعى.

(٦) والواقع أن كيرلس كان لا يدع فرصة تمر دون أن يعمل عملا طيبا لصالح شعبه. وكان من الصعب على الإنسان أن يتملقه. لأنه كـان لا يتـردد فـى انتهـار الوصوليين والمتملقين والنمامين مهما كانت مراكزهم أو صفاتهم. فهابه الجميع وأجلوا قدره .. وكان يسود مجلسه الجد والوقار.

وكان رسول محبة وسلام بين الكنائس الأرثوذكسية كاليونان والأرمن والروس. فنشأت بينه وبين رؤسائها صداقة ومودة، حتى أنهم كانوا إذا ما سافروا إلـى الخـارج أوكلوا إليه تدبير شئون كنائسهم.

(٧) وقد ضرب بنفسه مثلا حيا للوطنية الصادقة والتضحية، وقدم الدليل على أنه الجندى المجاهد فى خدمة بلاده. فلما دعاه داعى الخدمة لب الدعوة وحمل الرسالة التى كلفه بها الوالى محمد سعيد لفض الخلاف بين مصر وأثيوبيا. فكان جنديا وسفيراً معاً.. خرج فى سنة ١٨٥٦ ليدفع عن بلاده الضر. ونشأ هذا الخـلاف نتيجـة مصـادمات ومناوشات وقعت بين جنود البلدين على الحدود، وكادت الحـرب أن تقـع بينهمـا .. فاستدعى الوالى البطريرك كيرلس وأرسله مبعوثا ورسولا من قبله لـدى إمبراطـور أثيوبيا لفض هذا الخلاف، بما للبطريرك من نفوذ روحى فى أثيوبيا. فقام بهذه المهمـة خير قيام. وتعرض فى سبيل انجازها للموت. إذ وشى به بأنه جاء ليتجسـس لحسـاب مصر. فاعتقله الإمبراطور وكاد أن يبطش به لولا أن تكشفت الحقيقة له. فاعتـذر لـه وقبل وساطته، وإعادة لمصر مكرما مجبور الخاطر. ولذلك لم نكن مغالين عندما قلنـا عنه أنه كان رجل دين وسياسة.

ومما يؤسف له أنه جوزى على ولائه وخدماته هذه جزاء سنمار. فعندما عاد مـن أثيوبيا فى سنة ١٨٥٨ بعد احتجازه هناك مدة عام ونصف تقريبا، قوبـل مقابلـة شـعبية عظيمة. وخاصة عندما قبل دعوة أحد أبنائه فى حارة السقايين. فسار الشعب، فى موكـب

حافل تتقدمه الصلبان يرفعها الكهنة والشمامسة وهم يرتلون الأناشيد الدينية. فأثــار ذلــك حفيظة الوالى سعيد. وبدأت عقارب الغيرة والحسد تدب فى صدره من هذا الرجل البــار. وانفتح فى وجه الوشاة والدساسين الباب ليدخلوا منه إلى قلبه المريض. فعوّل على التخلص منه بالطريقة التركية المعروفة، وهى دس السم له فى القهوة، فذهب إلى الأمجاد السماوية. وهكذا استشهد كيرلس الرابع فى يوم الأربعاء ٣٠ من يناير سنة ١٨٦١ بعد أن جلس على الكرسى البطريركى ١٣ يوما و ٧ شهور و ٦ سنوات.

ولا يفوتنا هنا أن نقول إن الأنبا بطرس الأول، السابع عشر فى عداد البطاركــة (٣٠٢ – ٣١٢) الذى استشهد على يد فلاديانوس، لم يكن خاتم الشهداء، بــل إن خــاتم الشهداء هو كيرلس الرابع على يد الوالى محمد سعيد فبذل نفسه حقا عن الخراف شأن الراعى الصالح مع رعيته نيح الله روحه.

الخلاصة: إن القوة التى دفع بها كيرلس عجلة الإصلاح مازالت تحركها وتديرها ولم تفقد طاقتها بعد. إنها تسير بقوة الدفع التى دفعها بها. وإنا لنؤمل أن نترسم خطــاه ونسير فى ظل تعاليمه تحت رعاية سميه وخليفته العظيم قداسة البابا كيرلس الســادس وكنف زعيم العروبة الرئيس جمال عبد الناصر وصحبه جميعا وفقهــم الله ومــد فــى حياتهم.



جهادك صار فخر العالمينا

شعر الأستاذ رياض سوريال*

جهـــادك صـــار فخـــر العالمينـــا — وذكـــرك خالـــد يطـــوى القرونـــا
وذكرك رغم أنـــف المـــوت يبقـــى — وتغـــدو فـــى عـــداد الخالـــدينا
فإنـــك جئـــت للـــدنيا مثـــالا — لأبطـــال الكفـــاح النادرينـــا
قضيت العمـــر فـــى ورع وتقـــوى — شـــبيه الأنبيـــاء المرســـلينا
وصـــنت لبيعـــة الأقبـــاط مجـــداً — وشـــأن الليـــث أن يحمـــى العرينـــا
أتينـــا فـــى احتفالـــك بعـــد قـــرن — نـــردد فضـــل خيـــر المصـــلحينا
فأشرق من ســـماء الخلـــد وأنظـــر — مـــن الفـــردوس نحـــو المحتفينـــا
تجلـــى القـــبط فـــى أبهـــى وفـــاء — وهـــل ننســـى صـــنيع المحســـنينا؟
فإنـــك كنـــت قائـــدنا المجلـــى — وإنـــك كنـــت رائـــدنا الأمينـــا
أضـــأت لنـــا عصـــورا مظلمـــات — بفـــتح مـــدارس للناشـــئينا
وأدركـــت الفتـــاة العلـــم لمـــا — ســـلكت بهـــا ســـبيل العارفينـــا
طلعـــت بمعهـــد يمحـــو الـــدياجى — فأنـــت ســـبقت كـــل المصـــلحينا
وهـــذى البيعـــة الكبـــرى دليـــل — علـــى جهـــد الرجـــال العاملينـــا
ولـــيس المجـــد أقـــوالا ولكـــن — بناة المجـــد مـــن بهـــروا القرونـــا
فكنـــت البـــدر يقـــتحم الليـــالى — وكنـــت النـــور يهـــدى الســـالكينا
وكنـــت أبـــا اليتـــامى البائســـينا — وكنـــت النبـــع يـــروى الناشـــئينا

☆☆☆

أردت لمصـــر كـــل الخيـــر حتـــى — تصـــون لهـــا جـــلال الســـالفينا
فكنـــت ســـفيرها عنـــد النجاشـــى — وكـــدت لنصـــرنا تلقـــى المنونـــا
فقـــد ألقـــى العـــداة شـــباك غـــدر — فمـــا أجـــدت شـــباك الغادرينـــا
وأحـــبط كيـــدهم ربـــى وجـــاءت — عنايتـــــه تحـــوط المخلصـــينا

☆☆☆

* (١٩١٢ – ١٩٨٦) ليسانس فى اللغة العربية، ليسانس فى التاريخ، دبلوم معهد الدراسات الشرقية، دبلوم معهد الدراسات العليا.

يسرك أن ترى مصر استقلت / ونلقى اليوم ناصرها الأمينا

يسرك أن ترى الوطن المفدى / بناصره يرى النصر المبينا

على الدنيا نتيه به فخارا / ونعلو للسماء مطاولينا

ولو شئنا لأدركنا الثريا / وسرنا للكواكب فاتحينا

لناصرنا نكون مناصرينا / ونمضى فى الجهاد مظفرينا

ونطوى العمر فى الدنيا كراما / يحار الذل كيف يجول فينا

تجلى القبط فى أقوى إتحاد / تراهم إخوة للمسلمينا

تبادلنا المحبة والتآخى / وصار الود والأخلاص دينا

☆☆☆

أبا الإصلاح أنت بعثت فينا / عزائم كالمهند لن تلينا

فمرقس فى السما يشدو فخارا / بسبقك فى مجال العاملينا

ترى الأقباط بالعلياء هاموا / وساروا للعلا متسابقينا

تراهم سادة الدنيا قديما / وما زالوا كراما ناهضينا

أليس القبط من أبناء خوفو / وأبناء الكماة الفاتحينا؟

لقد هزم الفراعنة البرايا / وكانوا للممالك قاهرينا

سميتك فى الجهاد اليوم يمضى / ويرفع شأننا فى العالمينا

فسر فى محفل الأبرار وأنشد / بفخر فى جموع المؤمنينا

أرى فى مصر بعدى خير حبر / أرى المتوحد الحبر الأمينا

أراد الله للأقباط نصرا / فأهدى بيعة الأقباط مينا



كلمة القمص إبراهيم عطية*

مدير كلية البابا كيرلس السادس اللاهوتية

فى هذه الساعة التى تتلاقى فيها ذكريات المطوب الذكر الخالد الأثر البابا كيرلس الرابع بنفحات قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس. وفى هذا العيد المئوى الذى تحتفل فيه الكنيسة بجهود السلف وتضحيات الخلف، وتتعانق فيه مفاخر الماضى بمشاعر الحاضر – نعم – وفى هذا الاستعراض الرائع، يفتتح المبنى الاكليريكى الجديد باسم كلية الأنبا كيرلس السادس اللاهوتية اعترافا بفضله عليها وتشجيعه لها حتى تبوّأت المركز اللائق بها بين المعاهد والكليات اللاهوتية وخلفت بكفاحها المتواصل وأثرها البين أمام المنصفين مدرسة الإسكندرية ذات الشهرة العالمية التى تخرج فيها أئمة المفكرين وفقهاء العلم والدين.

ما أشبه يومنا بالأمس حين كان الخطباء فى أسواق العلم يتبارون بشعرهم ونثرهم وسحرهم فى تصوير عظمة الأبطال وجلائل الأعمال، ليضعوا إمام الشعوب المثل العليا. ولكن حمداً لله الذى أخرج لنا الليلة من القوالب اللفظية مبانى الاكليريكية فجارينا العلم الذى يقدم صوره اليوم ناطقة متحركة.

وقد رأى قداسة البابا كيف أضيف إلى أفضاله الغامرة فضل جديد، كما رأى مجلسنا الملى كيف سجل ضمن جهوده الطويلة وتضحياته المتواصلة هذا العمل المجيد.

ومن حسن التوفيق أن يكون ضيف الشرف اليوم هو السيد وزير التربية والتعليم. ومن كمال التنسيق أن يتألق فى سماء حفلنا كمالان: كمال التربية وكمال التموين.

إن إفتتاح المعهد اللاهوتى الجديد اليوم هو إيذان بمضاعفة الجهد لتتجاوب نهضة الكنيسة مع نهضة جمهوريتنا العزيزة التى يقودها الزعيم الرئيس جمال عبد الناصر. ولا شك أن مراسى الإصلاح شورى وجهاد وبذل وهذه هى:-

الديمقراطية التى فى رحابها يتحرر العقل

والاشتراكية التى فى تسامحها يطمئن القلب

والتعاونية التى فى مراحمها تهنأ النفس

* (١٩٠٠ – ١٩٨٤) سيم كاهنا على كنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا فى ٢٨ /١٩٣٨/٢. عمل مديرا للكلية الإكليريكية بالقاهرة طوال الفترة (١٩٥١ – ١٩٦٣).

لقد كانت هذه مبادئ صاحب العيد المئوى الذى أسس مدارس البنـــين و البنـــات وشجع الفنون والصناعات وكان مواسيا فى المصائب والملمات. وقد كـــرم الله اليـــوم ذكراه، وجاء خلفه العظيم البابا كيرلس السادس يحيى مبادئـــه ويؤيـــد بالعمـــل قولـــه. فنهضت الكنيسة فى شتى نواحيها بفضل معاونة أصحاب النيافـــة الإجـــلاء المطارنـــة والآبـــاء.

ولا ننسى أن نذكر فى الختام جهود المجالس الملية والهيئات الدينيـــة والجرائـــد والمجلات القبطية وغيرها وشعبنا الكريم شيبا وشبانا.

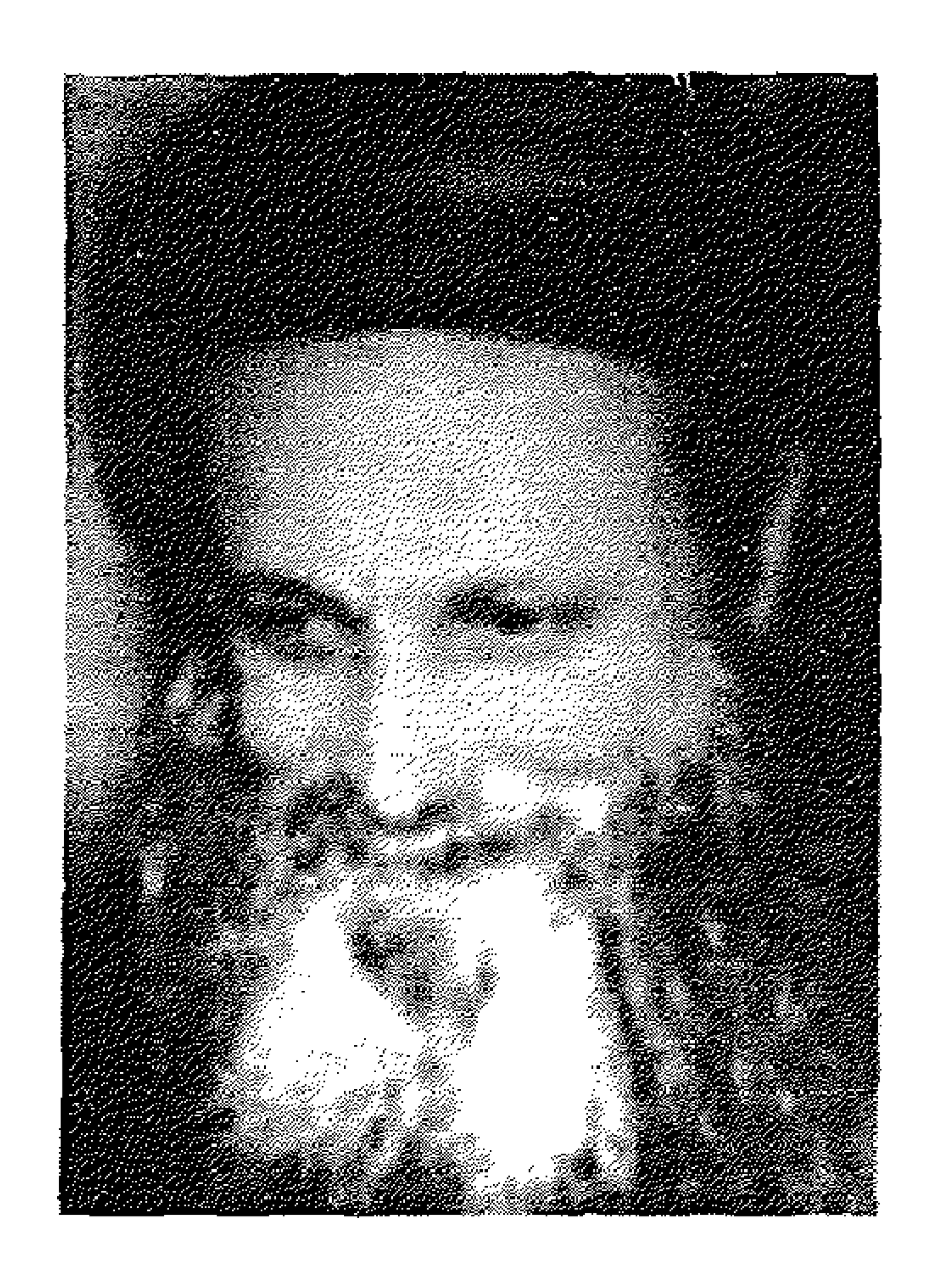
وفقنا الله تعالى إلى ما فيه الخير وألهمنا من فضله الحكمة والسداد آمين.

حفل الاسكندرية

وقد أقام مجلس ملى فرعى مدينة الإسكنــدرية حفلا بالكنيســة المرقســية بالإســكندرية فــى الثلاثين من ينايــر عام ١٩٦١ تخليــداً لهــذه الذكرى أيضا. حيث ألقيت كثير من الكلمات التى تشيد بالأعمال التى قام بها هذا البابــا المصــلح الكبير.

النهضة الثقافية الحديثة فى مصر وارتباطها بأبى الإصلاح

القس بيشوى كامل*



إن اهتمامنا بذكرى الأنبا كيرلس الرابع له سبب جوهرى فالأنبا كيرلس هو الذى دفع عجلة الإصلاح للأمام، وعلى الأقباط عندما يفكرون فى الإصلاح أن يدرسوا درساً عميقاً ظروف هذا الرجل العظيم وجهاده وأعماله، فمدارسه التى بناها مازالت بحجارتها قائمة إلى اليوم. وإذا أردنا أن نزيد فى ارتفاعها، فعلينا أن نبنى على الأساس الذى وضعه هذا الرجل.

وموضوعنا هو الحركة الثقافية، ونشر الثقافة فى نظر رجال التربية ليس مقصوراً على التعليم فى المدارس، بل هناك مجالات أخرى كثيرة، مثل الكنيسة والمنزل والمحلات العامة والمهن المختلفة، وهذه كلها تشمل المجتمع بأسره، الرجل والمرأة والشاب والشابة، فكان على هذا المصلح العظيم أن يطرق هذه النواحى كلها.

وبما أن الأقباط هم جزء من الدولة يعملون فى نطاق الكل ومع الكل وبالكل، لذلك كانت حركات الثقافة التى قام بها كيرلس الرابع لها أثرها فى كل نواحى الدولة فهو رائد تحرير المرأة فى مصر كلها، وقاسم أمين أتى على هدى هذا الرجل. وليس أدل على ذلك من أنه أول من فتح مدرسة للبنات فى مصر. وأثر مدارسه عم كل الدولة، والمنصفون من غير المسيحيين لا ينكرون على هذا الرجل أثره فى تغيير ثقافة الدولة، ويذكر الدكتور طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر أثر الأقباط فى حركة التعليم الحديثة.

---

* (١٩٣١ – ١٩٧٩) سيم كاهنا على كنيسة مارجرجس باسبورتنج بالإسكندرية فى ١٩٥٩/١٢/٢ .

ولقد طرق كل الميادين: المدارس للصغار، وحلقات الدرس لرجال الدين، والتأليف والترجمة والطبع للجميع.

إن المجهود الذى قام به الأنبا كيرلس الرابع رغم قصر أيامه ليتضاءل أمامه جداً مجهود الدولة فى أيام سعيد باشا. ونرى لزاماً علينا أن نستعرض الحركات الثقافية فى أيامه ...

لقد كان حكام مصر فى كل العصور الماضية لا يهتمون إلا بجمع المال ويهملون شئون التعليم والتربية، وكادت تتعرض الثقافة المصرية للدمار بعد حرق مكتبة الإسكندرية، لولا وجود بقية الأقباط تجرى فى دمائهم الثقافة المصرية، وكانت أيام المماليك والعثمانيين أيام كلها جهل وظلام، إلى أن أتى محمد على فبدأ بفتح المدارس سنة ١٨٢٦، فأنشأ مدرسة الطب والمهندسخانة والألسن والبحرية.

واستمر هذا الحال إلى أيام سعيد الذى بدأ فى سنة ١٨٥٤ فى غلق المدارس، إذ ألغى المهندسخانة وأرسل ناظرها لقيادة جيوشه فى الخارج، فى هذا الوقت تسلم الأنبا كيرلس الرابع شئون الأقباط فى سنة ١٨٥٣ .. أى أنه عاصر سعيد باشا.

لذا يقول المرحوم جرجس فيلوثاؤس: "لقد ظهر هذا المصلح العظيم فى إبان الظلم والجهل، وكانت حياته عرضة للبوار فى كل آونة".

وينبغى أن نذكر بالفخر لهذا الرجل أن سعيد باشا كان يغلق المدارس وكيرلس الرابع كان يفتحها للمصريين جميعاً – رغم الصعوبات التى واجهته.

أهدافه من الحركة التعليمية:

(١) خلق طبقة من الموظفين المتعلمين الذين يقومون بأعباء الخدمة فى الدولة ويذكر بالفخر أن كثيراً من المصريين الذين خدموا فى أول هذا القرن كانوا من خريجى المدارس القبطية.

(٢) الثقافة العامة: قال عنه يعقوب بك نخلة "وسمعته يقول مرة لأحد الأساتذة: إنى أنتظر بفروغ الصبر استعداد تلامذة المدرسة لتلقى العلوم العقلية كالمنطق والبيان وغيرها من العلوم التالية. إلخ".

(٣) الوقوف فى وجه حركات الإرساليات الأجنبية: ففى هذا العصر دخلت الطوائف وبدأت بفتح المدارس. ورأى هذا الرجل بثاقب فكره مواجهة هذا التيار.

المدرسة الكبرى:

ما هى خطته فى بناء المدرسة؟

اشترى المنازل القديمة فى أفضل موقع فى القاهرة فى الدرب الواسع واختاره لها أقدر المدرسين وأفضلهم. وكان التعليم بالمجان وكان يصرف الأدوات للطلبة مجاناً.

وكانت المدارس للجميع دون تمييز بين دين أو ملة، بينما كان سعيد باشا يرفض دخول المسيحيين فى مدارسه.

كان يتفقد المدرسة كل يوم. وكان يحضر الحصص ويقول للتلاميذ فى تواضع: "لقد استفدت معكم اليوم فائدة كبيرة لم أكن أعرفها من قبل".. وكان يكافئ المتقدمين ويعاقب المتأخرين.

صعوبة النهضة العلمية فى أيامه:

(١) جهل الدولة، وخوف الباشا من تعليم المصريين، وذلك ما عهدناه فى الحكام الجهلاء المستبدين.

(٢) تأخر رجال الأكليروس ثقافياً: قال كاتب لبنانى (عن كتاب بوار الإصلاح): "أقام الأقباط مدرسة عظيمة يدرسون فيها اللسان القبطى والتركى والفرنسى والأنجليزى والعربى – وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة التى بناها البطريرك كيرلس القبطى، وأنفق عليها ما يقرب من ٦٠٠ ألف قرش، وهذا، بخلاف ما نعهده فى بلادنا من رجال الدين وأوجه الشعب".

(٣) مقاومة البعض له من ناحية تعليم البنت وخروجها للشارع.

(٤) وقد قام العرفاء بمحاربة المدرسة وعمل الدعاية ضدها خوفاً على كتاتيبهم، فأخذوا يقنعون أولياء الأمور بخوفهم على أخلاق أبنائهم... إلخ.

ولكن كل هذه الصعوبات لم تقلل من همة هذا الرجل العظيم، ففتح مدارس أخرى بالأزبكية، ومدرستين بحارة السقايين، وبلغ نشاطه إلى الأقاليم فأرسل الايغومانوس فيلوثاوس إلى المنصورة ليفتح مدرسة هناك.

وقال المرحوم جرجس فيلوثاوس: "ولم يدخر وسعاً فى سبيل ترقيـة المـدارس وإعلاء منار العلم بتأسيس مدارس البنين والبنـات فى زمن لم يكن للعلم فيـه رواج ولا للأدب مجال".

لقد سمى بأبى الإصلاح لأنه أحدث انقلاباً عظيماً فى حالة الأمة العلمية والدينية.

تقدير واعتراف:

ولقد عرف إسماعيل باشا فضل هذا الرجل بعد وفاته ومقدار الخدمة الوطنية التى قام بها، فاستدعى الأنبا ديمتريوس خلفه، وأبان له ارتياحه لهذا العمل، وما قامـت بـه المدارس القبطيـة من الخدمات، وأنعم عليه بـ ١٥٠٠ فدان لتوسيع نطاق المدارس – ورتب له ٢٠٠ جنيه سنوياً، لم تُمنع فيما بعد إلا للضيق المالى الذى مرت به الدولة.

كذلك سجل علماء التربية الحديثة فى مصر كتاباتهم عن تاريخ التربية – سـجلوا الأثر العظيم الذى قامت به المدارس القبطية فى ثقافتنا الحديثة.

ومن الإحصائيـة التى سجلها المرحـوم على باشا مبارك ومحمد أمين شكرى. وهى بكل فخر أكبر شهادة وتقدير للعمل الذى قام به هذا الرجل العظيم يتبين أن عـدد مدارس الأقباط قد ارتفع من ٣٧ إلى ٩٣ مدرسة من سنة ١٨٧٢ إلى سنة ١٨٧٥ بينما ظل عدد المدارس الأميرية تسع فقط خلال نفس المدة.

نصيب المرأة فى حركة الثقافة:

لو أنصفنا حقاً لقلنا إن الأنبا كيرلس هو رائد حركة تحرير المرأة فـى العصـر الحديث – وإن قاسم أمين على هداه فنادى الأنبا كيرلس بمبادئ المسـيحية أن المـرأة ليست أقل من الرجل، وعندما طلب منه فى قضية "التحكيم" فى الميراث سـاوى بـين الرجل والمرأة. وكان يرى أن المرأة لها القدرة على تربية الأولاد وخلق جيل متحرر.

ولقد كان محظوراً فى عصره على السيدات المشى فى الطريق، فما بالـه يفـتح مدرسة للبنات فى حارة السقايين.

إذاً الأنبا كيرلس هو بحق رائد حركة تحرير المرأة وإعادة حقوقهـا المسـيحية إليها، ولذلك كان يكره الطلاق كرهاً مطلقاً لأنه يعلم أنه أساس انهيار المنزل المسيحى.

وأرجع للمرأة حقها – فى أن يكون الـزواج بالاختيـار وحدد سناً أدنى لـزواج المرأة "١٤ سنة" وحفظ لها حقها فى الميراث وساواه بالرجل.

المطبعـة:

كانت الكتب مخطوطة فلم يكن بالقطر المصرى مطبعة غير الأميرية – ولم يكن بالقطر كله صحيفة أسبوعية – ... إلخ.

استعان بأحد أصدقائه من الروم الأرثوذكس وكلفهم بإحضار أدوات المطبعة من الخارج وأرسل أربعة من شباب القبط للتمرن بالمطبعة الأميرية ببولاق بإذن الباشـــا. وكان يصرف لهم ملابس ومرتبات من البطريركية، وعندما وصلت المطبعة اســتقبلها استقبالا دينياً وكانت عبارة عن حروف ومكبس للطبع.

وللأسف أهملت المطبعة بعد نياحته – ثم استخدمها بعض الأراخنـــة فـــى طبـــع صحيفة أسبوعية – وطبع الكتب الكنسية. ..إلخ.

بقى أن نتذكر دائماً .. أن أول مطبعة أحضرها نابليون إلى مصر. وأن ثانى مطبعـــة أحضرتها الحكومة إلى مصر، وأن ثالث مطبعة أحضرها أنبا كيرلس الرابع إلى مصر.

التقويم القبطى المصرى:

كان التقويم المصرى القبطى يستخدم فى الزراعة – واستطاع الأنبا كيرلس بعـــد استخدامه التقويم القبطى فى المدارس إقناع المسئولين باستخدامه رسمياً فى الدولة ســـنة ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٧٥ واستخدم بدله التاريخ الميلادى أيـــام إســـماعيل نتيجـــة للتغلغل الأجنبى الغربى فى أيامه.

لذلك يجدر بنا كمواطنين – أن ندعو إلى حركة تحرير التقويم الأجنبى، ونرجـــع إلى تراثنا القومى ونستخدم التقويم القبطى.

الثقافة الوطنية:

كان هذا الرجل العظيم يفهم روح الوطنية فهماً واضحاً، فكان عليه أن يعمل فيها فى نواح ثلاث:

أولا: مقاومة روح التعصب المنتشرة

استطاع رغم الدسائس المغرضة أن يكتسب ثقة الحكومة، ويعمل على القضـــاء على روح التعصب، ويظهر ذلك مما يأتى:

١- للمرة الأولى يتفق مع الباشا على حمل الصليب فى الشارع وقد كان ممنوعاً من أيام صلاح الدين الأيوبى.

٢- كان يرى أن المصريين سواسية فسمح للطلبة المسلمين بدخول مدارسه - وكثيرون من علماء الدولة مع اختلاف دينهم يدينون لهذه المدارس بالفضل.

٣- طلب من الباشا أن يسمح بدخول الطلبة المسيحيين فى مدارس الطب والهندسة، وعندما راوغه الباشا - سافر إلى الدير متظاهراً بانشغاله ببعض الأعمال.

ثانيا:- بث روح الوطنية بين المسيحين

أشيع عنه أنه ذهب إلى الباشا لإعفاء الأقباط من الخدمة العسكرية فقال: "حاشا لى أن أكون خائناً لوطنى بل جل قصدى أن يخدم الأقباط مع المسلمين".

وقال: "حاشا لى أن أكون جباناً بهذا المقدار لا أعرف للوطنية قيمة أو أن أفترى على أعز أبناء الوطن لتشريدهم من محبة أوطانهم، وعدم الميل للخدمة".

لقد خدم الوطن خدمة عظيمة بأن سافر للحبشة وحل المشكلات القائمة بين الإمبراطور وسعيد باشا وتحمل من أجل ذلك آلام واضطهادات كانت ستؤدى إلى موته.

ثالثاً:- وطنية الكنيسة

للأسف الشديد كان وقت الأنبا كيرلس الرابع هو وقت غزو الطوائف الأجنبية - وكانت هذه الإرساليات مرتبطة ببلادها - لذلك بذل جهداً جباراً فى وقف حركاتهم وتفاهم مع إمبراطور الحبشة بمنع دخولها بلاده ولذلك كادوا له ودبروا له ضيقات كثيرة.

وفى يوم من الأيام زاره القاصد الرسولى لكى يطلب منه ضم الكنيسة القبطية لرعاية روما، ولكنه تظاهر بقراءة الكتاب المقدس وعندما سئل عن سر انشغاله "أجاب أنه يبحث عن آية تؤيد فكرة صكوك الغفران ..." فخجل الزوار ومضوا لحالهم.

ومع ذلك فقد عمل هذا الرجل على إيجاد ترابط بين الكنائس الخالصة فى مبادئها وخطى خطوات كبيرة ولكن الأيام لم تسعفه.

الحركة الثقافية ورجال الدين:

لم ينس هذا الرجل أهمية رجل الدين فى قيادة الشعب ونصيبه فى هذه الحركة الثقافية الكبرى فقام بعمل اجتماع أسبوعى فى مدرسة الأزبكية للمطالعة والدرس والبحث وكان بلا شك هذا الاجتماع هو الفكرة الأولى فى تأسيس الإكليريكية فى عهد من خلفوه – وكان يرى أن تعليم رجل الدين هو ضرورة لمواجهة حركات الطوائف الأجنبية وتحريرها من البدع والخزعبلات.

اهتم اهتماماً عظيما بدراسة لغة الآباء واللغة المصرية القبطية، وعمل على تشجيعها بشتى الوسائل. لقد بينت فى أول حديثى علاقة الأنبا كيرلس الرابع بعصرنا الحالى ولقد اختارت العناية الإلهية الأنبا كيرلس السادس بطريركاً للكنيسة القبطية – وربما كان التوافق فى الاسم هو إعلان من السماء أن السادس أتى ليكمل ما لم يستطع الرابع أن يكمله لقصر أيامه.

فالله الذى بدأ مع البابا كيرلس الرابع يكمل مع البابا كيرلس السادس – والشعب الذى تعاون مع البابا كيرلس الرابع يعمل بقوة وعزم مع البابا كيرلس السادس – والله قادر أن يجعل أيام البابا كيرلس السادس أيام إصلاح وصلاح وبركة وسلام بصلوات الأنبا كيرلس الرابع عنا فى السماء وبصلوات الأنبا كيرلس السادس على مذبح مرقس الرسول.

كلمة الأستاذ ألبرت برسوم سلامة*

سكرتير مجلس ملى فرعى الإسكندرية



فى عام اثنين وثلاثين بعد الخمسمائة والألف للشهداء الموافق للعام السادس عشر بعد الثمانمائة والألف للميلاد وفى بلدة الصوامعة الشرقية من أعمال جرجا فى القلب من صعيد مصر حيث تتبلور مدنية وتلتقى أمجاد آلاف السنين – ولد طل دعى "داود" واستكمل اسمه "داود توماس بشوت" وأنبعث صوته صارخا فى برية أقفرت بعد أخضار، وأذبلت بعد إزهار، وافتقرت بعد عز وأدبر الحظ عنها بعد إقبال. برية جردت من العلم وسلبت من المجد وأطل عليها ركام من الذل والجهل.

وبعث به والده إلى الكتاب غلاما حيث تعلم اللغتين القبطية والعربية كتابة وقراءة كما تعلم علم الحساب.

وما لبث حتى انطلق زميلا لوالده رفقياً لأبيه فى عمله الزراعى – ومن ثم خالط عربان الصوامعة وتعلم علمهم حيث امتطى الجياد وتسنم ظهور الإبل، وكان انطلاقه خلال رياضاته فى صحراء بلده – بشيراً وسبيلا لانطلاق روحه وعقله ونفسه – بحثاً فى مكنون الكون ودقائق الحياة واستكناناً للسر الأعظم لخالق الكون وباعث الحياة – وواهب الطبيعة ما تجلى به من جمال وما يتسم به ناموسها من كمال يذهل العقول ويحير الألباب.

وأنطلق يتأمل ويتأمل ... كيف تبسط هذه الأرض حتى لا يلحقها بصر ... وكيف تنشر هذه السماء حتى لا تعلوها هامة ... وكيف يتلاحق الليل والنهار وتتلاحق الفصول .. كيف تشرق الشمس من مشرقها وتغرب إلى مقربها .. كيف يبهى سناؤها

* توفى فى ١٩٩٠/١/٢ وهو فى حوالى التسعين عاماً من عمره. شغل مناصب كبيرة بالدولة، منها وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء، وزير الدولة لشئون مجلس الشعب، وزير الدولة لشئون الهجرة.

الأبصار والنجوم، وكيف ترصع القبة الزرقاء يلمع منها ما يلمع ويظهر منها ما يظهر ويختفى ما يختفى وبين هذا وذاك زرع ينبت ونهر جار يفيض.

وما لبث الغلام .. أن استغرق شابا فى تأملاته وتعمق قدرة الخالق وتملكه هـواه حبا لدينه وإجلالا لعظمته، وأنتهى الشاب غارقا فى هواه الروحى ونجواه العذريـة ... راهباً فى دير القديس أنطونيوس بالجبل الشرقى على مسيرة أيام من بلدته.

وهناك فى الواحة الظليلة لصحراء حياته .. وجد ريا لتأملاته ومعارفه بعد ظمـأ طويل وغذاء لروحه الجوعى بعد مسغبة، وسار قدما على الجواى ونذر نفسـه لله ... للمسيح معلمه وللشعب حبيبه وملهمه ... واستغرق فى قراءاته ومطالعاته وتأملاته ... وكلما استغرق طفا على سطح المعرفة ... وكلما هو ارتفـع علـى سـطح المعرفـة والكشف واطمأنت روحه بعد تيه واضطراب.

واكتملت معارفه وهو فى مطلع شبابه، وأضاء الله قلبه بسراج وضع علـى جبـل المعرفة. والإيمان بالواجب والحق – فسار قدما على الطريق يبغى هدفا ... يريد ويصمم بقوة اليقين، وأن يلاحق أملا ليلحقه أن يخرق أسواراً من الجهالـة فـى الـدين والثقافـة والاجتماع لتبديدها أضواء الروح والعقل – نعم الروح والعقل – الإيمان والعلم – يسيران معا على الطريق ... حتى يبلغ بقرنائه وأصحابه وإخوانه ومواطنيه جبال الأحلام مهما تناهت عرضا وتسامت قمما وطولا...

وبدأت أنوار حصيلته من الدرس والجهد والزهد والتقوى – تنطلق لتبدد الظلمات المتراكمة – حين هيأ له القدر – الذى حمل به منذ زمان – فرصته – وأتاح له الزمن قدره ليعرف قدره – فاستوى على رئاسة الدير إذ عُهد بها إليه بعد وفاة رئيسـه وهـو بعد فى الرابعة والعشرين من عمره.

وانتقل الراهب بذلك من دور الدرس والحلم والأمل – إلى دور التنفيذ والعمل ... فإذا به يكشف عن بصيرة نافذة وعزيمة شاحذة. وهمة تقصر دونهـا الهمـم ... وإذا بالايمان الخردلى لهذا الراهب الفتى يزحزح الجبل ... ليس الجبل قـد مـن صـخر وحجر... بل جبل الفوضى الضاربة فى الدير لتستحيل نظاما – والجهل فيـه ليصـبح درسا وعلما وفهما، والمسألة والتكفف لتضحى استغناء واستعلاءاً.

وإذ بالدير الذى واضرابه بأنه ملجأ للمعوزين والكسالى ومأوى للمشردين ومـن لفظهم القانون ... يمتلئ بالوعى الرهبنى الصحيح السليم – ويستعيد شيئا مـن أمجـاد الماضى الغابر – والمجد الحائر والمجد الضائع – أيام أن كانت الأديرة مثابة للعلـم –

ومنبعا للمعرفة – ومنارة تنبعث منها أضواء النور – الذى حمله إلينـــا المعلـــم الأول والأخير – المعلم الأعظم .. المسيح تمجدت تعاليمه ...

بل إذا برهبان الدير – الذين كانوا ينطلقون خارج أسوار الدير – يدخلون الـــبلاد ويجوبون القرى، ويخرجون منها كما يدخلون بلا أثر ولا تعليم ولا دين ولا حـــس أو خبر – إلا ما يحملونه تكففا وسؤالا يزرى بحرمة الرهبنة ويمرغها فـــى تـــراب مـــن الهوان ... إذ بهؤلاء بعد أن توفرت لهم داخل الدير احتياجـــاتهم – يلتزمـــون الـــدير بتوجيه من الراهب الفتى الرئيس – ليتعلموا ويتثقفوا ويتتلمذوا على يد هذا المعلم الذى بدأت أضواء علمه وعمله – تستلفت الناظر وتبعث النور مضيئا فى قلـــوب يائســـة – والدفئ ساريا فى صدور باردة – بعد أن أوشكت أن تنقطع بينها وبين الإصلاح آمـــال وأسباب ....

وتهامست قلة من الناس بالنور الذى بدأ يضئ دير القديس أنطونيوس.

ولكن هذا النور كان من القوة بحيث بدأ يتسلل إلى خارج الأسوار وينطلق عبـــر الصحارى والقفار وينتقل على أجنحة قوية – تحمله أقدام ثابتة.

وعزائم غير مسترخية – ليعمر ويعمر المدائن والقرى وبدأت اللمسات الأولـــى للصورة الخارجية تظهر فى شكل مدرسة فى بلدة بـــوش أنشـــأها الراهـــب المتحفـــز للإصلاح – خميرة مباركة – احتفظ بها الزمن لكى يخمر بها العجين كله الآتـــى فـــى مستقبل الزمان.

وفتحت المدرسة الوليدة أبوابها لأبناء الأمة تنـــير عقولهم وتهذب نفوسهم وتربى أرواحهم وتثقفهم، فلا تلبث عجلة الحياة أن تدفعهم للخدمة العامـــة – ســـلاحهم إيمـــان وعلم. يشرق كل يوم جديد ... وما لبث حتى الحق بالمدرسة مكتبة عمرت بالكتب فى شتى نواحى الدين والعلم والأدب، شعارها أن على الدين والعلم والأخلاق تبنى الأمم.

وبدأت شخصية هذا الراهب المصلح تتضح كما بدأت شخصية إصلاحه تظهـــر معالما وتبدو حدوداً وأصولا ... دير نموذجى ورهبنة نموذجية وعمل يمتد إلى خـــارج الدير قوامه ائتلاف وثيق بين القلب والعقل والعلم والدين.

ثم ما لبث حتى تهيأت له الفرصة لاتجاه آخر بالإضافة لهذه الاتجاهات – حيـــث أوفد البطريرك إلى بلاد أثيوبيا ليحسم خلافا قام بين الكنيسة المصـــرية الأم وربيبتهـــا الكنيسة الأثيوبية ... ومكث فى رحلته عاما ونصف وكللت مساعيه بالتوفيق ... وكان

البطريرك ... قد أنتقل إلى جوار الله ... واتجه الرأى لانتخاب الراهب المصلح بطريركا وعور هذا الاتجاه بمساع من قوى لا تبغى للكنيسة نجاحا أو صلاحا ... ولكن شاءت إرادة الله أن تنتصر قوى الإصلاح فانتخب مطرانا عاما فى ١٧ أبريل ١٩٥٣ توطئة لاختياره بطريركا .. فلم يلبث حتى بدأ فى إنشاء مدرسة الأقباط الكبرى فى حرم البطريركية.

ولضمان رفعة المدرسة واتساعها فى الناحية البحرية للكنيسة ضم إليها بضعة من المنازل المجاورة غير المملوكة للبطريركية وحصل على بعضها استبدالا أو على بعضها الآخر شراء بالثمن، وضمن للمدرسة إيراد خاصا للصرف فى شئونها وتم افتتاحها فى سنة ١٥٣٦ للشهداء، وما لبث الكل حتى أجمعوا على تعيينه بطريركا وتمت رسامته بطريرك العاشر بعد المائة وله من العمر ثمان وثلاثون عاما وذلك فى اليوم الحادى عشر من بؤونه سنة ١٩٧٠ وخمسمائة بعد الألف للشهداء سنة ١٥٧٠ ش.

ومن ثم انطلق جبار الإصلاح .. تلاحقت مشروعاته وتسابقت نحو التنفيذ فى دراسة واعية .. ولكن فى عجلة كأنما كان فى سباق مع الزمن يستشعر قصر العمر ودنو الأجل، فأتم إنشاء المدرسة الأقباط الكبرى وغيرها من المدارس التابعة لها وجعل التعليم فيها بالمجان والكتب بلا مقابل – وأرسى قواعد التدريس فيها على أحدث الأساليب وكان يشرف عليها بنفسه ويدعو الأخصائيين لمعاونته بالرأى فى إنجاحها .. وفتح أبوابها لتتقبل طلاب العلم ورواد المعرفة من غير تفرقة بين عنصر وعنصر أو دين ودين – لتخرج الكثيرين ممن أدوا لبلادهم أجل الخدمات ورفعوا ذكرها بين الأمم.. وبلغ من شدة رعايته للمدرسة أن كان يستقبل زواره من مكان أعده لذلك فمات وفى الوقت الذى كان يوجه مدرسيها – ويشرف على برامجها وتدريس المواد واللغات فيها – كان بين وقت ووقت يجلس فى فصول الدرس ساعات بين التلاميذ والطلاب ينصت لشروح المدرسين الطالبين إجلالا منه لمكانته وتقديراً لأثره بين أبناء الأمة.

ونهض بتدريس اللغة القبطية فى المدارس التى أنشأها نهضة شاع ذكرها واستقام أمرها وذلك بجانب اللغة العربية واللغتين الانجليزية والايطالية – كما عنى بإنشاء الكنائس وتعميرها وكان من أبرز أعماله فى هذه الناحية إعادته لبناء الكنيسة المرقسية الكبرى حيث أرسى حجر أساسها فى سنة ١٨٥٩ فى احتفال عظيم.

ثم عمل على إنشاء أول مطبعة يملكها الشعب تابعة للبطريركية ومـن أموالهـا وعند وصول أدواتها ومهماتها وماكيناتها وحروفها من الخارج وكان متغيبا في ديـره فأمر أن يستقبلها رجال الدين رسميا بالأناشيد ويحادثنا التاريخ المكتوب لغبطته في هذا الخصوص أن البعض أنكر عليه طريقته في استقبال المطبعة فأجاب في عبارة قـدت من الحكمة العميقة والبساطة الرفيعة والنظرة البعيدة.

"أني لمستغرب جدا ظنكم بي وتصوركم السوء أني قد ابتدعت بدعة جديدة فـي الدين ... ولكني لو كنت حاضراً لرقصت أمامها كما رقص داود أمام تابوت العهد ...

لأني في ذلك الحديد – لو تعلمون رقيا للأمة – كيف لا والكتب الخطية – فضلا عن كثرة أغلاطها وغلاء ثمنها – فإنها نادرة الوجود وقليلون هم مقتنوها".

وفي محيط الأسرة القبطية عمل على تجديد بنائها على المحبة المسيحية وتمكـين أساسها على الدين والتقوى ... ودفع بنصفها القابع في المنـازل إلـى ميـدان العلـم والمعرفة حتى تكون الأسرة المدرسية الأولى للشبيبة القبطية ويكون البيت القبطي مثلا يحتذى وقدوة يهتدى بها.

ولإرساء هذه النهضة بالأسرة والأنثى على قواعد وأسس هادفة من العلم والدين، حدد سنا لزواج الفتاة القبطية لا يجوز أن تتزوج قبله – وبذلك سبق قانون تحديد سـن الزواج في مصر بنحو مائة عام – كما أقدم أبو الإصلاح على إنشاء المدرسة الأولـى في البلاد جميعها لتعليم البنات – وجعل مقرها حارة السقايين – وأنشأ إلـى جوارهـا كنيسة ... ثم مدرسة للبنين.

نقول أقدم – بكل ما يحمله تعبير الأقدام من معان ... إذ تم ذلك في وقت وزمان كانت المرأة حبيسة منزلها لا تبرحه – تتطلع بلا فكر ولا أمل ولا هدف – مـن وراء النوافذ المغلقة والمشربيات المزوقة – إلى هذا العالم المجهول لديها .. فلا تجد منفـذا ولا تلقى مرشدا – ولا يلقى أبناؤها منها إرشادا ولا هدى – وكانت نظرة الناس إلـى هذه الحال نظرة الاستكانة ورضى ... ولذا وجدت الفكرة فكرة مدرسة البنات وتحرير المرأة مناهضة بل لقيت حربا ... ولم تكن ميسرة التنفيذ لولا عزيمة تمثلت وتجسـمت في هذا القائد الجسور والزعيم المقدام لأنه واحد من قلائل بعثوا فيها الـوعي البعيـد المدى والأمل العالي على أعلى الهمم.

وفى هذا المجال كان جديراً بعهد كيرلس الرابع أن يتسم بطابع تحرير المرأة المصرية – وكان جديراً أن يلحق بشخصه وصف محرر المرأة – حيث سبق الزمن الذى إصطلح المحدثون على إلحاق هذه الأوصاف به ببضع عشرات من السنين.

وفى ميدان الخدمة العامة العليا لبلاده حين طلب إليه الخديوى سعيد أن يصلح بين مصر وأثيوبيا ويسعى بازالة أسباب خلاف محتدم بينهما على الحدود – لم يتردد فى تلبية نداء الوطن فركب الصعب والخطر ورحل إلى أثيوبيا فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ – وبعد أن استهدف للدسائس والفتن بل والقتل فى سبيل بلاده – عاد مكللا ظافراً وعادت الأمور بين الدولتين إلى مجراه الهادئ وتيارها الوادع كما أحكم خلال رحلته الروابط بين الكنيستين ودعم الصلة بينهما فكان بذلك وطنيا ملهما ورئيسا دينيا دعم حقوق الرياسة وواجباتها.

ودفعته وطنيته الفياضة إلى السعى الدائب لإعادة أوقاف مغتصبة وحقوق للأقباط يقينا منه أنه كلما استقرت الحقوق للجميع واطمئنوا إلى تحقيق العدل والمساواة والفرص المتكافأة كلما سار ركب الوطن العزيز هادفا إلى المجد والسمو والعزة والكرامة – وكان هذا جانب فتح مؤسسات الأقباط ومدارسهم لأبناء الوطن الواحد جميعا إيذانا بأن هذا البابا المتدين الوطنى قد سبق زمانا عاش فيه حيث كان حكام الوطن من الدخلاء عليه يمكنون للفتنة والتفرقة إلى زمان يعيش فيه حكمه إلى أبنائه ومحبيه وباعثيه وعماده أن الدين لله والوطن للجميع.

وفى ناحية عامة أخرى يحدثنا التاريخ عن مساعيه الجليلة للتقريب بين الكنائس القبطية وغيرها من الكنائس وجهاده فى هذا السبيل حتى كان فى ذلك ختام حياته الغالية فى ٢٣ طوبه ١٥٧٧ ش الموافقة ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ للميلاد وتنيح عن خمس وأربعين عاما. وعلى هذا أقفل كتاب جهاده وأمجاده مليئا بالصحائف التى ترجمت إيمانه مبادئ وأعمالا وتقواه وعمله مؤسسات خلدت وخلدت علما على دراسته الواعية وإلهاماته الخلاقة – التى مكنت له بحق أن يدعى فى التاريخ أبا فى صلاح – مع أن رئاسته للكنيسة لم تمتد إلا أقل من سنوات سبع – ولكنها كانت مليئة تتزاحم فيها الأعمال والمبادئ ويتسابق العقل والإيمان ويتعانقان – ليخلقا من أمة تخلفت فى ماضيها القريب جديرة بماضيها التخليد.

وبعد فإننا نستقرئ التاريخ منذ خمسين عاما فيقرئنا أن جمعية الإخلاص القبطية بالإسكندرية حين دعت فى سنة ١٩٢١ سائر الهيئات فى شتى أنحاء مصر لإحياء ذكرى

مضى خمسين عاما على نياحة أبى الإصلاح – وحين أقامت لذلك احتفالا كبيراً فى الإسكندرية أقبلت الهيئات على المشاركة فيه ونوهت به الصحف الكبرى المصرية والقبطية – وكان مما ذكرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ٢٤ طوبة ١٦٢٨ ش قولها:

"ومما لا شك فيه أن ذلك البطريرك العظيم جدير ذكره بأن يردد واسمه بأن يكرم لأنه كان مصلحاً كبيراً ورئيساً يفهم معنى الرئاسة ويدرك أعباءها ومهامها ويعرف كيف يقوم بتلك الأعباء الملقاة على عاتقه – لا كالذين يعدون الرئاسة منعها يتألهون فيه – فلا يهمهم إلا أن يذلوا شعبهم لإرادتهم ويمنعوا دمه ويهبطوا شئونه ويضطهدوا مصلحيه.

إن البطريرك الذى يحتفل بالسنة الخمسين لوفاته رقى أمته بفتح المدارس وإنشاء المطابع وبناء الكنائس ومنع زواج البنات قبل سن الرشد ومنع الإكراه بالزواج وعزل الرهبان إلى الأديرة وأطلق حرية المرأة. وتفقد رعيته فى مصر والحبشة وحصر أملاك الأوقاف إلى آخر ما يذكره المؤرخون القبط من أعماله وأفضاله وفضائله.

فالذين يحتفلون به اليوم إنما يحتفلون بالمصلح وللإصلاح، والذين يشاركونهم بهذا الاحتفال إنما يشاركونهم بإجلال الإصلاح.

ونحن اليوم إذ نشارك فى الذكرى المئوية لنيافة البابا كيرلس الرابع – وإذ يشارك المجلس الملى للأقباط الأرثوذكس بالإسكندرية فى الاحتفال بهذه الذكرى – مع سائر الهيئات والجمعيات والشعب القبطى بها ... إنما نحتفل بهذه المعانى الكريمة والمعالم الواضحة والخطوط العريضة والمبادئ السامية الجليلة والفهم الواعى والدرس الدائب والإيمان الخردلى – هذه المعانى التى جمعتها معا ورسمتها وعبرت عنها وقررتها وبذرتها وأنبتتها ورعتها ومكنت أصولها – حياة غالية وروح ملهمة أرسلت إلى دنيانا، فأدت رسالتها – وقامت على حق وواجب رئاستها وكتمت فى دنياها ولاحقتها فى أخراها – معان من القيادة الحكيمة والزعامة المصممة من تلازم الدين والعلم – وقيام العلم فى خدمة الدين .. وإرساء المؤسسات المادية إلى تربية النفوس الناشئة وتكامن الأرواح الهائمة ... حماسة شباب وحنكة شيوخ وزمالة عقل وإيمان – وعمق تفكير وسرعة تنفيذ – وبسالة للدين وانطلاق وطنية – فى محبة وسماحة

وتضحية بلا تعصب زميم أو عصبية كل أولئك فى أقدام تقصر دونه ما حققته عـوالى الهمم.

هذه هى المعالم التى قد تبدو سمل الأضداد - فى بعض العقـول والأفهـام - إن أصحاب الدعوات التخلفية أو التعصبية ... ولكن زعامـة أبـى الإصـلاح ووداعتـه وصلابته وجسارته - برهنت أنها معالم تسير معاً فى الطريق ... طريق واحـد هـو طريق السمو بالإنسان والكنيسة والأسرة والمجتمع والأمة - فى إطار من المجد وعلى أساس من الحب والتضحية ... التضحية حتى بالحياة إذا ذهبت روحه الطـاهرة فـداء مبادئه على ما حدثنا التاريخ.

فإلى هذه الروح الهانئة احتراما وإجلالا.

إلى هذه الروح الهائمة المستهامة اعترافا وتطمينا ... إلى هذه الـروح الحبيبـة إقراراً وإصراراً ... إليها وعداً وعهداً ويمينا.

فإن اليقظة التى أثارتها والنهضة التى بعثتها ستسير قدما إلى غايتها - وترقـى الصعب والسهل حتى تصل إلى قمتها.

ففى أمل هذه الروح تتمثل آمالنا. وفى حلمها تبدو أحلامنا وعلى أعمالها تتلاحق أعمالنا من وداعتها وحبها نلتمس حباً ووداعة - ومن جسارتها ووعيها نسـتمد وعيـاً وجسارة.

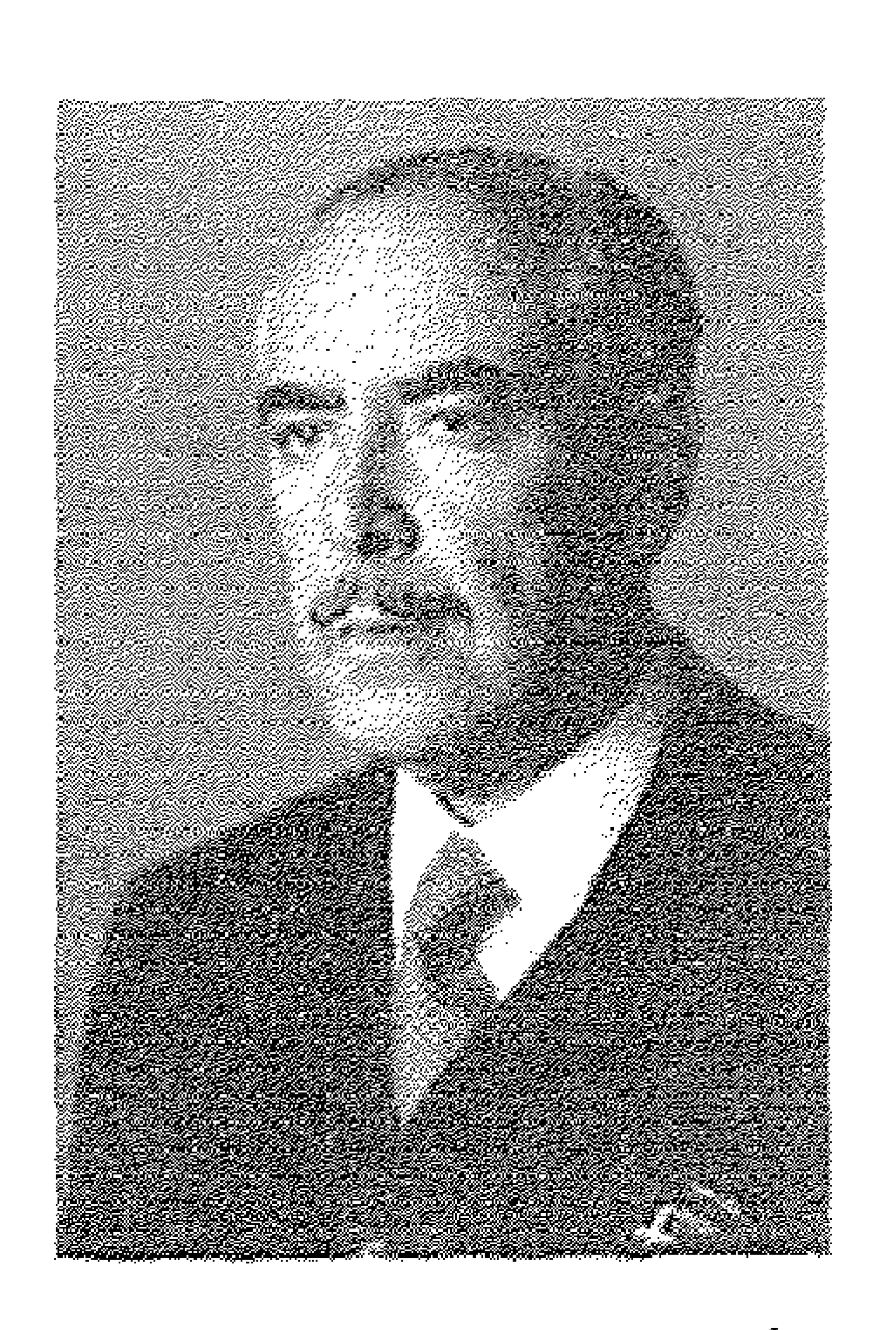
وهذه هى ملامح هذا العهد - عهد البابا كيرلس السادس - مبشراً ومؤذنـا بـأن عهدنا سيلاحق هذا العهد الذى نحتفل به اليوم به - هذا عهدنا وأن العهد كان مسئولا - إن رئاستنا الدينية لعلى موعد مع الزمن - لتلاحق نفس الهدف وتقطع الطريق إليه ... فملامح العهدين تتقارب ... وسوف تبلغ الغاية بتعبئة الجهود وتكتيل العزائم وتجميـع الوعى متكاتفين متساندين مع الرئيس الدينى والبابا المعظم.

وإذا كان بعض المؤرخين من المتشائمين قد قالوا بعد نياحة البابا كيرلس الرابـع "إنه بدفن هذا الرجل العظيم دفن حظ الأقباط ومصيرهم معه".

فإن لنا أن نقول إنه "باختيار البابا كيرلس السادس وفى إطار النهضـة الكبـرى للبلاد - قد بعث حظ الأقباط وسوف يعلو ويتألق نجمهم معه".

البابــا كيرلــس الرابــع

د. منيــر شكــرى*



سيدى مندوب قداسة البابا، أبائى وإخوتى

فى هذا اليـــوم يتم مرور مائـــة عـــام على نياحة الأنبا كيرلس الرابـــع الملقـــب بأبى الإصلاح والخليفة العاشر بعد المائة للقديس مرقس الإنجيلى. وهو كأسلافه العظام استولى على مشاعره، وألهمه، وأنار له الطريق، وقواه فى الملحمـــة الكبـــرى، التـــى خاضها، ذلك الحب العميق لرعيته التى أقامه الرب عليها. وإذا كان أثناسيوس الرسول وكيرلس الكبير قد أمتازا بمحاربتهما للبدع والهرطقات، فقد تميز كيرلس الرابع بجهاده ضد عدو آخر للكنيسة لا يقل عنها خطورة ويهد من كيانها مع الزمن، ومازالت تـــئن مما خلفه من آثار فى مختلف نواحى نشاطها، ألا وهو الجهل، ذلك الشبح البشع، الـــذى تكمن تحته مصائب البشرية وآلامها. لقد شن عليه حرباً عواناً دون هوادة، منذ اللحظة التى قفل فيها وراءه، دون العالم، باب دير القديس أنطونيوس، بعد أن سار إليـــه مـــن قرية الصوامعة الشرقية بإقليم أخميم – ذلك الإقليم الذى أنبت الأنبـــا شـــنودة رئـــيس المتوحدين – فى تصميم وعزم ثلاثة أيام بلياليها، تدفعه قوة خفية، هى تلك الدعوة التى يضعها الرب فى قلوب بعض ابناء هذه الأمة، فيهبون نادرين أنفســـهم لمحبـــة الـــرب والبذل والخدمة. هذه الطغمة من الرجال، هى التى حفظ الرب بواسطتها كنيستنا خلال أحلك العصور إلى وقتنا هذا، متمماً قوله لها (وها أنا نعكم إلى انقضاء الدهر).

وبعد أن أمضى فى الدير سنتين فى التعبد والتأمل، أجمع إخوته الرهبـــان علـــى انتخابه للرئاسة بعد وفاة الرئيس، وفى ذلك يكتب المرحوم ميخائيل بك شـــاروبيم فـــى

---

* (١٩٠٨ – ١٩٩٠) رئيس جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية زهاء ثلاثون عاماً. طبيب سكندرى ومؤرخ كنسى.

الجزء الرابع من تاريخه (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث)، (ولاه بطرس البطرك على دير أنطونيوس الأعلى فأحسن التدبير ورتب الأمور على أحسن ما يرام، وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية، فافتتن فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى، ولبثت أياماً حتى تمكن من إخماد نارها)، كانت هذه موقعته الأولى ضد الجهل، ولم يكتف بكسب هذه المعركة، وبإقناع الرهبان أن أساس قوانين الرهبنة اعتزال العالم، بل أراد أن يعالج الداء من أساسه، فجمع الكتب التى كانت مكدسة فى الدير تعلوها الأتربة ونسيج العنكبوت، وضم إليها ما أستطاع مما فيه فائدة. وجعلها فى قاعة للمطالعة، وأوكل عهدتها إلى راهب خاص، ورتب أوقاتاً للمناظرة فى مواضيع الأدب والتاريخ والدين لينمى مدارك الرهبان. وعكف هو أيضاً معهم على تنمية مواهبه ومعلوماته.

وتشاء العناية الإلهية أن يرسله الأنبا بطرس فى أواخر أيامه إلى أثيوبيا ليصلح ذات البين بين المطران وبعض الرهبان عقب خلاف نشأ بسبب الجهل أيضاً، وبينما هو فى مهمته هذه تنيح الأب البطريرك.

وسرعان ما اتجهت الأنظار إلى ذلك الراهب المصلح، ولكن الجهل وما يكمن تحته من تفكك وانحلال، شن عليه هجوماً عنيفاً من بعض أبناء كنيسته، سداه ولحمته الإفك والبهتان، وذهبوا إلى حد أن اتهموه فى بتوليته كراهب، فادعوا أنه تزوج فى الحبشة وله ولدان، واستشهدوا على ذلك بقس حبشى حاقد عليه، ولم يصدق أحد هذه الفرية، ولم تزده هذه الآلام النفسانية التى تحملها بكل صبر وجلد، سوى إشفاقاً على القبط من هذه الهوة التى تردوا فيها، وتصميماً على أن يبذل جهده فى سبيل نشلهم منها.

وأخيراً، وبعد خلاف دام عشرة أشهر، استدعى بكل أسف أن يتدخل فيه الأغراب، أمثال ورتبيت الأرمنى، مرتين، رضى الفريق المعارض أن يرسم مطراناً عاماً فى ١٧ أبريل سنة ١٨٥٣، وفى ذلك تقول سيدة أجنبية، مستغربة هذا الوضع (الغير أصولى بالمرة) حسب تعبيرها، والذى لم يكن له مبرر سوى حب الأثرة بتنفيذ الكلمة، تقول السيدة بوتشر فى الجزء الرابع من كتابها (تاريخ الأمة القبطية) "تم الاتفاق بين الطرفين (الأساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة: وهى أنه يصير تأجيل انتخاب البطريرك، ويصير تكريس كيرلس مطراناً لبابليون أى مصر القديمة، على شرط أنه إذا أظهر كفاءة تامة فى وظيفة الأسقفية ينتخب بطريركاً. ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة، لأنه طبقاً لمواد القوانين الكنسية القبطية،

لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد التى منها عدم جـواز انتخـاب أسـقف لوظيفـة البطريركية، ولكن بالرغم من ذلك، فقد قام الأساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانـة. وانتخبوا كيرلس على العرش الباباوى الخالى، حتى قبل أن ينتهى موعد زمن التجربة". هذا ما قالته السيدة بوتشر.

والسبب فى قيام الأساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانة، أنه ما أن رسم مطراناً حتى تجلت فى أعماله وضوح صفات الزعامة والعبقرية. تلفت إلى القطيـع الغريـق، فوجده هزيلاً عليلاً، مائة ألف أو يزيدون قليلاً، خلفتهم أحداث بضعة عشر قرناً، فـى غمرة من الجهل والفقر والمذلة، فاستولى عليهم الخمول واليأس والانحلال، حتى نسوا تاريخهم ولغتهم وآدابهم، وحتى فقدوا عزتهم وكرامتهم وحقوقهم واعتبرهم المؤرخـون بسفينة أثره يرثا لحال هذا القطيع واحتضنه، ناسياً كل ما يصيب شخصه فـى سـبيل انتشاله من وحدته التى تردى فيها. ويصف لنا صاحب الكافى حاله فـى هـذه الفتـرة فيقول "ولوه مطراناً على كرسى مصر ووكيلا للكرسى البطريكى، وتحزبت الأحزاب، وذهب كلّ إلى مذهب فى أمر كيرلس، وكبرت الوحشية بينه وبين فريق مـنهم، وقـد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم، فحجروا عليه فى جميع تصرفاته، ومنعوه من النظر فى شئون الملة، واشتدوا عليه شدة بالغة، فكان إذا أراد النوم لا يجد لرأسـه وسادة ولا لجنبه فراشاً، وإذا جاع لا يطعم إلا ما قدموه إليه، وإذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه، وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألوا جهداً فى تأليف القلوب المتفرقة، والنفوس المتنافرة، ومازال حتى أفلح فى ضم الكل إلى الكل، فصـاروا علـى الخيـر أعواناً، وفى ذات الله إخوانا، فطرحوا عنهم الخلاف. فلما كان تاسـع رمضـان سـنة ثمانين ومائتين وألف هجرية (وهو الموافق ٤ يونيو سنة ١٨٥٤) بايعه الأسـاقفة فـى أبهة زائدة، وطيروا الخبر بذلك إلى الأفاق، وفرحوا بولايته عليهم ووفد عليه المهنئون من كل صوب وحدب. وكان العمل الآخر الذى قام به فى غيرة كبيرة وتصـميم هـو وضع أساس نهضة القبط، بقيادتهم إلى طريق الرفعة والمجد، حاملاً أمامهم فى عزيمة ثابتة وبيد لا يتطرق إليها الكلل مشعل العلم والعرفان إذ هداه قلبه الكبير وعقله المستنير إلى أن التعليم والتهذيب هما العلاج الثانى والسلاح الماضى. ويحدثنا فى ذلك مـؤرخ سورى، هو إبراهيم أفندى الطيب فى كتابه "مصباح السارى ونزهة القارى" المطبـوع فى بيروت عام ١٨٥٥ فيقول (وفى حارة الأقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسـان القبطى القديم والتركى والايطالى والفرنساوى والانجليزى والعربى. وهم يقبلون فيهـا

من جميع الطوائف، وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة، وهـذه بناها البطـرك كيرلس القبطى، وأنفق عليها نحو ستمائة ألف قرش، وكل هذا بخلاف ما نعهـده فـى بلادنا من الأكليروس وأوجه الشعب)، وهكذا أرجع الأنبا كيـرلس الرابـع لباباواتنـا سيرتهم الأولى وأصبح يضرب به المثل فى القيادة الحكيمة والهمة وبعد النظر والسير بأمته إلى المكانة اللائقة بها.

وكانت سياسة الأنبا كيرلس فى الكلية تعكس أخلاقه وشخصيته، ففتحها فى وجه الطلبة من جميع الملل والنحـل، ووزع الكتب والأدوات مجاناً، ومع ذلك لم يكن بهـا أكثر من مائة وخمسين طالبا! وافتتح فى نفس العام ١٨٥٥ ثلاث مدارس أخرى واحدة للبنات فى الأزبكية، ففتـح بذلك فى وجه الفتاة لأول مرة فى مصر منذ الفتح العربـى باب العلم، وأخرى للبنات فى حارة السقايين، والثالثة للبنين فى تلـك الجهـة أيضـا، وأحضر أول مطبعة أهلية فى مصر وأنشأ أول مكتبة فى الدار البطريركية، جمع فيهـا حوالى الألف كتاب مما وجده مشتتاً فى الدار البطريركيـة وفـى الأديـرة والكنـائس القديمة، عاملا بذلك على نشر الكتب والمعرفة فى أوسع مدى بين أوساط الأكليـروس والشعب.

تنيح الأنبا كيرلس فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ بعد أن كانت جذور الإصلاح التـى غرستها يده قد تمت، فتعهدها أبناؤه وتلاميذه من بعده، يستمدون من روحه قوة رائعة، فبعد كيرلس الرابع بدأت الموجه الثانية الإصلاحية عام ١٨٧٣ فقام أبنائه بإنشاء جمعية المساعى الخيرية التى تطورت فيما بعد إلى جمعية التوفيق، التى عنيت بفتح المدارس والجمعية الخيرية القبطية الكبرى التى عنيت بأعمال الإحسان، وقاموا بالـدعوى إلـى أول مجلس ملى عام ١٨٧٤ وفى ١٧ نوفمبر عام ١٨٧٧ أسس المرحوم المعلم ميخائيل عبد السيد والد الزميل الكبير أستاذنا الدكتور إبراهيم عبد السيد، وجريدة الوطن وطبعها على مطبعة أبى الإصلاح فكانت أول جريدة عربية بمصر يـديرها ويشـرف عليهـا مصرى.

وفى عام ١٨٦٣ كان للقبط ما لا يقل عن أثنتى عشرة مدرسة من ٥٩ مدرسـة خصوصية، وفى عام ١٨٧٥ كان لهم ١٨ مدرسة، وفى عام ١٨٧٨ خمسة وعشـرون مدرسة، أى زاد عدد المدارس فى بحر خمسة عشر عاما إلى أكثر من ١٠٠%.

ولأول مرة فى تاريخنا الحديث يبرز من بيننا مؤرخون، يكتبون تاريخيا، وكانوا من بين تلاميذه، المرحوم يعقوب بك نخلة رفيلة، وضع كتاباً فى (تاريخ الأمة القبطية) وأراد المرحوم ميخائيل بك شاروبيم أن يضع تاريخيا لأبى الإصلاح، فإذ بـه يتـدرج ويتسع أمامه الموضوع إلى أن وضع كتابه (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحـديث) فى خمسة أجزاء.

وقامت جمعية الإخلاص القبطية عام ١٩١١ بدعوة إلى الاحتفال باليوبيل الذهبى لنياحته. فإذا بهذه الدعوة توحى إلى المؤرخ المرحوم جرجس فيثلوثاؤس عرض كتابة تاريخ أبى الاصلاح.

وإذا كان الاحتفال بمرور خمسين عاماً على نياحته. قد قامت به بعض الجمعيات واحتفل به فى قاعة سينما بالاس، وكان المتكلمون فيه من العلمانيين فقط. واقتصـر دور رجال الكنيسة على مجرد الحضور أو إرسال برقية فيها تحية للمحتفلين والمحتفل به. فإننا نشكر الرب أن جعل الجالس السعيد على كرسى القديس مرقس الانجيلى فى وقت الاحتفال المئوى – قداسة البابا كيرلس السادس – أطال الله بقاءه، إذ حينما أرادت جمعية مارمينـا العجايبى أن تقوم باسمها بإحياء الذكرى، باعتبارها الجمعية الثقافية التى اعتـادت إحيـاء ذكرى الشهداء والقديسين وعظماء القبط، رأى قداسته حفظه الله أن يكون احتفالا إجماعيـا مصدره البطريركية. فتفضل قداسته بإرسال كتاب إلينا مؤرخ ١٥ طوبة ١٦٧٧ الموافـق ٢٣ يناير ١٩٦١ يتضمن هذا المعنى العظيم إذ يقول "إيماء لما عرضتموه ببـوتكم بشـأن رغبتكم إقامة حفل بمناسبة مرور مائة عاما على انتقال مثلث الرحمات سلفنا العظيم البابـا كيرلس الرابع ولما كانت هذه الذكرى غالية ومحببة إلى الجميع، لذلك فستقوم البطريركيـة باتخاذ اللازم للدعوة لهذا الحفل تحت رعايتنا وإجراء اللازم .. إلخ، وهكذا لم يمض قرن من الزمان – والقرن زمن قصير جداً فى حياة أمة – حتى أجلست العناية الإلهيـة علـى كرسى الرئاسة فى كنيستنا رجلا عظيما يقدر العظمة، فكان خير خلف لخير سلف. وبـذا قام القبط كنيسة وشعبا بالاحتفال اليوم. وهى ظاهرة جليلة تبشر بنهضة مباركة فى عهـد قداسة البابا كيرلس السادس. بإذن الله نسأل العلى القدير أن يرعـاه برعايتـه وأن يكـلأه بعنايته. وأن يمد فى حياته أعواما عديدة وأزمنة مديدة حتى يتبوأ القبط مكانهم الأول.



عصر البناء والتعمير

"جميع ممالك الأرض دفعها إلى الرب إله السماء وهو أوصانى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التى فى يهوذا" (أى ٣٦: ٢٣)

د. ميخائيل عياد*



لعل من توفيق الله وتدبيره أن يكون يوم ذكرى الأنبا كيرلس الرابع مناسبة لافتتاح كلية اللاهوت .. ويعتبر القديس كيرلس الرابع البطريرك المثالى الذى وضع الأسس الخالدة لبناء التقدم والإصلاح فى المجتمع القبطى حيث المسيح حجر الزاوية... فكأن هذا البناء الجديد حلقة مكملة للسلسلة التى بدأها ذلك القديس منذ مائة عام... وقد كانت نعمة الله تعمل فيه وتوجه خطواته وتبارك عمل يديه عندما أنشأ المدارس للبنات والبنين سنة ١٨٥٦م. ثم أنشأ كلية لأرقى أنواع التعليم فى ذلك الزمان، وطبق فيها البرامج التى تدرس فى أعظم الكليات الأجنبية، وأبى إلا أن يطلق على كلية العلم أسم القبط، فخلد بذلك الفضل الجليل لأمته التى حملت مشعل العلوم منذ مئات السنين، وأنارت به الظلمة طيلة القرن الماضى حتى أمكن للأقباط وقد حملوا سلاح العلم مع الإخلاص والأمانة، أن يكونوا جنود التقدم والمدنية، فعمرت بهم المصالح والإدارات والمنشآت، وحملوا المسئولية كلها على أكتافهم فى زمن كانت نسبة التعليم بين المواطنين ضئيلة، فحموا البلاد من أن يتقاسم خبراتها المرتزقة والمستعمرون، وحفظوا للأمة كرامتها وعزها ومستقبلها ... غير ناظرين إلى غنى أو جاه أو سلطان... وقد كان رائدهم – ومازال – المحبة والإخلاص والأمانة والبذل مع الكرامة والعزة.

---

* رئيس تحرير مجلة مدرسة الأحد.

مقال نُشر بمجلة مدارس الأحد – العدد (٢) – السنة ١٥ – فبراير ١٩٦١ م (طوبة ١٦٧٧ ش).

وخلاصة القول أن السياسة التخطيطية التي وضع قواعدها أنبا كيرلس الرابع قد أثمرت الثمر الطيب، فتلاميذه وأبناؤه كانوا وما زالوا جيش الدفاع الأول عن كيان الوطن، وقد كانت هذه المدارس نواة كبرت ونمت وأفرخت: فأنشأ القبط نهضة تعليمية عظمى شملت جميع البلاد والقرى حتى آخر حدود السودان... استفاد منها وتعلم فيها مئات الألوف من أبناء الوطن الذين بهم وعلى أكتافهم تقدمت الإدارة الحكومية ونمت المشاريع العمرانية، وانتظم تحصيل الضرائب، وتحسنت الخدمات الاجتماعية واستفاد الناس من آثارها... وبعد انتقال الأنبا كيرلس الرابع شغل خلفاء مارمرقس مع أراخنة الشعب أياماً متعددة بخلافات مادية لا طائل تحتها، وبذلك تعطلت القافلة عن سيرها بل ونكصت على أعقابها ردحاً من الزمن، مع العلم بأن البابا كيرلس الرابع يوم أن خطط وأنشأ وبنى لم يكن تحت يديه أوقاف ولم يملأ جعبته مالا بل كان يعتمد على إيمان يملأ قلبه، ورجاء ينبه وجدانه، ويحركه ويهديه سواء السبيل.

لكن الروح القدس لا يترك شعب المسيح بلا شاهد، فمنذ أن أختارت عناية الله أنبا كيرلس السادس بطريركا لكرسى الإسكندرية أخذت بوادر النور تشرق فيصحو الناس من الغفوة، وتشتد الركب المخلعة...

جاء البابا القديس من كورته فى زاويا الجبال كى يرعى شعب المسيح، فنظر إلى بيت الله وأسوار المدينة، فرأى الشعب وقد مزقته الخلافات والشيع، واستهان الأبناء بمقادس العلى، وانشغل كل واحد بما لنفسه.

فنادى القديس بوحى الروح القدس أن حياة المؤمن صلاة، فخرج الناس وقد أحسوا بنعمة الإيمان وفاعلية الصلاة التى تعمر القلوب، فعمرت بيوت الله بأبناء النعمة والأقباط في كل زمان ومكان أحباء في المسيح... فخلعوا عنهم ثوب التكاسل.. وتسابقوا كى تزداد صلتهم بالمخلص فى نعمة روحية عميقة نعمة الشركة مع البابا فى الصلاة وما أحلى وما أجمل أن يجتمع الأخوة معاً.

ووضع البابا أسس الإنشاء والتعمير فى كل مكان يدعوه إليه الروح القدس، فوضع حجر الأساس لكنيسة مارمينا بمريوط وبنى الكلية الإكليزيكية الجديدة كى تكون جامعة لاهوتية مسكونية وبنى ودشن الكثير من الكنائس فى الإسكندرية، وبلاد الوجهين

البحرى والقبلى ومدائن أثيوبيا العامرة بنعمة الله، وينوى فى القريـب إن شـاء الله أن يدشن مؤسسة احتياجات الكنائس للتدريب والتثقيف وللتضامن ولتوفير حاجيات الكنائس وللمحافظة على التراث الفنى للكنيسة ولتأمين معاشات الكهنة وخدام كلمة الله.

إن السياسة الروحية الإنشائية العمرانية التى ينادى بها البابا الطوبارى كيرلس السادس، تتطلب التعاون والتكافل بين الأبناء كى يلتف الشعب بجميع طبقاتـه حـول الأب الطـاهر، مؤيدين خطواته بالمحبة والصلاة والعطاء حتى يبارك الله فى الشعب وفى عمل القديسين.

ورجـل الله ينادى فى كل أنحاء الكرازة فى أفريقيا وآسيا: "إن الرب إله السـماء قد أعطـانى جميع ممالـك الأرض وهو أوصانـى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التـى فى يهوذا" (٢ أى ٣٦ : ٢٣).



الباب الثالث

مقالات حديثة فى أبى الإصلاح

البابا كيرلس الرابع

بمناسبة الذكرى المائة والخمسين على نياحته

أهمية المحافظة
على اللفظ الكنسى للغة القبطية

الأنبا ديمتريوس*

تاريخ اللفظ الكنسى:

عندما دخلت المسيحية مصر بكرازة مار مرقس الانجيلى نحو عام ٦٠ م كان المصريون يتكلمون القبطية والكثير منهم يجيد اللغة اليونانية أيضاً – فكان المصريون يتقنون معرفة اللغة القبطية بلهجاتها المتعددة ولكن عندما وجد البابا خريستوذولوس الـ ٦٦ فى القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٤٦ – ١٠٧٧ م) أن اللغة

القبطية قل استخدامها بين عامة الشعب فاعتمد قداسته اللهجة البحيرية لتكون لهجة الكنيسة القبطية فى كل أرجاء مصر .

وعندما اعتلى البابا كيرلس الرابع (أبو الاصلاح) العرش المرقسى فى القرن التاسع عشر (١٨٥٢ – ١٨٦١ م) ووجد أن اللغة القبطية قد ضعفت واقتصر استخدامها على الصلوات وأنها اختلطت بالعامية وتداخلت فيها بعض اللهجات فاهتم بالتعليم بصفة عامة وباللغة القبطية والألحان بصفة خاصة وأسند مهمة الإشراف على تدريسها فى بادئ الامر للقمص تكلا ثم للارخن المبارك المعلم عريان أفندى مفتاح الذى يعتبر بحق أول عالم نهض باللغة القبطية وردها إلى أصول نطقها السليم وهو قريب الدكتور راغب مفتاح الذى قام بتسجيل الألحان الكنسية بصوت المعلم ميخائيل جرجس البتانونى بأول جهاز تسجيل يدخل أرض مصر بعد الجهاز الخاص بالإذاعة ونشكر الله أن هذه التسجيلات محفوظة بقسم الموسيقى والألحان بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة .

وقد تبنى قداسة البابا شنوده الثالث وباشراف أ. د. ميشيل بديع عبد الملك الذى خلف أ. د. راغب مفتاح فى رئاسة قسم الموسيقى والألحان بتحويل هذه التسجيلات القديمة على أجهزة حديثة Digital كما أن قداسة البابا شنوده قام بتدريس اللغة القبطية للشعب لمدة عام كامل ١٩٧٥ م وكانت تنشر بمجلة الكرازة اسبوعياً .

---

* سيم أسقفاً على إيبارشية ملوى وأنصنا والأشمونين فى عيد العنصرة ١٩٨٦ بيد قداسة البابا شنوده الثالث. وفى عام ٢٠٠٩ عينه البابا شنوده الثالث رئيساً لقسم اللغة القبطية بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة.

أهمية اللغـة القبطيـة

هناك أربعة جوانب فى أهميـــة اللغـــة القبطيـــة هى أن اللغة القبطية:

١- معين فى فهم الكتاب المقدس

إذ تعتبر الترجمة القبطية للكتاب المقدس والتى تمت فى القرن الثانى المـــيلادى على يد العلامة بنتينوس مدير مدرسة الاسكندرية فى عهد البابـــا ديمتريـــوس الكـــرام بمثابة النص الكتابى .

٢ - وكذلك أن اللغة القبطية معين فى فهم العقيدة الأرثوذكسية .

٣ - وأيضاً فى فهم الأداء الطقسى والليتورجى .

٤ - وفى تحقيق التاريخ الكنسى .

ويمكن الرجوع إلى هذه المحاضرة (فى الكتيب و C.D الخاص بها) ومراجعة الأمثلة المتعددة المطروحة فيها .

هذا بالإضافة إلى أهمية اللغة القبطية كلغة مهددة بالاندثار كما تـــم شـــرح هـــذا الموضوع فى محاضرة بعنوان اللغة القبطية فى نصف قرن فى مؤتمر القبطيات الأول لمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة ٢٠٠٩ م .

وكذلك فى ان عدو الخير متربص لمحاربتها (من داخل الكنيسة وخارجها).

ولا يفوتنا أيضاً أن اللغة القبطية كانت المفتاح الذى فتح لشمبليون فـــك الرمـــوز الهيروغليفية ولولا هذا لضاع كل التراث المصرى القديم.

اللفظ الكنسى المستقر للغة القبطية صحيح وليس خطأ وليس به أية مشـــكلة تســـلتزم تغييره منذ أن قام البابا كيرلس الرابع بالنهضة والإصلاح الشامل والذى استحق عليه بجدارة لقب أبو الإصلاح، أمر لا يمكن أن نتجاهله وكذلك المجهود الضخم الفريد الذى قام بـــه د . راغب مفتاح فى تسجيل الألحان الكنسية من المعلم ميخائيل جرجس البتانونى كأول تســـجيل موثق . وليس هناك ما يبرر تغيير نطق اللغة القبطية الذى استقر فى الكنيسة.

ولندرس فكر الذين ينادون بهذا التغيير بطريقة موضوعية

١- أن اللفظ الذى ينادى به أصحاب هذا الفكر مبنى على مجرد نظريات ولـــيس ثوابت وهى أبحاث وإجتهادات شخصية وليست حقائق.

ومن طبيعة البحث العلمي في أي مجال وليس في اللغة القبطية فقط أن يظهر اكتشاف جديد يغير من استنتاجاتنا. فلو أخذنا بهذه الاستنتاجات ثم ظهرت أبحاث أخرى تتعارض معها في المستقبل فهل سنوقف التدريس حسب الاستنتاج الأول ونبدأ من جديد حسب الاستنتاج الأحدث وكلما حدثت استنتاجات جديدة نعود مرة أخرى من جديد ؟! .

هذا بالإضافة إلى أن بعض أصحاب هذا الفكر يرون تنفيذ خطتهم على مراحل وهذا أيضاً ليس علمياً ولا عملياً فبعد تنفيذ المرحلة الأولى من هذه الخطة (التي يقدرها أحدهم بجيل أو عدة سنوات) ثم نبدأ في تنفيذ المرحلة الثانية بتغيير نطق مجموعة أخرى من الحروف فسيصبح عندنا مجموعات مختلفة من الناس . مجموعة تتكلم حسب المرحلة الأولى ولا تريد التغيير للمرحلة الثانية ومجموعة تتكلم بالمرحلة الثانية وتعتبرها أدق علمياً وهكذا تصبح الفوضى والبلبلة هي القاعدة ونفقد التواصل ونفقد أي احترام للغتنا ونفقد التراث الموثق لألحان الكنيسة .

٢ـ اللفظ الذي ينادي به أصحاب هذا الفكر هو عبارة عن مزيج من اللهجات وليس اللهجة التي اعتمدتها الكنيسة منذ عصر البابا خرستوذولس الـ ٦٦ في القرن الحادي عشر بل ويلفظونها بلكنة صعيدية مع تأثيرات من اللغة العربية . فيضيفون لأحوال نطق حرف التاف Ϯ مثلاً لفظ الضاد [ض] ومعروف أن اللغة العربية هي التي تنفرد بهذا النطق [الحرف] لذا يسمونها لغة الضاد .

٣ ـ أصحاب هذا الفكر يقدمون لغة افتراضية وهمية وبعضهم ينادي بالتغيير بطريقة يسمونها حل وسط وينادون ليس بالتغيير في النطق فقط وإنما في المفردات والقواعد. فينادي أحدهم بتخصيص كلمة لكل معنى وتخصيص معنى لكل كلمة متجاهلاً الأدب اللغوي والبلاغة والتورية والنصوص الكتابية والكنسية والتاريخية التي تحوي المعاني المختلفة للكلمات الموجودة فعلاً .

كما ينادي بحل وسط في النطق بين النطق الكنسي ونطق فريق ضد نطق الكنيسة فيقول [.. بالوصول إلى حل وسط سواء بتصحيح بعض الخطأ الذي أصاب بعض الباحثين في القرنين الماضيين أو بالتنازل ببعض الصواب لأسباب عملية] .

فكيف نتنازل عن الصواب ؟!

كما يقول [... مع ابداء رأي الباحث الخاص في النطق القديم الارجح وفي النطق الحديث الأفضل حتى وان اختلف عن النطق القديم الارجح والاتفاق على نطق موحد هو خطوة لا غنى عنها لمن يريدون التحدث بها .] .

كما يقول [... إن كنا قد غيرنا النطق مرة إلى الأسوأ ويحاول الـــبعض حاليـــاً تغييـــره إلى ما يعتقـــدون أنه الأصح فلماذا لا نغيره إلى الأفضل إن كان هذا الأفضل لا يأخذنا بعيداً عن الأصح] .

٤- أصحاب هذا الفكر يقعون في تناقضات عديدة .

ينادى أحدهم بأن لفظه الجديد سيكون فى المحادثة فقط وليس فى المجال الكنسى ويعترف بأن هذه ازدواجية . فكيف يمكن للشخص أن يتحدث لغة واحدة داخل الكنيسة بلهجة وخارج الكنيسة بلهجة أخرى ؟ وفيما هو ينادى بإحياء اللغة القبطية كلغة تخاطب يقرر بفشل محاولات احيائها .

يتظاهرون [للمبتدئين فى الدراسة أو الذين خارج مجموعتهم] بأنهم محـــافظون على لغة ولفظ الكنيسة وبعد أن يتشبع بأفكارهم يتلمذونه على معاداة الكنيسة .

التغيير فى النطق هو الذى يسبب مشاكل والمحافظـــة على اللفظ الكنســـى يجنب الكنيسة هذه المشاكل.

من بين المشاكل التى يتسبب فيها هذا التغيير:

١- تشتيت وحدة اللفظ الكنسى مما يؤثر سلباً على سلامه روح العبادة داخل الكنيســـة ووحدانية وتناغم الصلاة التى هى من أهم خصائص الليتورجيا .

٢- تشكيك الأقباط فى دور الكنيسة الحالى وعبر التاريخ والمتمثل فى الحفـــاظ علـــى التراث القبطى والكنسى وبلبلة أذهان الأقباط من جهة نزاهة الاكليروس .

٣- تشكيل جبهة داخلية معارضة للقيادة الكنسية تكون بمثابة شوكة فى ظهر الكنيســـة على غرار جبهة العلمانيين المضادة .

٤- اخراج الكنيسة من دورها الرائد فى الحفاظ على اللغة القبطية والتـــراث القبطـــى الكنسى والمصرى .

٥- زرع روح الاعتداد بالذات والعلم وترجيحها على الايمان والعبادة والخضوع الكنسى.

٦- تكريس عمل انقسام جديد داخل صفوف الكنيسة القبطية يـــذكرنا بانشـــقاق خلقيدونيـــة المشئوم .

٧- محاولة زعزعة النطق الكنسى بالتشدد فى تطبيق القواعد اليونانية على الكلمات القبطية بطريقة غير المألوفة فى الكنيسة وبتضخيم بعض الحروف المتحركة والساكنة وإلغاء استخدام الجينكم تقريباً بحيث يقترب النطق من اللهجة الصعيدية .

٨- الارتداد بالليتورجيا القبطية نحو لفظ ثقيل وصعب على الآذان مما قد يؤدى إلى تغريب المؤمنين عن لغة الليتورجيا .

٩- حالة تشتيت وازدواج فى معايير اللغة القبطية داخل الكنيسة قد تطوح بمن تبقى من محبى اللغة القبطية خارج الكنيسة .

١٠ ـ تغذية روح التمرد والشغب وهدم الخضوع للكنيسة والاكليروس مما ينذر بموجة عثرة كبيرة .

١١- صنع فجوة بين صفوف مؤمنى الكنيسة القبطية قد يسئ أعداء الكنيسة استخدامها وتوسيعها بغرض الإضرار بالكنيسة القبطية .

١٢- محاولتهم عمل حالة اغراق باستخدام انتاجهم القبطى باللفظ المخالف لفرض الأمر الواقع على الكنيسة القبطية مما ينجم عنه حالة بلبلة .

١٣- الإكثار من القواعد اليونانية بل وتسمية بعض حروف الابجدية بأسماء يونانية (أوميكرون ـ أوميجا) والاصرار والتأكيد على الكلمات اليونانية واعطاء الاحساس بوجود قصور فى اللغة القبطية وجعل التمييز بين الكلمات اليونانية والقبطية شئ أساسى للمبتدئ رغم أنه من الأفضل عدم تشتيت المبتدئ والتركيز أكثر على الكلمات القبطية . وإضافة ألحان يونانية غير مستعملة فى الكنيسة القبطية فتشكل جانب آخر من صعوبة متابعة الصلوات الكنسية . ولعل ذلك مقصود لعدة أسباب منها :

أ- تهيئة مناخ تطبيق قواعدهم الجديدة فى ذهن الدارس بهذه الكلمات غير الشائعة الاستخدام حتى لا يشعر بنشاذ اللفظ المختلف عن لفظ الكنيسة .

ب- ليأكدوا اتهامهم للأرخن عريان مفتاح أنه أصبغ اللغة القبطية بصبغة يونانية .

١٤- تهديد اللفظ الكنسى العذب الذى ضبطه العلامة عريان مفتاح واعتادت عليه أجيال المؤمنين من أيام البابا كيرلس الرابع وتسلمه الجيل الحالى كتقليد كنسى .

١٥- خلق جو من الضيق والسجس بسبب الاختلافات حول نطق اللغة القبطية وبذلك يسأم الكثيرون ويذهب البعض إلى عدم استخدام اللغة القبطية وبهذا يكون عدو الخير قد حقق هدفه من محاربة اللغة القبطية .

أمثلـة لبعض الأخطـاء
التى يقع فيها أصحاب فكر تغيير اللفظ الكنسى

١ - يعطون نطق متماثل لعدة حروف .

فتتشوه الكلمات القبطية مثل :

ⲁ , ⲉ , ⲏ يجعلوا نطقهم جميعاً ⲁ .

ⲑ , ⲧ يجعلوا نطقهم جميعاً ⲧ .

ⲫ , ⲡ يجعلوا نطقهم جميعاً ⲡ .

فكلمة ϣⲏⲣⲓ بمعنى ابن ينطقوها ϣⲁⲣⲓ بمعنى إضرب . وكلمة ϩⲏⲧ بمعنـى قلـب ينطقوها ϩⲁⲧ بمعنى فضة . والذى ينادى بحل وسط ويريد أن ينطق ⲏ مثـل ⲉ سـوف يتحول نطق الكلمة ϣⲏⲣⲓ بمعنى ابن إلى ϣⲉⲣⲓ بمعنى بنت . فماذا سيقول فـى البسـملة المسيحية (باسم الآب والابن ... ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ⲙ̀Ⲫⲓⲱⲧ ⲛⲉⲙ `Ⲡϣⲏⲣⲓ ...) .

وكذلك كلمة ⲚⲈⲚⲤⲀϪⲒ بمعنى كلامنا ينطقوها ⲚⲀⲚⲤⲀϪⲒ بمعنى كنا نتكلم .

وكلمة ⲑⲱⲟⲩ̀ⲓ بمعنى حذاء ستنطق مثل كلمة ⲧⲟⲟⲩ̀ⲓ بمعنى صباح .

فبماذا ستفهم تحية الصباح ؟! .

وكلمة ⲑⲉⲃⲓ بمعنى مغارة ستصبح ⲧⲉⲃⲓ بمعنى خمسون .

وكلمة ⲑⲓϧⲓ بمعنى يسكر ستصبح ⲧⲓϧⲓ بمعنى كركى (نوع من الطيور) .

وكلمة ⲫⲁⲓ أداة الاشارة المنفصلة للمذكر ستصبح ⲡⲁⲓ وهى الاداة المتصـلة وليسـت المنفصلة .

وكلمة ⲑⲁⲓ أداة الاشارة المنفصلة للمؤنث ستصبح ⲧⲁⲓ وهـى الاداة المتصـلة وليسـت المنفصلة .

وهكذا .. والعجيب أن أحدهم يعتبر هذا ميزة وليس عيباً .

+ وقد تعطى معنى عكسى للمعنى الاصلى للكلمة مثل :

عندما ينطقون ϵ مثـل ⲁ سـتنطق كلمـة ⲉⲧⲧⲁⲓⲏⲟⲩⲧ بمعنـى المكـرم ⲁⲧⲧⲁⲓⲏⲟⲩⲧ غير مكرم (عديم الكرامة) ، وكلمة ⲉⲑⲛⲁϩϯ بمعنى الذى يؤمن ستنطق ⲁⲑⲛⲁϩϯ غير مؤمن ــ عديم الايمان .

+ وقد تغير زمن الفعل مثل ⲉⲕ (من المضارع المستمر) ستصبح ⲁⲕ فى زمـن الماضى البسيط مثل:

ⲁⲕ	⟵	ⲱ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲕⲉⲛⲁϩⲙⲉⲛ	يارب خلصنا
ⲁⲕ	⟵	ⲱ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲕⲉⲥⲟⲩⲧⲉⲛ ⲛⲉⲛⲙⲱⲓⲧ	يارب سهل سبلنا
ⲁϥ	⟵	ϫⲉ ϥⲙⲉⲩⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲣⲱⲙⲓ ⲉϥⲉⲟⲩⲱⲛϩ ⲛⲁⲕ	
ⲁϥ	⟵	ⲉ̀ⲃⲟⲗ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲟⲩⲟϩ ⲡ̀ⲥⲱϫⲡ ⲛ̀ⲧⲉ ⲟⲩⲙⲉⲩⲓ ⲉϥⲉ̀ⲉⲣϣⲁⲓ ⲛⲁⲕ ...	

إن فكر الانسان يعترف لك وبقية الفكر تعيد لك ...

٢ــ غياب كثير من الأصوات الطبيعية والحيوية الموجودة فى معظم لغات العـالم والموجودة فى اللغة القبطية :

مثل الغاء صوت (V)من حرف ⲃ ومن حرف ⲩ لتصبح (و) .

الغـــاء صوت ث مـن حـرف ⲑ لتصبح (ت) .

الغـــاء صوت ف مـن حـرف ⲫ لتصبح (ب) .

الغـــاء صوت ذ مـن حـرف ⲇ لتصبح (د) .

فبينما اللغات الاخرى تضيف إلى أصواتها ما ليس بها مثل پ ، ڤ فى العربـى ومثل ... ph , ch , sh , gh , kh فى الانجليـزى واللغـات اللاتينيـة الأخـرى يطالب هؤلاء بالغاء الاصوات الموجودة فى اللغة القبطية أصلا .

٣ ــ المقطـــع (ⲟⲩ) يلفظونـــه فـــى معظـــم الاحيـــان (و) ولـــيس (أو) أو لا يلفظونه:

مثل كلمة ⲟⲩⲱⲣⲡ بمعنى يرسل يلفظونها ⲱⲣⲡ فقط وهكذا ...

٤ــ يرون أن نطق ϫ يكون معطشاً باستمرار متجاهلين قاعدة نطق هذا الحرف إذ يجب أن يكون معطشاً بعد الكسرة فقط وينطق ج عادية فى غيـــر ذلـــك . وعندما ينطقونها دائماً معطشة فهى تشكل صعوبة ونشـــاذ فـــى النطـــق مثل ϫⲁⲙⲟⲩⲗ , ϫⲁϭⲓ , ϫⲟⲩϣⲧ , ϫⲟⲥ .

٥ــ يلجأون إلى حذف المقاطع أو الحروف المكررة فى الكلمة :

مثل كلمة ϯⲉⲕ̀ⲕ̀ⲗⲏⲥⲓ̀ⲁ ينطقوها ϯⲉⲕⲗⲏⲥⲓ̀ⲁ وعندما يحذفون الجينكم مـــن آخر الكلمة تصبح ϯⲉⲕⲗⲏⲥⲓⲁ . وكذلك كلمة ⲁⲗⲗⲁ يحولوا نطقها إلـــى ⲁⲗⲁ وهكذا .

٦ــ يخلطون بين اللهجات ويستخدمون الكلمات الصعيدية على أنها كلمات بحيرية مثل:

الكلمة الصعيدية	الكلمة البحيرية	المعنى
ⲁⲃ	ⲁϥ	لحم ــ ذبابة
ⲡⲁⲕ	ⲁ̀ⲃⲱⲕ	غـــــراب
ϯⲟⲩ	̀ⲧⲓⲟⲩ	خمسة (مذكر)
ϯ	̀ⲧⲓⲉ	خمسة (مؤنث)

وعندما يقولـــون لحن ̀Ⲏⲁ̀ⲅⲁⲡⲏ يغيرون لفظ الخمس مدن الغربية من البحيرى إلى الصعيدى فبدلاً من أن يقولـــوا ⲛⲉⲙ ϯ̀ⲧⲓⲟⲩ ̀ⲙⲃⲁⲕⲓ ̀ⲙⲡⲉⲙⲉⲛ̀ⲧ أو ... ϯ̀ⲧⲓⲉ يقولونهـــا ⲛⲉⲙ ϯϯ ̀ⲙⲃⲁⲕⲓ ̀ⲙⲡⲉⲙⲉⲛ̀ⲧ وهذا تشويش على اللفظ الكنسى باللفظ بلهجة صعيدية .

فضلاً عما يحدثه هذا من التغيير فى نغمة اللحن .

٧ ـ يلجأون إلى حذف الجينكم (`) Ⲡⲓϫⲓⲛⲕⲓⲙ فى معظم الاحيان وهذا يسبب لبساً فى المعنى وتحريفاً فى اللفظ وتغيير فى الاداء الطقسى للحن مثل:

الكلمة باللفظ المحـــرف	الكلمة باللفظ الكنـــســـى
ⲡⲉⲥⲧⲁⲩⲣⲟⲥ	ⲡⲓ/ⲥ̀/ⲧⲁⲩⲣⲟⲥ
ⲡⲁⲣⲭⲏ	ⲡ̀/ⲁⲣⲭⲏ
ⲙⲁⲧ/ⲥⲁⲃⲟⲓ	ⲙⲁ/ⲧ̀/ⲥⲁⲃⲟⲓ
ⲧⲉⲧⲣⲓⲁⲥ	ϯ/`ⲧ/ⲣⲓⲁⲥ
ⲡⲉⲑⲣⲟⲛⲟⲥ	ⲡⲓ/ⲑ̀/ⲣⲟⲛⲟⲥ
ⲙⲉⲩⲓ	ⲙⲉⲩ/ ⲓ̀
ϫⲉ ϥⲉⲥ/ⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ	ϫⲉ ϥ̀/ ⲥ̀/ⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ
ϩⲓⲡϣⲁϥⲉ	ϩⲓ ⲡ̀ϣⲁϥⲉ

وهكذا ..

وينتج عن ذلك تغيير فى اللحن الكنسى فعندما يحذفون الجينكم (ـ) ⲡⲓϫⲓⲛⲕⲓⲙ فـــى لحن Ⲡⲓⲡ̀ⲛⲉⲩⲙⲁ ويلفظونها ⲡⲉⲡⲛⲉⲩⲙⲁ وفى لحــن الابركســيس يلفظونهـــا ⲡⲣⲁⲝⲓⲥ بدلاً من ⲡ̀ⲣⲁⲝⲓⲥ فيكون لفظ الكلمة غير دقيق وقد تغير هجائهـــا والـــنغم أيضاً ليس هو النغم الاصلى للحن والمحفوظة تسجيلاته بمعهد الدراسات القبطيـــة كأقـــدم وثيقة صوتية للألحان .

وإذا حذف الجينكم من كلمة ⲡ̀ⲁ̀ϣⲁⲓ بمعنى الكثرة أو الزيـــادة ستصـــبح ⲡⲁϣⲁⲓ بمعنى عيدى (العيد الذى يخصنى) .

وكلمـــة ⲉ̀ⲡ̀ϣⲱⲓ بمعنـــى إلـــى فـــوق ستصـــبح ⲉⲡϣⲱⲓ أى ســـامى أو عـــالى وعبـــارة ⲁϥϭⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲱⲓⲕ أخذ خبـــزاً ستصبـــح ⲁϥϭⲓ ⲛⲟⲩⲱⲓⲕ أخذ خبزهم.

وهكذا ...

٨ ــ يلجأون إلى استخدام الحروف العربية أو اللاتينية فى كتابة اللغة القبطية .

فتبعد المتعلم عن التعامل مع الحروف القبطية وبالتالى لا يمكن أن يجيد قراءة اللغة القبطية ويكون إحتمال الخطأ فى النطق كبيراً جداً جداً .

بل أن أحدهم ينادى بمرحلة جديدة للغة القبطية بكتابتها بحروف لاتينية .

٩ ــ يستخدمون الكلمات الدارجة فى اللهجة العامية فى مصر والتى من اصل قبطى على أنها الكلمات القبطية الأصلية :

مثل منجلية يكتبها بعضهم ⲙⲁⲅⲅⲉⲗⲓⲁ رغم أن أصلها ⲡⲓⲙⲁⲛⲉⲩⲁⲅⲅⲉⲗⲓⲟⲛ .

أى مكان الانجيل (أو المكان الذى يوضع فيه الانجيل) .

١٠ــ يلجأون إلى إختصار بعض الكلمات بطريقة مخلة وقد تعطى عكس المعنى مثل:

عبارة ⲗⲁⲁⲩ ⲙ̀ⲙⲟⲛ بمعنى لا شئ ــ العفو

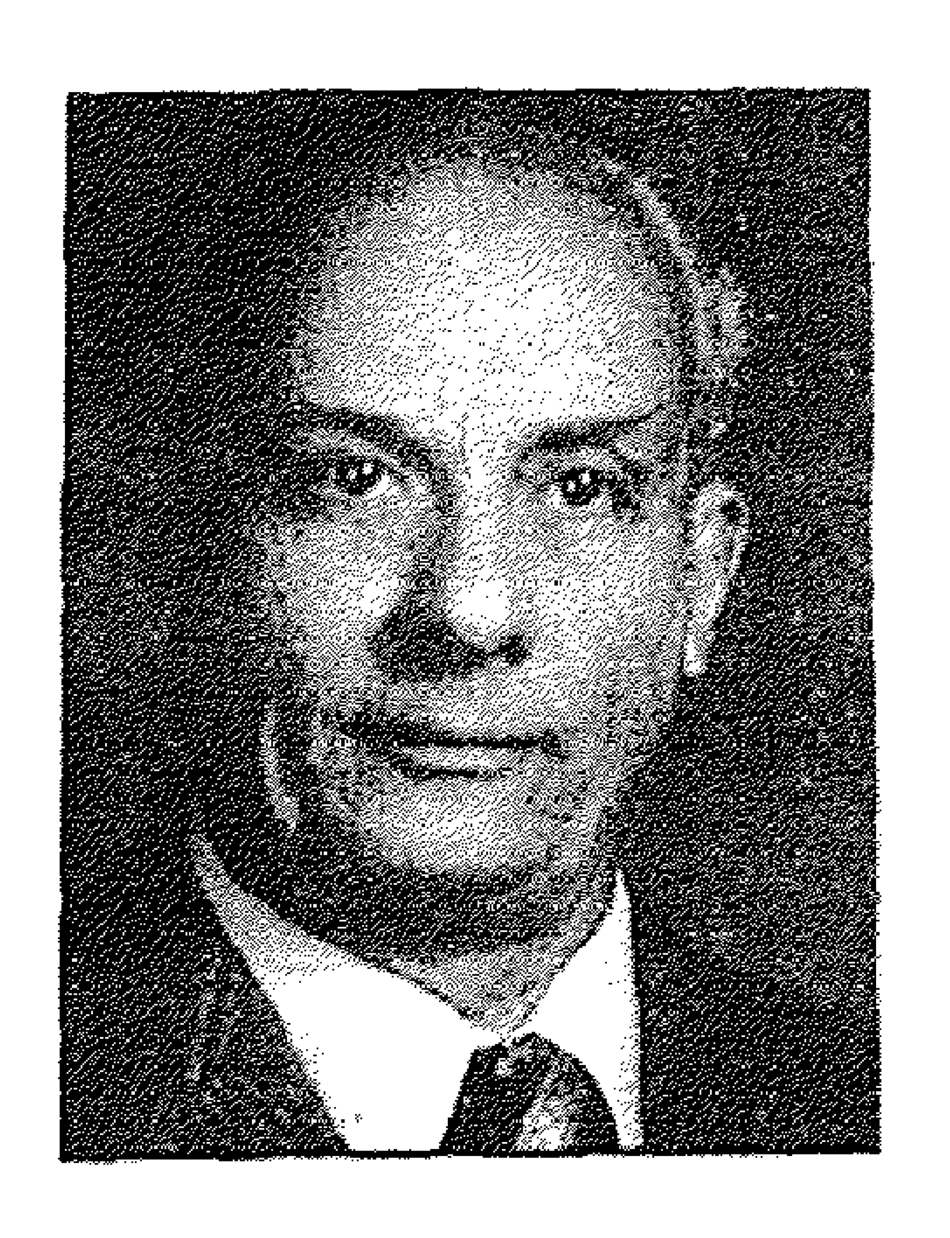
يختصرونها إلى كلمة ⲗⲁⲁⲩ فقط رغم أن كلمة ⲗⲁⲁⲩ بمعنى شئ وكلمة ⲙ̀ⲙⲟⲛ هى التى تنفيها .

١١ــ إهمال واغفال الكلمات القبطية المألوفة واستخدام كلمات أخرى غير مألوفة أو لا وجود لها عن تعمد مثل :

ترك كلمة ⲓⲁⲃ بمعنى فيل واستخدام كلمة لا وجود لها ⲉⲗⲉⲫⲁⲥ وإن قلنا أنها يونانية فهى ليست الكلمة اليونانية الأصلية فالكلمة اليونانية الأصلية هى ⲉⲗⲉⲫⲁⲛⲧⲓⲛⲟⲛ .

التعليم فى العصر القبطى

د. سليمـــان نسيـــم*



إضافات المسيحية إلى التراث التربوى المصرى:

بدخول المسيحية مصر سنة ٦٤م واصل المصريون خطتهم التربوية فى إعـداد أولادهم للحياة الناجحة وإن تغير الهدف الذى تحول إلى إعدادهم للإستشهاد فى سـبيل الإيمان الجديد. لقد كان التعليم والتعلم سمة من السمات التى ميزت التـراث المصـرى القديم فلما جاءت المسيحية، وهى تقوم فى إنتشارها على التلمذة، تأكدت هذه السمة فـى حياة المصريين مع الاختلاف فى المحتوى من الفكر الدينى المصرى القديم إلـى الفكـر المسيحى. أما من حيث الشكل فقد بقى التعليم على ما كان عليه فى العصرين المصـرى القديم والإغريقى:

١- فالمدرسة ملحقة بالكنيسة كما كانت ملحقة بالمعبد وقد أكدت شـهادة المـؤرخ يوسابيوس - فى القرن الرابع - هذه الحقيقة بقوله "إنها كانت عادة المسيحيين أن ينشئوا المدرسة فى كل مكان ينزلون فيه".

٢- أما اللغة المستخدمة فى التعليم فقد بُسطت لتصبح أبجديتها مكونه من ٢٥ حرفاً يونانياً مضافاً إليها سبعة أحرف مصرية وكان ذلك إيذاناً بظهور الأبجدية القبطيـة فـى أواخر القرن الثانى الميلادى.

* (١٩٢٣ - ١٩٩٨) أستاذ أصول التربية بجامعتى حلوان والقاهرة. رئيس تحرير مجلة مدرسة الأحد.

٣- غلب على التعليم طابع السؤال والجواب.

٤- بقى للمكتبة دورها الكبير فى عمليتى التعلم والتعليم خاصة وأن الإسكندرية درجت على أن تكون سوقاً رائجة لتجارة الكتب.

٥- بإنشاء المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، وهى التى عاصرت المدرسة البطلمية الوثنية، برزت سمة التلمذة وخاصة للمرشحين لتولى مناصب كهنوتية وكان لتوافر هذه السمة دلالتها فى أن الكنيسة اتبعت خطوات السيد المسيح فى منهج التعليم وإعداد المعلمين.

٦- كان من الطبيعى أن تتطور خطة التربية بتغير الظروف السياسية والاجتماعية: ففى العصر الرومانى الوثنى، وحتى الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة سنة ٣٧٩م، كانت التربية تستهدف إعداد النشء للإستشهاد فى سبيل الإيمان. فلما جاء الإضطهاد المذهبى للمصريين، والذى استمر حتى الفتح العربى سنة ٦٤١م، بسبب تمسكهم بعقيدة الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، تغير مضمون التربية ليصبح مزيداً من الثبات فى الإيمان الأرثوذكسى فى مواجهة عقيدة الملكانيين.

٧- فى سبيل تأكيد هذا الإيمان ترك بعض الآباء تعاليم فى أفضل الأساليب لتعليم النشء أصبحت مع الوقت تراثاً تربوياً. ومن هؤلاء الآباء العلامة إكليمنضس، الذى ترك كتاب "المربى". وهؤلاء لم يدعموا الكنيسة والإنسانية بتراث زاخر من التوجيهات التربوية فحسب، وإنما هم أنفسهم عاشوا حياة الإنجيل عملياً، إذ تربوا وسط عائلات مسيحية حقة فكانت حياتهم هى فى ذاتها إضافة تربوية.

٨- لم يكن جهاد الكنيسة منحصراً فقط فى الدفاع عن الإيمان، وإنما امتد إلى الحفاظ على القومية المصرية، وظهر ذلك فى مجال الدفاع عن اللغة القبطية، والعمل على التخلص من كل ما هو يونانى، فى أدبياتها، ومجالات استخدامها المختلفة، فضلاً عن ترجمة الكتاب المقدس إليها، لتتوحد ثقافة الشعب، ويتجمع، ككل، حول شعار قومى واحد. وكان معنى هذا تربوياً: الاهتمام بتعليم اللغة القبطية، ودراسة قواعدها، ووضع القواميس لها، فتناقلت الأجيال التالية إلى هذا الإهتمام جيلاً بعد جيل.

هذا فيما يتصل بالشكل، فإذا أتينا إلى المضمون، وجدنا أنه بالرغم مما يشير إليـــه بعض علماء البرديات، مثل "إدرس بـــل" Idris Bill الإنجليـــزى، و "فلكـــن" Wilcken الألمانى، وغيرهما، إلى قلة البرديات، التى عثر عليها والخاصة بالتعليم. إلا أننا نستطيع أن نؤكد من تطور الأحوال، أن ثمة إضافات قدمتها المسيحية إلى مضمون التعليم ، وهى إضافات التقت مع الكثير من عناصر التراث التربوى المصرى القديم. وهذه الإضـــافات هى: إكرام المسيحية للطفولة دون تمييز بين الولد والبنت، إكرام الوالدين، إستقرار الأسرة القبطية على أسس روحية. والإهتمام بالعبادة العائلية مما جعل للأسرة الـــدور التربـــوى الأول فى إعداد الأجيال الناشئة إعداداً مسيحياً حقاً، إتباع قانون المحبة وهو التجسيد الحى للفكر المسيحى والوصية المسيحية، إهتمام الكنيسة بإقامة الطقوس التى اعتبرت مع الوقت وسائل تربوية متجددة.

ولقد أكدت أقوال المؤرخين المعاصرين لهذه الحقبة أنه "بتأسيس الكنيسة المســيحية بدأ حكم المحبة على الأرض"، وأن "المسيحية نظام هادف له غرض محدد فـــى تغييـــر القلوب فالمسيحية لم تكن مجرد تعليم أو عقيدة ولكنها حياة وضـــعت مســـتويات جديـــدة السلوك". وهى أقوال تؤكد أن المسيحية قدمت الكثير من القيم التربوية العملية المســـتمدة من وصايا السيد المسيح ومن النموذج الصالح الذى تركه، وكذلك من سير وحياة القديسين والشهداء والنساك والمعلمين. لكن لعل أهم ما تميزت به القيم المسيحية ارتباطهـــا بقـــوة داخلية، هى التى عرفها القديسون بأنها عمل النعمة فى باطن الإنسان المؤمن، وهى التى تمكنه من تطبيق الوصية المسيحية وكل ما تقترن به من التزامات. وكان هذا أعظم عامل فى تنمية إرادة الفرد المسيحى وتمكينه من تجديد سلوكه وأسلوب حياته.

أوساط التربية فى العصر القبطى:

أولاً- الأسرة: قامت الأسرة بدور بارز فى إعداد أبنائها وبناتها للحيـــاة المســـيحية عميقة الإيمان، صادقة المحبة. وكان للرباط الإلهى الذى ترتبط به الأسرة القبطية، وعدم قابليته للإنحلال أو الإنفصام، فضلاً عن موالاة الكنيسة لرعايتهـــا، وتخصـــيص حجـــرة للعبادة العائلية، ومواصلة سرد سير القديسين من الآباء والشهداء والمعترفين، أكبر الأثر فى إحاطة الأطفال، خاصة فى مرحلة طفولتهم المبكرة، وقبل ذهابهم للمدرسة، بضمانات قوة الإيمان، والأمان والاستقرار والحب والحنان، مما كان يترك أعمق الأثر فى تكـــوين شخصياتهم، فى مراحل حياتهم التالية، لتمتلئ بروح اليقين والفضيلة المسيحية الحقة.

ثانياً – المدرسة: كانت أول مدرسة مسيحية هى التى أنشأها القديس مارمرقس بالإسكندرية. ومن دراسة سير الآباء البطاركة وعلماء الكنيسة، مثل القديس بطرس خاتم الشهداء، والقديس أثناسيوس، وغيرهما، أو سير بعض الأشخاص العاديين مما نشأوا فى حضن الريف، فى ظل الأسر المسيحية التقية، ثم نموا فى النعمة حتى كرسوا حياتهم لخدمة الإيمان والكنيسة كالقديس أنطونيوس مثلا. نقول إنه من دراسة هذه السير وتتبعها يتضح لنا أن التعليم فى العصر القبطى كانت تنتظمه مرحلتان أساسيتان:

المرحلة الأولى: مرحلة التعليم الأولى:

وميدانها المدرسة الأولية الملحقة بالكنيسة أو بالدير القريب بديلاً عن المعبد فى العصور المصرية القديمة، والتى كان الطفل يلتحق بها عادة فى الخامسة من عمره ليدرس اللغة، وتعاليم الكتاب المقدس، ويستظهر بعض المزامير والألحان الكنسية. أى أن تعليم أدوات المعرفة كان دائماً يأتى فى مقدمة مناهج التعليم. وهذا أمر طبيعى. لكن كانت تضاف إليها دراسة الرياضيات التقليدية والمعروفة لدى المصريين منذ الأزمنة القديمة: حساب المساحات والموازين والمكاييل، وحتى منتصف القرن الثانى كانت اللغة الأساسية التى تعلم الأطفال هى اللغة اليونانية إلى أن وضع بنتينوس الأبجدية القبطية فى أواخر القرن الثانى الميلادى، فأصبحت اللغة القبطية تعلم بالمرحلة الأولى، وكان التعليم بهذه المرحلة مجانياً، وإجبارياً، وللجنسين دون تمييز، ولأن المدرسة ملحقة بالكنيسة فاحتياجاتها تقوم بها الأسر المسيحية عن رغبة واختيار.

المرحلة الثانية: مرحلة التخصص:

وتقوم على أساس التلمذة لمعلم خاص إلى جانب الدراسة بالمدرسة اللاهوتية التى كانت تعد طلابها لوظائف الكهنوت والشموسية. على أن هذا التخصص – كما يذكر بُتس Butts – لم يمنع من وجود المدارس المدنية الحكومية التى تعد طلابها للخدمات المدنية المختلفة.

مدارس الموعوظين:

كانت الفترة التى يقضيها تلاميذ هذه المدارس لا تتجاوز فترة الصوم الكبير لكنها بمرور الوقت امتدت إلى عامين أو ثلاث أعوام كان الطالب يتدرج خلالها فى مراحل ثلاث:

الأولى: مرحلة الاستفسار:

وفيها يستمع الطالب إلى فكرة عامة عن المسيحية من خلال التعليم الفردى: أى التلمذة لأحد المعلمين، وكانت هذه الطريقة تقوم على أساس السؤال والجواب.

الثانية: مرحلة الاستماع:

وفيها يُسمح للطالب بدخول الكنيسة ليستمع إلى القراءات الكنسية وتفسيرها حتى نهاية قداس الموعوظين.

الثالثة: مرحلة التأهيل لنوال سر العماد:

وفيها يستطيع الطلاب بعده حضور القداس كاملاً للتقدم فى نهايته للتناول من الأسرار المقدسة. هذا النظام كان يتبع مع الكبار الراغبين فى الدخول إلى المسيحية ليصبحوا أعضاء فى الكنيسة. فقد كان تعريف الموعوظين بحقائق الإيمان المسيحى من أهم المهام التى تضعها الكنيسة فى اعتبارها الأول بين واجباتها. ولقد ظلت هذه المدارس تقوم بمهمتها فى التعليم الروحى حتى القرن الخامس حين ثبتت الديانة المسيحية، وزالت دولة الوثنية، وثبتت أيضاً عادة عماد الأطفال وأصبحت المبادئ المسيحية تُسلم للصغار بطريقة طبيعية. فانتفت بذلك الحاجة إلى وجود مدارس الموعوظين الكبار.

تعليم البنت:

لم يكن ثمة مانع – منذ عهود مصر الفرعونية – من تعليم الفتاة، وكثير من النصوص البردية تدل على ذلك. فلما جاءت المسيحية دعت إلى الاتجاه نفسه بل وإلى إشراكها فى الخدمة كشماسة تعاون الكاهن فى خدمة السيدات والكرازة بينهن بالمسيحية فى فترة الوثنية، مما جعل من الضرورى منحها الحق فى التعليم منذ الطفولة. ولما أنشئت الأديرة لم تتأخر الفتاة القبطية عن التقدم لنذر الرهبنة. وعرفت أديرة القديس باخوميوس والقديس شنوده – فى القرنين الرابع والخامس – الكثير من أديرة الراهبات وخضوعها لذات النظم التى اتبعتها أديرة الرهبان.

مرحلة التعليم العالى فى العصر القبطى:

نجح المفكرون والعلماء المسيحيون فى تطوير أساليب التعليم المسيحى، والوصول ببحوثهم ودراساتهم إلى مستوى عال جداً، يقف جنباً إلى جنب مع تعليم آراء الفلاسفة الوثنيين. وبذلك لم تقل إسكندرية العصر المسيحى عن إسكندرية العصر الإغريقى. وكان

أساتذة هذه المدرسة نموذجاً للحياة المسيحية المتكاملة التى تجمع بين العلم والدين واتجهوا إلى أسلوب التلمذة على النمط نفسه الذى اتبعه السيد المسيح والآباء الرسل من بعده. وتدريجياً أصبحت المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، بمن انضم إليها من أهل الفكر والفلسفة، الذين كانوا أصلاً وثنيين واعتنقوا المسيحية، "عقل المسيحية المفكر"، مما أتاح لبابواتها رئاسة المجامع المسكونية، والتصدى بجدارة لمقاومة البدع والهرطقات، وكتابة الرسائل الفصحية – أى فى مناسبة عيد الفصح – للرد عليها.

أما عن مناهج هذه المدرسة فقد اشتملت على أصول العقيدة مع تفسيرها وشرحها، كما وجه الإهتمام إلى تنمية قوى التفكير والملاحظة التى كانت وسيلتها الدراسات العملية البحتة كالهندسة، وعلم وظائف الأعضاء والفلسفة والشعر.

أدوات التعليم:

إستخدم المتعلمون أوراق البردى، وإن كان ذلك نادراً، بسبب إرتفاع ثمنها، أما الأغلب وخاصة فى التعليم الأولي فكان إستخدام قطع الشقافة، والرقوق، والألواح الشمعية والخشبية، كما استخدموا الأسلاك الرفيعة بدلاً من الأقلام. وقد عُثر على الكثير من هذه الآثار وعليها نصوص من الإنجيل بالقبطية الصعيدية، ومواعظ باللغة البحيرية، وسير قديسين، وصلوات، ومزامير، ومدائح. ولا يزال الجانب الأكبر من هذه الآثار موجوداً بالمتاحف والمكتبات بأوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

التعليم المهنى:

منذ فجر التاريخ عرفت مصر الكثير من الآلات والأدوات كان يتسلم صناعاتها الأبناء عن الآباء. وحقيقة لم توجد مدارس نظامية للتعليم الفنى، كما هو معروف فى نظامنا التعليمى الحديث، إلا أن المصريين برعوا براعة فائقة فى الفنون الصناعية التى كانت تتطور من جيل إلى جيل، وتصل تدريجياً إلى درجة فائقة من الصقل والجودة وهذه الفنون مثل: أعمال البناء، والمعمار، وصناعة المنسوجات بمختلف أنواعها التيلية والحريرية والصوفية، وأعمال الزخرفة والتشكيل بمختلف الأشكال وعلى مختلف المواد والعناصر، ثم صناعة الزجاج، والأثاث، والسفن، والأدوات المعدنية، والحربية، والورق والحلى وأدوات الزينة، والتطعيم بالعاج والأبنوس، والحفر على الخشب. ومما ساعد على

إرتقاء هذه الفنون اختلاط المصريين المتواصل بشعوب البحر المتوسط، فكان ذلك من أهم العوامل فى تطوير صناعاتهم، وارتفاع مستوى إتقانها بل وإضافة الكثير من الصناعات الجديدة إليها كصناعة المرمر والحلى وصقل الأحجار الكريمة كاللؤلؤ والعاج والأصباغ وأنواع الأخشاب النادرة. ومن جيل إلى جيل كانت مهارة المصرى تنتقل إلى أولاده وأحفاده، يمارسونها بالمزيد من الدقة والمهارة فكان أن أصبحت فى مصر مراكز صناعية عرفت بالتخصيص نذكر منها تانيس ودمياط وأخميم وأسيوط وغيرها وبها قام الكثير من المصانع الصغيرة التى كان المصريون يمارسون فيها مهنهم ويسلمونها لأولادهم ليواصلوها من بعدهم. فكان هذا نوعاً من التعليم استهدف حفظ التراث بطريقة التسليم.

أما المعابد المصرية، ومن بعدها الكنائس فى العصر المسيحى، فقد اشتهرت بصناعة الزيوت والمنسوجات الكتانية والصوفية، وأوراق البردى، والحبال والجلود. فلما أنشئت الأديرة واصل الراهب المصرى، وهو القادم من صميم المجتمع المصرى والريف المصرى، فنون أسلافه من الصناع والفنانين بل وزاد عليها ما تطلبته العبادة داخل الدير فنهض بصناعات النسيج لملابس الرهبان، والخشب والمسارج والأوانى المعدنية والشمعدانات والمباخر والتحف والزجاج والتجليد. والمتأمل فى تحف وزخرفة عهد أخناتون على سبيل المثال، سوف يرى التشابه الكبير بينها وبين تحف وزخارف أديرة باخوميوس وأديرة وادى النطرون والبحر الأحمر. ومن هنا لا نعجب إذا رأينا العرب، بعد فتحهم لمصر، يعتمدون اعتماداً تاماً على الصناع والفنيين القبط مما ساعد على تواصل وبقاء الفن الصناعى، والمهن والحرف المختلفة، على امتداد العصور الوسطى، وحتى وقتنا الحاضر. ففى المراكز الصناعية المصرية استمرت الفنون قائمة بذات الخصائص التى تميزت بها قبل الفتح العربى. ونستطيع أن نرى فى هذه الأمثلة، كلها، دليلاً على أنه كان هناك تعليم مهنى بشكل ما، وأن هذا التعليم احتفظ للفن الصناعى بخصائص واضحة: فهو أولاً فن مصرى، كما أنه ليس دينياً كنسياً فقط، لكنه فن يخدم أغراض الحياة العامة واليومية، سواء فى المنزل أو فى المعبد، فى القرية أو المدينة، على مستوى المجتمع العام، وكذلك على مستوى الأسرة وهى المجتمع الخاص.

التعليم فى الأديرة:

كان لكل دير نوعان من المدارس:

الأول: المدارس التى يقيمها لتعليم رهبانه وتسليمهم التراث الرهبانى.

الثانى: المدارس التى يقيمها خارجه لتعليم أبناء الشعب. ولندرس كل نوع من هذه المدارس بشئ من التفصيل.

أولاً- المدارس داخل الدير:

فى عهد الرهبنة الأولى، التى أسسها القديس الأنبا أنطونيوس، على أواخر القــرن الثالث، أخذ التعليم شكل التلمذة الفردية الخاصة، والتوجيه الروحى المتخصــص، الــذى بموجبه كان الراهب المبتدئ يتسلم قواعد الحياة الرهبانية من نسك وسهر وصوم وعبادة وحب للخلوة وممارسة أعمال الإماتة لشهوات الحواس.

أما التعليم الديري:

أما التعليم الديرى، الذى وضعت أسسه وخططه وفقاً لقوانين القديس بــاخوميوس، باللغة القبطية، أوائل القرن الرابع، فقد أكد على الشكل الجماعى فى التعليم والذى يمكــن توضيحه على الوجه الآتى:

١- اشتراطه على طالب الرهبنة قضاء ثلاث سنوات كفترة إعداد واختبار لإعداده لتقبل إلتزامات الحياة الجديدة والعمل بشروطها.

وخلال هذه الفترة كان يتعلم القراءة والكتابة إن كان جاهلاً بهما، يحفظ عن ظهــر قلب عدداً من المزامير وفصول العهد الجديد، يطالع سير الآباء ويمارس حيــاة الخلــوة وإماته الشُهوات الرديئة.

٢- جدول الدراسة بأديرة باخوميوس: نظم باخوميوس ثلاثة دروس يومية للمبتدئين ودروس أخرى عامة يومى الأربعاء والجمعة لتفسير الكتب المقدسة والتعاليم المســيحية. وكان حضورهما إجبارياً.

٣- تقسيم الرهبان إلى مجموعات تضم كل مجموعة جنســية معينــة: الســريان، اللاتين، اليونان، الإثيوبيين ...إلخ. وكان لكل مجموعة معلم يُختار من بــين أعضــائها للتفاهم معهم وإرشادهم.

٤- المكتبة ودورها في التعليم: إنطلاقاً من الاهتمام باقتناء الكتب وتكوين المكتبات، منذ عهود مصر القديمة، وُجدت بكل دير فئة النُسَّاخ والكُتَّاب، وكانت تمثل عملاً من أهم الأعمال داخل الدير إذا انحصرت مهمتهم فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات بمكتبة الدير.

ومن هذه المخطوطات: أسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، كتب التسبحة، والخولاجيات والاجبيات (أى صلوات الساعات)، وصلوات البصخة، وكتب الميامر، والقطمارس السنوى، وسير الآباء البطاركة، وخطاباتهم الخاصة للرد على البدع، وترجمات حياة الشهداء وأعمالهم، وكتب تكريس الكنائس وإقامة الرعاة، وقوانين الكنيسة، والردود على الخلافات العقائدية واللاهوتية. وبنفس أدوات الكتابة التى استخدمها قدماء المصريين، وما قد يكون قد أدخل عليها من تطوير وتحسين، قام الآباء الرهبان بنسخ كتبهم مستخدمين الزخارف المختلفة وخاصة التى على شكل صليب. وجدير بالذكر أنه كان لكل من المخطوطات الثمينة جراب (حافظة) إما من الجلد أو من الخشب أو من الفضة أو الذهب.

٥- نظم التعليم: اتحدت نظم التعليم التى كانت متبعة فى الأديرة جميعاً، بما فيها أديرة الراهبات أيضاً، إلا أن أديرة الأنبا شنودة، رئيس المتوحدين، قرب سوهاج، تميزت بدراستها للآداب القبطية التى سجلت باللهجة الصعيدية التى عمل هذا القديس على تخليصها من كل المؤثرات البيزنطية. بالإضافة إلى ذلك فقد حتم قانون باخوميوس ضرورة العمل اليدوى والمهنى، وكانت مجالاته: صناعة الحصر، والحياكة، والنجارة والحدادة، والفلاحة، والمعمار، والبناء؛ فضلاً عن أعمال النسخ والكتابة. فى الوقت نفسه كان الرهبان يقومون على كفالة احتياجات الدير عملاً بالمبدأ الإنجيلى "إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً" (٢ تس ٣ : ١٠) وهو مبدأ تربوى عميق المعنى.

ثانياً المدارس خارج الأديرة:

لم تكشف لنا آثار العصور الوسطى عن المدارس التى أنشأتها الأديرة، ربما لإندثار واختفاء معالمها، ويبدو أن القبط كعادتهم، خاصة الرهبان منهم، دأبوا على إنكار ذواتهم فيما يقدمونه من خدمات سواء لأمتهم أو لكنيستهم، غير أننا نعلم أن:

(أ) دير القديس أنطونيوس أسس، فى أوائل القرن التاسع عشر، مدرسة ابتدائية فى بوش لتعليم أولادها وبناتها، وكان رئيس الدير وقتها، هو القمص داود الأنطونى الذى صار فيما بعد البابا كيرلس الرابع البطريرك ١١٠. أما علة اختيار مركز بوش بالذات لإنشاء المدرسة فلأنها كانت مركز إدارة أوقاف هذا الدير.

(ب) دير البراموس: أنشأ مدرسة ابتدائية بطوخ دلكة، ويُرَّجح أن يكون ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر.

(ج) دير السيدة العذراء بصحراء أسيوط – والمعروف بأسم الدير المَحرق – أسس مدرسة ابتدائية وأخرى إعدادية عرفتا بأنهما مدارس الدير فى قريتين متجاورتين يتعلم فيهما أولاد المنطقة على أيدى الرهبان الذين لهم المقدرة على القيام بهذه الخدمة.

ولاشك أن الفترة التى عاصرت وجود مئات الأديرة على طول الوادى خلال العصور الوسطى المتقدمة، تميزت بتوافر الكثير من المدارس التى قامت بتعليم الناشئة، ونرَّجح أيضاً أن بعض هذه المدارس لم تكن قاصرة على أطفال الأقباط فقط بل شملت الأطفال المسلمين أيضاً.

ذكرى الأنبا كيرلس الرابع

ورد من هيئة البريد للسيد رئيس لجنة الإحتفال بالعيد المئوى الخطاب الآتى نصه:

وزارة المواصلات
هيئة البريد

رقم الملف ٣٨ – ١ / – لجنة طوابع

القاهرة فى ٣١ / ١ سنة ١٩٦١

السيد / رئيس اللجنة العامة

لتخليد ذكرى الأنبا كيرلس الرابع

جمعية التوفيق القبطية الخيرية بالقاهرة

تحية طيبة وبعد:

بالإشـــارة إلى كتـــاب سيادتكم رقم ٦٩٠ المـــؤرخ فى ١١ ديسمبر ١٩٦٠ المرفق إلى السيد/ رئيس الجمهورية بالخصوص عليه يتشرف بالإحاطة إنه تقرر إصدار الطابع المذكور ضمن مجموعة طوابع مجموعة كبار القوم.

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الإحترام،

وكيل مدير عام هيئة البريد

إمضاء

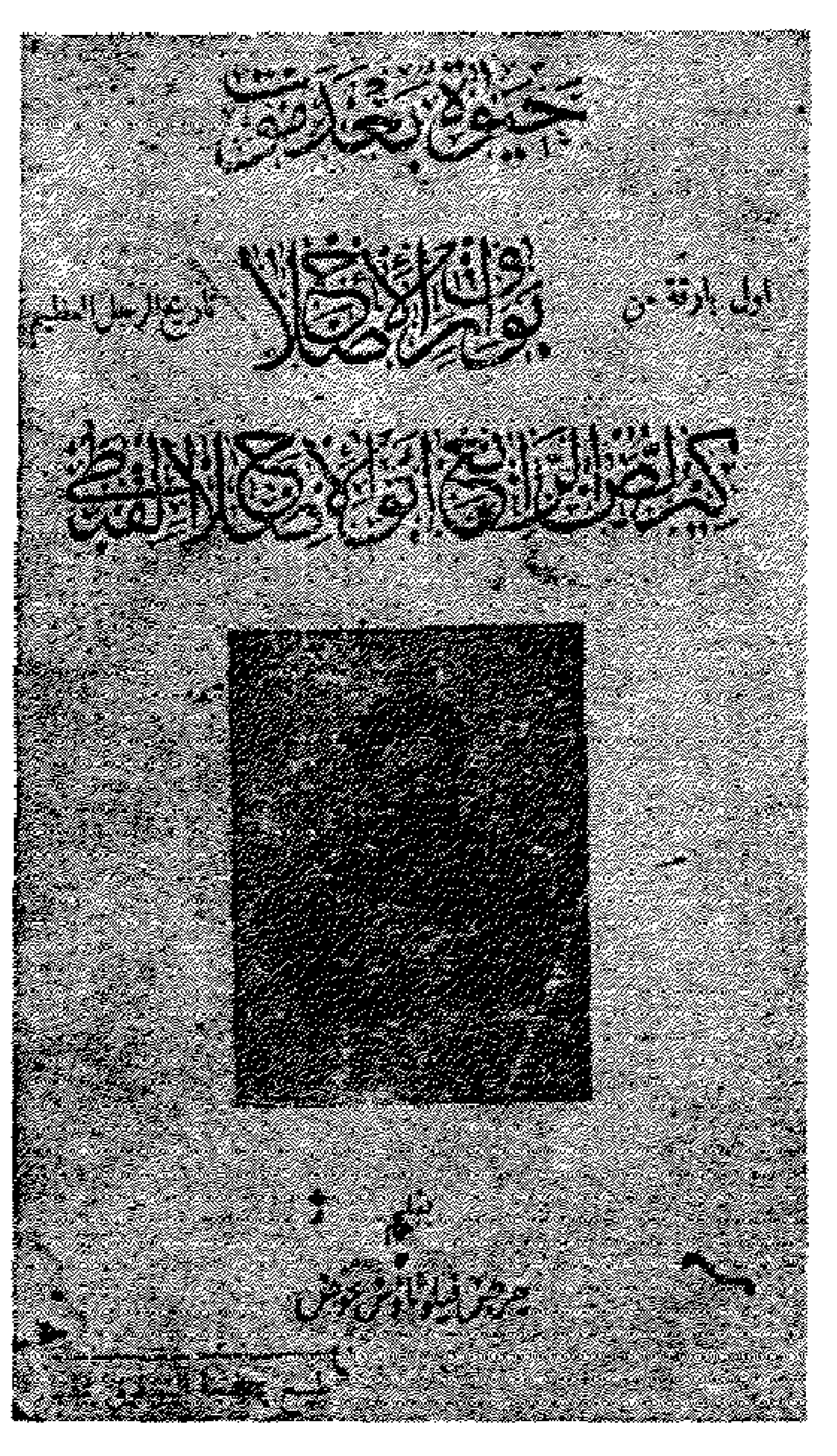
هـــذا وقـــد قام وفـــد من لجنة الإحتفـــال لشكر السيد رئيس الجمهورية والســـيد وزير المواصلات على هذا القرار.

كتب صدرت عن أبى الإصلاح القبطى
البابا كيرلس الرابع

إعداد:
د. عادل فخرى صادق
د. مينا بديع عبد الملك

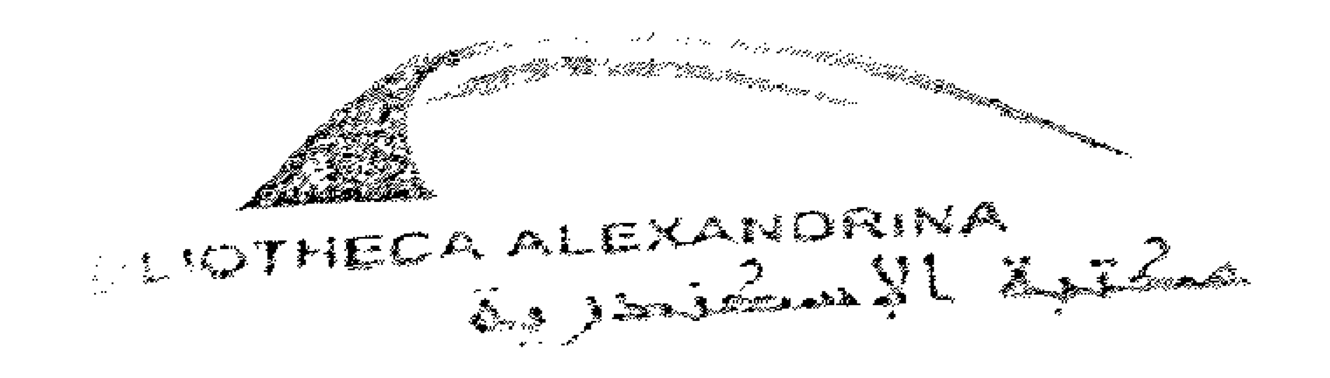


(١) جرجس فيلوثاؤس عوض(١٩١١): حيوة بعد موت – أول من بوارق الإصلاح – تاريخ الرجل العظيم كيرلس الرابع أبو الإصلاح القبطى. مطبعة التوفيق بالقاهرة.



صدر الكتاب وتصدرت مقدمته ثلاث صور، الأولي للأنبا كيرلس الرابع والثانية للمرحوم بطرس باشا غالي فقد صدر الكتاب في سنة وفاته، والصورة الثالثة للبطريرك المعاصر لصدور الكتاب وهو غبطة البطريرك كيرلس الخامس، وقد كان الدافع لكتابة هذا العمل، هو احتفال جمعية الإخلاص القبطية المركزية بالإسكندرية باليوبيل الذهبي لمضي خمسين عاما علي وفاة البابا كيرلس الرابع، وقد دعت المؤلف لإلقاء محاضرة عنه، فقام بتجميع المقالات التي كان قد نشرها عن سيرة هذا البابا العظيم في المجلة القبطية، ومجلة التوفيق، وتاريخ حياة المتنيح الايغومانس فيلوثاؤس ومن مذكراته الخاصة، وما سمعه من الحفّاظ ولاسيما المرحوم يعقوب بك نخله روفيله، ويشير المؤلف إلي أنه أول من أطلق عليه لقب أب الإصلاح.

وُلد البابا كيرلس في بلدة تدعي الصوامعة الشرقية التابعة لجرجا حوالي سنة ١٥٣٢ للشهداء (١٨١٦م) وسُمي بداود ووالده يسمي توماس بشوت، وربما كان فرعا من عائلة حبشية تُسمي نصير كانت قد استوطنت مصر، وذلك حسب المتواتر عنه، ولكن كثير من المحققين في التاريخ أكدوا مصرية العائلة تماماً، وقد تربي داود في الكتاتيب البسيطة التي تعلم الكتابة العربية ومبادئ اللغة القبطية وبعض الحساب الخاص بالزراعة وحفظ المزامير، وقد عمل مع والده في الزراعة وأختلط بالعربان المجاورين للقرية وتعلم منهم ركوب الخيل والسريع من الإبل (الهجين) وأشتهر بالفروسية ومعرفة الصحراء.



أنطلق الشاب داود في سن الثانية والعشرين إلي دير الأنبا أنطونيوس حيث ترهبن علي يد القس أثناسيوس القلوصني رئيس الدير، وقد أظهر حنكه ودراية في تدبير الأمور حتي أن رئيس الدير كان يعهد له بإدارته في حال غيابه.

وبعد أن أمضى سنتين في الرهبنة مات القس أثناسيوس الذي كان رئيسا للدير في تلك الفترة، فأتفق الرهبان على تزكيته رئيسا ولم يكن قد بلغ أربعة وعشرون عاماً، وقد استدعاه البابا بطرس الجاولي (١٨٠٩ – ١٨٥٢م) البطريرك ١٠٩ وأسند إليه رئاسة الدير عام ١٨٤٠م وسماه باسم داود أي أسمه الأصلي، ودعا له بالبركة فعاد القس داود إلي الدير وقام بكثير من أعمال الإصلاح، فوفر للدير ما يحتاجه من طعام في مواعيد محدده حتي لا يتعب الرهبان، كما أهتم بحياتهم الروحية وتطبيق قوانين الرهبنة ونُظمها، وفي أثناء إقامته في العزبة التابعة للدير في بلدة بوش، أحس بإحتياج المكان إلي كُتّاب أو مدرسة، فعمل علي إقامة مدرسة بل وأضاف إليها مكتبة تحوي الكتب الدينية وفتح بابها لمن يريد المعرفة.

وقد أنتهز القس داود نفسه هذه الفرصة فتعلم العربية بقواعدها الصرفية والنحوية فكان قدوة لكثير من الرهبان والعلمانيين، وقد ذكر كثير من الرحالة الذين زاروا مصر ما أولاه البابا كيرلس من إهتمام شخصي بالتعليم فقد ذكرت السيدة بوتشر في كتابها عن تاريخ الكنيسة المصرية عن حضور داود لفترة في المدرسة التي أنشأها الإنجليزي مستر ليدر Leeder، ولكن العارفين له لا يؤكدوا هذه الرواية نظراً لانشغاله الشديد بالدير، وربما كان يحضر بها بعض المحاضرات إذا سمح له الوقت بذلك.

سفر القس داود للحبشة لأول مرة:

كان البابا بطرس الجاولي عالما بقدرات القس داود وحكمته، وعندما صادفته مشكلة في الحبشة وهي خلاف نشأ بين المطران القبطي الأنبا سلامة والأكليروس هناك حيث أراد المطران منعهم من بعض العوائد التي لا تتفق مع صحيح الدين، فأرسلوا يشتكونه للبابا، وقام البابا بدوره بإرسال خطاب إلي المطران بأن يعامل الرعية بالرفق، فرد عليه المطران بأنه لا يستطيع التساهل في الوصايا، وأحس البطريرك بخطورة الأزمة وتدخل رجال الحكومة هناك وخشي من إنسلاخ الأحباش عن الكنيسة المرقسية، فأرس البطريرك وأستدعي القس داود وفوضه في أن يكون نائبا عنه نظرا لتقدم سنه، وطلب القس داود أن يرافقه قسيس أخر يعاونه علي الطريق وفعلا رافقه راهب يدعي برسوم صار مطرانا فيما

بعد علي المنوفية باسم الأنبا يوأنس، وقد أطلع مؤلف الكتاب علي عدة رسائل هامة كان قد أرسلها البابا بطرس الجاولي إلي الحبشة قبل ذلك أولها موجهة إلي الملك كيكار وهي رسالة هامة عن الإعتقاد في السيد المسيح وأنه الأبن الوحيد وأن مسحته لم تكن مثل سائر المسيحيين بفعل منفصل بل لم ينفصل عن الماسح وأن ابن الله له ميلادان: ميلاد من الله الأب قبل كل الدهور وميلاد أخر من القديسة مريم في أخر الأزمان، ثم تلي ذلك صيغة قانون الإيمان كاملة، وقد طلب البابا في رسالته التأكد من الملك بوصول الرسالة وحسن ترجمتها إلي اللغة المحلية، ويطلب كذلك أن تكون رسائل الملك واضحة اللغة حتي يستطيع الرد علي ما يريده، وقد طلب البطريرك أيضا من الملك في أنه حال عدم اقتناعه أن يرسل أثنين أو ثلاثة من طرفه من ذوي العلم إليه حتي يتحدث معهم شفاهة.

وقد أرسل البابا أيضا رسالة إلي المطران يحثه فيها علي الهدوء ومعاملة الرعية بالرفق والبعد عن القسوة والدعاء الصالح بالبركة للجميع "لأن الكلام في أمور الديانة والأمانة لا يكون بالغترسة والفظاظة والحروم بل يكون بالملاطفة والسياسة"، بالإضافة إلي ذلك أرسل البابا أيضا خطاب إلي وزير أراض الحبشة، ويبدوا أنه شخصية هامة، ولكن كل هذه الرسائل لم تكن ذات تأثير قوي مما اضطره إلي إرسال القس كيرلص، كما أن من ضمن المشاكل الثانوية أيضاً استيلاء الأحباش علي مفتاح كنيسة الملاك بدير السلطان التابع للأقباط، ويعرض المؤلف المراسلات التي دارت بخصوص دير السلطان بين كيريو صموئيل أسقف الكنيسة الإنكليزية بالقدس والبابا بطرس، حيث أستند الأحباش إلي الكنيسة الإنجليزية لتعضد امتلاكهم لدير السلطان ، لم يكن هذا كل ما ذهب لأجله القمص كيرلص ، ولكن من المشاكل التي ذهب لأجلها أيضاً ، عادة التسري أو اتخاذ زوجات عديدات عن الأحباش، وهذه الظاهرة حاربها جميع المطارنة الذين أرسلتهم الكنيسة، ويبدو أن القس داود قد أحرز نجاحاً لا بأس به فى جميع هذه الأمور الشائكة، وقد عاد القس داود في ١١ أبيب ١٥٦٨ ش – ١٧ يوليو ١٨٥٢م وكان البابا بطرس الجاولي تنيح فى ٢٨ برمهات ١٥٦٨ ش – ٥ أبريل ١٨٥٢م.

انتخابه مطران عاما باسم كيرلس:

اجتمع الأساقفة والشعب كالمعتاد بعد انتقال البطريرك لأختيار الشخص المناسب، ورشح بعضهم القس داود، وكانت الاتصالات في تلك الفترة بدائية بطبيعة الحال ولا يعرفون هل القس داود سيعود من مهمته أم لا يعود. ولكن بدأت الأخبار تصل بقرب قدومه، قام الكثيرون بتزكيته، وقد كان هناك حزب مناوئ يريد إنتخاب أسقف أخميم

بطركا علي عكس المتبع في ملك الأمور، وقد قامت عدة مشاحنات بين الحزبين، وتدخلت الدولة بناء علي طلبهم وبعد الكثير من المناقشات أستقر الأمر علي رسامة داود مطرانـاً عاماً باسم كيرلس في ١٠ برموده ١٠٦٩ من – ١٧ أبريل ١٨٥٣م حتي إذا مـا بـرهن علي كفاءته تم تقليده بطريركاً، وقد حدث فعلا أنه بعد سنة وشهرين أقيم بطريرك نظـرا لما قام به من أعمال إصلاح في تلك الفترة، وحضر ترقيتـه جميـع أسـاقفة الكرسـى المرقسى عدا أسقفي أخميم وأبوتيج والحبش.

أعمال البابا كيرلس الرابع:

عاصر البابا كيرلس الوالي سعيد باشا وكان أقل تشددا من سلفه عباس باشا، فسمح للأقباط ببناء الكنائس، فأتم البابا بناء المدرسة الكبرى وهي التي أقامهـا بجـوار مقـر البطريركية بالدرب الواسع – بكلوت بك وأوقف عليها عدة منازل، وأباح لكل المصريين التعلم بها علي اختلاف دياناتهم، وكان يتفقد المدرسة بنفسه ويستقبل بها الزوار الأجانـب ويطلب رأيهم وملاحظاتهم عليها، بل أنه كان يجلس في الفصول مستمعاً وعند خروجـه يخاطب التلاميذ " لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم أكن أعرفها من قبل"، وقد تـم تـدريس اللغات القبطية والتركية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية فضـلا عـن العربيـة بهـذه المدرسة، ويذكر أحد المؤرخين الأجانب أن البطريرك كيرلص القبطي أنفق عليها ستمائة ألف قرش!، أستند البابا كيرلص إلي نصوص الإنجيل في حسن معاملة المرأة وأنها يجب أن تنال ما يناله من علم وأفتتح أول مدرسة في القطر المصـري للبنـات، وقـام بفـتح مدرستين وبناء كنيسة بمنطقة حارة السقائين بالقاهرة تيسيرا علي التلاميذ، وكـان البابـا يجبر الآباء علي إرسال أولادهم إلي المدرسة ويشرح لهم أهمية ذلك نظرا لحالة البلاد في ذلك الوقت.

وقد لقي البابا مقاومة من بعض الأقباط ومن معلمي الكتاتيب القبطية القديمة الـذين رأو أن المدرسة منافس لهم، ولكن البابا مضي في إصلاحه وأنتدب المؤهلين للعلم، فعين المُعلم عريان مفتاح أستاذا للغة القبطية لإتقانه لها وكذلك الدكتور إبراهيم بك حلمي الذي كان يتقنها.

ومن إهتمامات البابا التي نسبت له محاولة توحيد الكنيستين القبطية والأسقفية لقلـة الإختلافات بينهم وما وجده من إهتمام الأسقف "تتم" بنشر الكتب القبطية، وقد لقي البابـا مقاومة من متواضعي العلم، حيث هاجموا تعليم اللغات، ولكنهم عرفوا أهمية هذا التعلـيم

عندما طلبت المصالح المختلفة مثل السكة الحديد والتلغراف موظفون يتقنون اللغات لتعينهم، ثم أكمل البابا مجهوداته باستصدار أمر من محمد سعيد باشا بالموافقة علي تعليم أربعة تلاميذ من الأقباط في المطبعة الأميرية ببولاق، وكلف الخواجا رفله عبيد الرومي الأرثوزكسي باستحضار أدوات مطبعة من أوربا، وعند وصول المطبعة كان البابا بدير الأنبا انطونيوس فأمر وكيل البطريركية باستقبال المطبعة بموكب، وللأسف تدهور حال المطبعة بعد انتقال البطريرك.

سفر البطريرك كيرلس للمرة الثانية إلي الحبشة:

كان البابا خرسطوذلوس (١٠٤٦ – ١٠٧٧م) البطريرك ٦٦ أول من سافر إلي الحبشة بأمر الخليفة المستنصر نظراً لنقص مياه النيل، وقد سافر البابا كيرلص إلي الحبشة للمرة الثانية بناء علي تكليف من سعيد باشا للقيام بمهمة سياسية فغادر مصر في أواخر مسرى ١٥٧٢ – ٤ سبتمبر ١٨٥٦م وذلك فجأة دون أن يخبر أحد وكانت تلوح علي وجهه علامات الارتباك والكآبة، ربما خوفا من الطاغية تيوذورس النجاش الحبشي، الذي أرسلت الحكومة الإنجليزية فيما بعد جيشاً لمحاربته، ولما رأي نفسه مهزوما انتحر، وقد رافق البابا اثنين من الأتراك من قبل الباشا، وقد انتهز البابا الفرصة وتعلم منهما شئ من التركية، وقد قيل أن سبب السفر هو وشاية الإنجليز لسعيد باشا بارساله حتي لا يتعدى الأحباش علي الأملاك المصرية هناك في إقليمي هرر وزيلع وفي نفس الوقت يبعد عن نشاطه في مصر، ويبدو أن كل الدلائل تشير إلي أن الفرصة من هذا السفر هو إبعاده عن كرسيه بعض الوقت، وقد سأت الأمور عندما دس البعض عند سعيد باشا بأن كيرلص لا يقوم بالمطلوب منه، فقام سعيد باشا بجيش إلي الحدود المصرية قاصدا التخوم، وفي المقابل قام البعض بالدس عند النجاشي الذي أحسن استقبال البابا، بأن الأخير جاء ليخدعه حتي لا يستعد لمقاتلة والي مصر سعيد، ومن أكد كلام أعدائه حشد الجيوش المصرية علي الحدود، وقد همّ النجاشي بقتل البابا لولا تدخل الملكة، وقد أرسل البابا إلي حاكم مصر يبلغه بنجاح مهمته لولا ظهور الحشود العسكرية وطلب سحب الجيش، وتأكد النجاشي من براءة البابا فأطلق سراحه من خيمة سجنه بها، وكان يذهب إليه الشعب فيقوم بتعميدهم في البحيرة ويضع يده عليهم، وقد عاد البابا بعد ان غاب سنة وأربعة أشهر ووصل القاهرة في ٧ أمشير ١٥٧٤ ش – ١٣ فبراير ١٨٥٨م ، وقد أورد المؤلف مظاهر استقباله وما قيل فيه من أشعار .

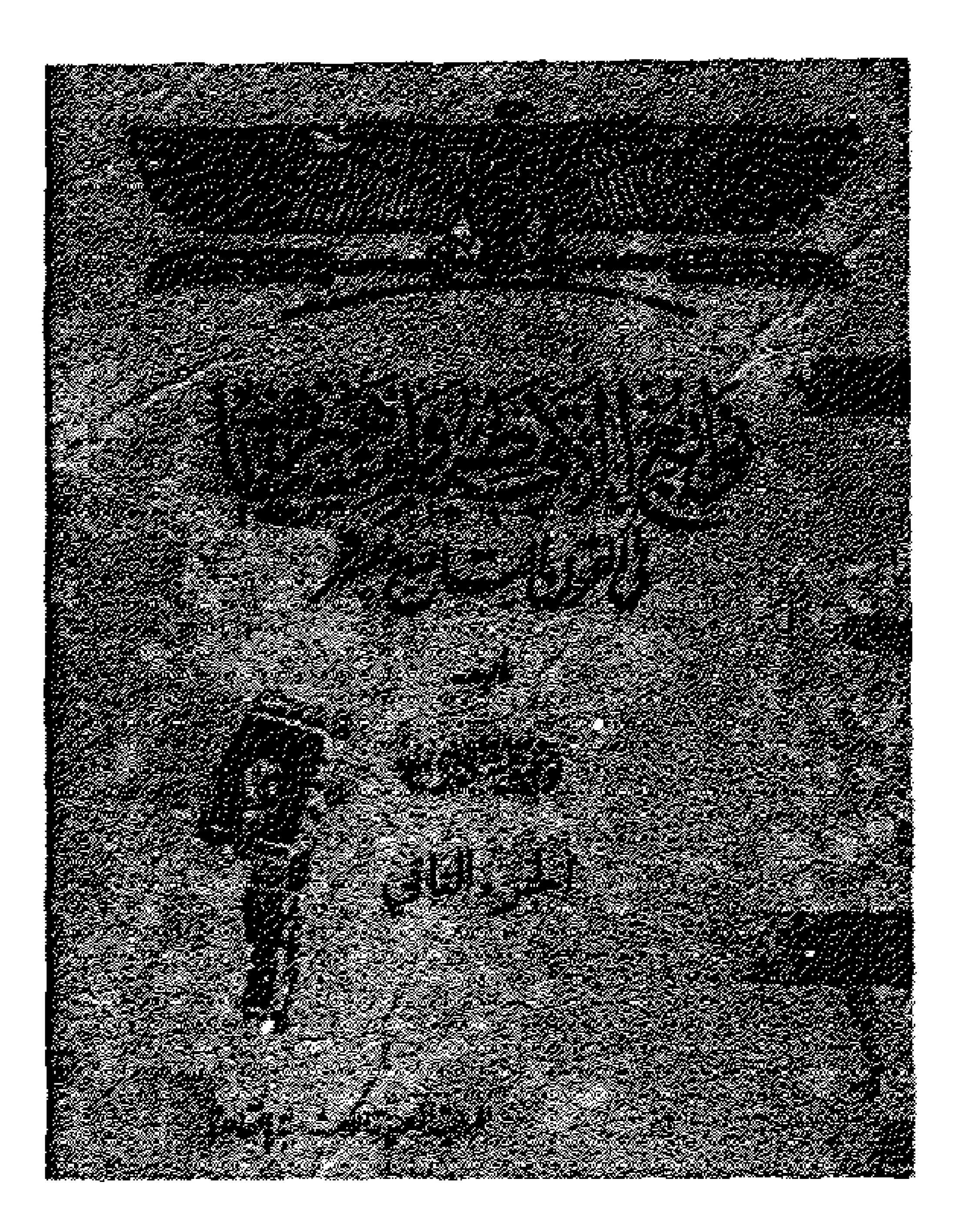
أنشطته بعد العودة من الحبشة للمرة الثانية:

قام البابا بتجديد الكنيسة الكبرى بالأزبكية ووضع حجر الأساس ١٨٥٩م بحضور طوائف وأعيان البلاد ورجال الحكومة، وقد سعي إلي ترقية حال الأقباط بعد صدور الفرمان السلطاني في ١٨ فبراير ١٨٥٦م بالمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات والتجنيد وتقلد الوظائف، فطالب الوالي بتنفيذ بنوده فماطله كثيراً، فذهب البابا إلي دير الأنبا انطونيوس وظل هناك لمدة ستة أشهر ومعه بطريرك الروم الأرثوذكس، ويُقال أن المسيو سباتييه قنصل فرنسا في مصر عرض علي البابا استعداده لمساعدته فيما يختص بمساواة الأقباط بالمسلمين علي شرط أن يتحصل علي تصريح من ملك الحبشة بدخول الرهبان اليسوعيين في بلاده والتوطن بها، فرفض البابا ذلك مما جعل قنصل فرنسا أن يثير عليه سعيد باشا وأدي إلي فقد البابا لحياته، وقد واصل البابا كيرلص جهوده الحثيثة علي اتحاد الكنائس وإرجاع العائلات التي دخلت الكاثوليكية إلي الكنيسة القبطية، وأحس الملتفون حول الوالي بنشاط البابا كيرلص ومقدرته الإدارية والعلمية ومحاولته لتوحيد الكنائس، فأظهروا للوالي أهمية التخلص منه، وتمت عدة محاولات لذلك وكان البابا كيرلص يحس بهذه المحاولات ويتجنبها بحذرٍ، ولكن أخيرا افلحوا عندما احتاج إلي طبيب فأرسلوا له طبيب مع أحد الذين يثق فيهم فدس له السم في الدواء، وعندما أحس البابا بذلك قال لمن حوله "خافوا فقط ممن يقتل النفس والجسد كليهما" وتنيح في ليلة الأربعاء ٢٣ طوبة ١٥٧٧ ش – ٣٠ يناير ١٨٦١م .

ودُفن بين الكنيسة الكبرى والصغرى في الأزبكية في مقبرة جديدة مع الآباء السابقين الأنبا مرقس ١٠٨ ، والأنبا بطرس الجاولي ١٠٩ والأنبا ديمتريوس خلفه.

ويشير المؤلف إلي خصال هامة في شخصية البابا رصدها المؤرخون، منها محبته لأمته و وطنيته وشدة حرصه علي الوقت وصلابته في الحق وكرهه للطلاق والمحافظة علي سلامة العائلات، وقد قام بإبطال عقود الأملاك وحدد سن للزواج بالإضافة إلي أعماله علي إنصاف المرأة ثم اهتمامه بالأوقاف القبطية، وشمل الكتاب بعض الإحصائيات الهامة عن عدد المدارس والتلاميذ، ويرصد الكاتب في نهاية مؤلفه فصلا ممتازاً عن آراء معاصريه فيه من المؤرخين المصريين والرحالة الأجانب، وتظهر في كتاباتهم جميعا تعبيرات متشابهة مثل عودة الحياة إلي الكنيسة القبطية ونمو الكنيسة وازدهارها، كما أضاف المؤلف مجموعة من صور تلك الفترة لبعض الشخصيات الهامة، ويُعد الكتاب تاريخاً جيداً لتلك الفترة في تاريخ مصر الحديث.

(٢) **توفيق إسكاروس (١٩١٣م):** نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر. الجزء الثانى. مطبعة التوفيق – القاهرة.



الكتاب من القطع الصغير يضم ٣٥٢ صفحة، وقد بدأ الكاتب كتابه بتدوين قائمة بأسماء بطاركة الكرسى السكندرى بدأ من القديس مرقس البشير إلى البابا كيرلس الخامس البطريرك ١١٢، وقد عاونه جرجس أفندى فيلوثاؤس عوض فى أضافة أسماء الآباء البطاركة باللغة القبطية حتى يكون نطق الأسم صحيحاً. وبعد تلك المقدمة الغزيرة بالشرح الوافى بدأ الكاتب فى تسجيل حياة وأعمال البابا كيرلص (كيرلس) الرابع أبو الإصلاح القبطى والتى وردت ١٣٧ صفحة . بعد ذلك سجل الكاتب سيرة الأنبا باسيليوس مطران كرسى أورشليم، والذى أقامه البابا كيرلس الرابع مطراناً على القدس عام ١٨٥٥م، فسيرة المُعلم جرجس الجوهرى، ثم المُعلم ملطى، فسيرة عائلة أبى طاقية. وما يهمنا عرضه هنا هو سيرة البابا كيرلس الرابع، فهو يُعتبر بحق واضع أسس التمدن القبطى وأن إليه يرجع تمدن الشعب القبطى وأرتقاؤه فى مراقى النجاح.

بدأ الكاتب فى أستعراض مظاهر الأحتفال الذى أُقيم عام ١٩١٢م فى ذكرى مرور خمسين عاماً على نياحة البابا كيرلس الرابع (عوضاً عن عام ١٩١١م إذ كان هناك حداد عام فى البلاد على وفاة بطرس باشا غالى)، فأورد ما نشرته الصحف، والكلمات التى أُلقيت فى الأحتفال الذى دعت إليه جمعية الأخلاص القبطية بالإسكندرية (تأسست عام ١٩٠٩م)، والكلمات التى أُلقيت فى نقابة الجمعيات القبطية بالقاهرة والتى عُقدت بنادى السيارات.

أستعرض الكاتب بعد ذلك أسماء مجموعة المؤرخين الذين كتبوا عنه وهم: القمص فيلوثاؤس ابراهيم (١٨٣٧م – ١٩٠٤) رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى بالإزبكية، يعقوب بك نخله رفيلة صاحب تاريخ الأمة القبطية المطبوع سنة ١٨٩٨م، ميخائيل بك شاروبيم صاحب كتاب الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث.

سجل بعد ذلك الكاتب ميلاد البابا كيرلس الرابع بقرية نجع أبو زرقالى من قسم الصوامعة سفلاق المعروفة بالصوامعة الشرقية بإقليم أخميم من مديرية جرجا وذلك فى عام ١٨١٦م، لذلك يحمل لقب الصوامعي. ثم أستعرض تفاصيل حياته حتى ذهابه إلى دير الأنبا أنطونيوس وهو فى الثانية والعشرين من عمره.

حدث بعد سنتين من دخوله الدير أن توفى رئيس الدير فأجمع الرهبان على إسناد منصب الرئاسة إليه، فوافق البابا بطرس الجولى على طلبهم وتمت سيامته لهم. كان متشدداً مع الرهبان فى تنفيذ القوانين الرهبانية، فأعلن لهم أن أصول الزهد توجب على من أختار هذا الطريق أن يسير على موجبها فلا يصح له مبارحة مكانه إلا إذا دُعى من رئيسه أو لأمر لابد منه، وحالما يقضى مهمته فلابد من رجوعه سريعاً. وقد أستمر معه هذا المنهج الرهبانى الصحيح حتى بعد أن صار بطريركاً، فأصدر منشوراً بقضى بعدم خروج الرهبان من الأديرة إلا بأذن منه التزاماً بالعهود التى أخذوها على أنفسهم أمام الله والناس.

أستعرض بعد ذلك نشاطه بعد أن صار بطريركاً، منها تأسيسه لمدرسة الأقباط الكبرى بجوار الدار البطريركية بالإزبكية، والمدرسة الإكليريكية فكان يجمع كل سبت جميع الكهنة بالدار البطريركية ويحضر معهم ويناقشهم ويشرح لهم واجبات القسوس وآدابهم وما يُكسبهم مقاماً رفيعاً بين الناس فيتباحثون فى مواضيع لاهوتية بمعرفة القمص جرجس ضبيع كاهن كنيسة دير الملاك البحرى بالقاهرة، إهتمامه بإحضار مطبعة لطبع الكتب المخطوطة تدريجياً من المحفوظ بالدار البطريركية.

بعد ذلك أهتم البابا كيرلس الرابع بتحسين حالة إدارة البطريركية فأنشأ لها ديواناً ووضع له قواعد وروابط على أت شكل حتى لا يتصرف النظار الأمناء المعهود اليهم أمر الأوقاف بغبن، وقسم الأدارة إلى قسمين: قسم يختص بالإشراف على الأوقاف

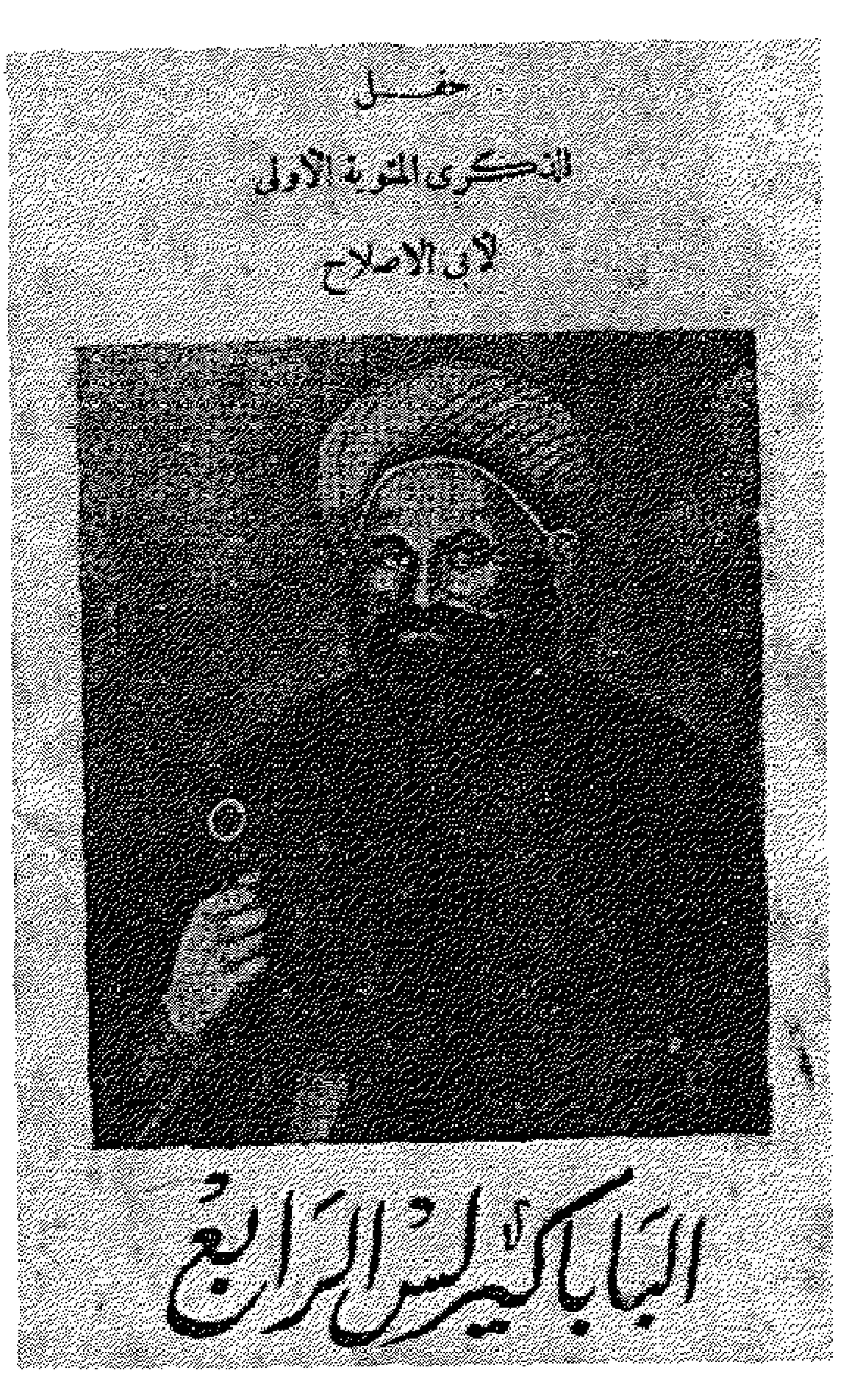
ومحاسبة النُظار وتقديم البيانات المضبوطة بالإيراد والمنصرف، وقسم يختص بالإعمـــال الدينية والشرعية بمباشرة أحد الكهنة ومطران مصر (كان قد أستحدث هــذا المنصـــب) وكلاهما تحت ملاحظته الشخصية.

أيضاً أستعرض الكاتب أهتمام البابا بتجديد بناء الكنيسة المرقسة الكبرى بالإزبكية، فقد كانت الكنيسة ضيقة وسقفها من أفلاق النخيل، فبعد نحو ثلاثة أشهر من عودته مــن الزيارة الثانية التى قام بها للحبشة أن أمر بنقض الكنيسة القديمة التى أهتم ببنائها المُعلــم جرجس الجوهرى فى فترة البابا مرقس الثامن (١٧٩٦-١٨٠٩م) البطريرك ١٠٨، وقــد أبقى على أثرها بحفظ تاريخ بنائها وهو المُسجل على حامل أيقونات الكنيســة الصــغرى سنة ١٥١٧ش (١٨٠١م) لليوم كما أن البناء الجديد أقيم فى موقع الأُصلية، وكان ذلك فى عام ١٥٧٥ش (١٨٥٩م). أستمر الكاتب فى أستعراض الأعمال العديدة التى قام بها ومنه: أهتمامه بتعليم البنات، سعيه الصادق نحو أتحاد الكنائس.

وفى ليلة الأربعاء ٢٣ طوبه سنة ١٥٧٧ش (٣١ يناير ١٨٦١م) رقد فى الرب بعد أن قدم أجّل الخدمات لأبناء أمته وأبناء وطنه مصر، فقد كان بحق أبى الإصلاح القبطى.



(٣) د. زاهر رياض (١٩٦١م): حفل الذكرى المئوية الأولى لأبى الأصلاح البابا كيرلس الرابع. المعهد العالى للدراسات القبطية – مطبعة الجيش – القاهرة.



الكتاب من القطع المتوسط يضم ١٢٥ صفحة، وقد بدأ المشرف على طبع الكتاب وهو د. زاهر رياض، بتسجيل كلمة لجنة الأحتفال سرد فيها بداية الدعوة للأحتفال بهذه الذكرى وقيام البابا كيرلس السادس بتشكيل لجنة لهذا الأحتفال برياسة السيد وكيل المجلس الملى العام بالقاهرة. وفى نهاية شهر يناير ١٩٦١ وجه البابا كيرلس السادس الدعوة إلى الأحتفال بإفتتاح كلية البابا كيرلس السادس اللاهوتية بمنطقة الأنبا رويس ودعوة لحضور المهرجان الخطابى للإحتفال بالعيد المئوى.

فى البداية سجل المشرف على طبع الكتاب كلمة موجزة عن البابا كيرلس الرابع، أعقبتها كلمة البابا كيرلس السادس ألقاها عنه الأنبا يؤانس مطران الجيزة، ثم كلمة السيد كمال الدين حسين رئيس المجلس التنفيذى ووزير التربية والتعليم المركزى فى ذلك الوقت قال فيها: (... إن للدين وللعلم أبواباً فسيحة تؤدى إلى الحرية والتقدم. ولقد قُفلت هذه الأبواب (فى عهد عباس وسعيد)، فجاء هذا الرائد (البابا كيرلس الرابع) وفتح الباب أمام الشعب، وأنشأ المدارس، وحطم السلاسل، وفتح طريقاً واسعاً أمام الشعب، وقاد حركته الوطنية ....).

بعد ذلك جاءت كلمة السيد المهندس يوسف سعد وكيل المجلس الملى العام، ثم كلمة الأرشيذياكون الدكتور وهيب عطاالله (فيما بعد نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف عام الثقافة القبطية والدراسات القبطية) وجاءت الكلمة بعنوان: (البابا كيرلس الرابع والتعليم اللاهوتى). ثم الكلمة التى ألقتها الآنسة إيريس حبيب المصرى (أستاذة مادة تاريخ الكنيسة

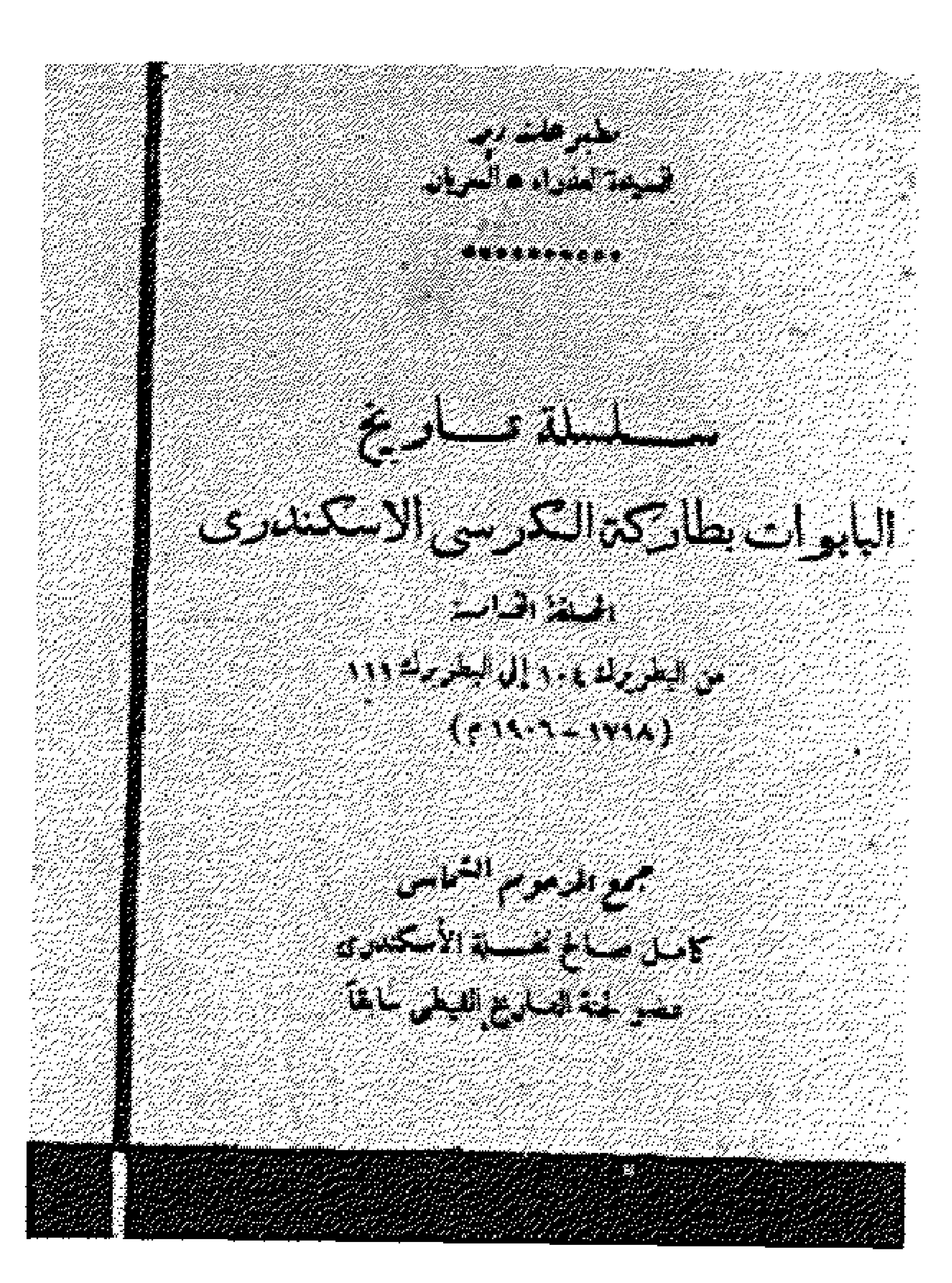
بمعهد الدراسات القبطية) وجاءت بعنوان: (البابا كيرلس الرابع وعنايته بالنهوض بالفتاة المصرية)، أعقبها الكلمة التى ألقاها د. زاهر رياض (أستاذ ورئيس قسم الدراسات الأفريقية بمعهد الدراسات القبطية) عن زيارة البابا كيرلس الرابع لأثيوبيا أظهر فيها ظاهرتان ميزتا تاريخ العلاقات بين الكنيستين الأثيوبية والمصرية، أولهما موقف الكنيسة المصرية من الأستعمار الأجنبى. فإذا ما هدد أثيوبيا خطر أجنبى أو حاول معتدٍ الأعتداء على أراضيها، وقفت الكنيسة المصرية ومعها الكنيسة الأثيوبية فى صف الشعب، وثانى هذه الظواهر هى سعى الكنيسة المصرية المتواصل لإيجاد جو من الود والصداقة وحُسن التفاهم بين الحكومة المصرية والحكومات الأفريقية الأخرى التى تخضع لسلطانها الدينى.

أعقب ذلك كلمة الأستاذ راغب اسكندر المحامى (وكيل جمعية التوفيق القبطية) عن أثر نهضة أبى الإصلاح فى حياتنا الملية والأجتماعية، ثم كلمة الأستاذ عبدالحليم الياس نُصير المحامى (عضو المجلس الملى العام سابقاً) عن فضل أبى الإصلاح على الثقافة والتعليم. أورد فيها قائمة بأسماء المدارس التى أنشأها وعددها ستة مدارس، واسماء النظار التسعة الذين تولوا إدارتها ، وقائمة باسماء بعض نوابغ خريجى مدارس كيرلس الرابع بالإزبكية وحارة السقايين. كما سجل أهتمامه بالمكتبات العامة، والجهود التى بذلها لإعتراف الحكومة بمدارسه والذى أدى فى النهاية إلى أن الحكومة أحتفلت بالعام الدراسى لتلك المدارس وذلك بحضور كبار رجال الدولة وقد تسجلت تلك الإحتفالات فى الوقائع المصرية (الجريدة الحكومية المصرية).

بعد ذلك كلمة الأستاذ الكبير كامل ميخائيل عبدالسيد عن حركة البعث أو النهضة الحديثة فى الشعب القبطى ورائدها الأول كيرلس الرابع. فتحدث عن حال الأقباط فى العصر الذى ظهر فيه البابا كيرلس الرابع، فكانت حال القبط الروحية والثقافية والأقتصادية تدهورت ونزلت إلى الحضيض، وعندما تولى عباس الأول ولاية مصر سنة ١٨٤٨م أذاق المصريين عامة والأقباط خاصة الأمرين، وكان حكمه أستمراراً للحكم التركى البغيض بكل مساوئه ومفاسده. من هنا كانت مهمة البابا كيرلس شاقة، والحمل الذى وضعته الظروف على كاهله ثقيلاً ... كان عليه أن يضمد تلك الجروح الغائرة التى أثخن بها الظلمة جسم الشعب القبطى ويداويها أولاً ... وأن يعمل على إعادة الصحة لهذا الجسم السقيم الذى أصابه الهزال من كثرة ما عانى وتحمل من بطش الغاشمين، حتى يستطيع أن يقف على قدميه ويسير فى ركب الحياة الحرة ويعمل للإنتاج ... وضع يده على المحراث وسار به إلى الأمام.

ورد بعد ذلك فى الكتاب كلمة القمص إبراهيم عطية (مدير كلية البابا كيرلس السادس اللاهوتية).

(٤) **كامل صالح نخلة الإسكندرى (١٩٥٤م)**: سلسلة تاريخ البابوات بطاركة الكرسى الإسكندرى. الحلقة الخامسة (من البطريرك ١٠٤ – البطريرك ١١١). الطبعة الأولى – مطبعة دير السيدة العذراء – السريان – وادى النطرون.



الكتاب من القطع المتوسط يضم ٢٥٦ صفحة، وقد بدأ الكاتب تسجيل سير وأعمال الآباء البطاركة: البابا بطرس السادس (١٧١٨ – ١٧٢٦م) البطريرك ١٠٤، البابا يؤانس السابع عشر (١٧٢٧ – ١٧٤٥م) البطريرك ١٠٥، البابا مرقس السابع (١٧٤٥ – ١٧٦٩م) البطريرك ١٠٦، البابا يؤانس الثامن عشر (١٧٦٩ – ١٧٩٦م) البطريرك ١٠٧، البابا مرقس الثامن (١٧٩٦ – ١٨٠٩م) البطريرك ١٠٨، البابا بطرس السابع الشهير بالجاولى (١٨٠٩ – ١٨٥٢م) البطريرك ١٠٩، بعد ذلك سجل حياة وأعمال البابا كيرلس الرابع فى ٤٩ صفحة، ثم سيرة البابا ديمتريوس الثانى (١٨٦٢ – ١٨٧٠م) البطريرك ١١١. وهنا نود أن نستعرض ما سجله الكاتب عن البابا كيرلس الرابع البطريرك ١١٠.

على مدى ٣٣ بنداً سجل الكاتب حياة وأعمال البابا كيرلس الرابع منذ ميلاده فى عام ١٨١٦م حتى نياحته فى عام ١٨٦١م. وهنا نستعرض أهم الأعمال التى قام بها البابا الجليل.

فى البند ١٢ سجل الكاتب "ترس البركة" الصادر من البابا كيرلس الرابع إلى شعبه بمناسبة توليه مسئولية البطريركية الخطيرة (نقلاً عن النسخة المحفوظة بالمتحف القبطى بالقاهرة) وقد جاء فيها ما يلى:

(١) جميع طوائف المسيحيين الذين أتبعوا أقوال الكتاب المقدس، أنشأوا مدارس ومكاتب حاوية معرفة الألسن ودقائق غموضها وربوا أطفالهم بحسن التربية وأدبوهم أحسن التأديب حتى بلغوا وبرعوا ليس فى لغاتهم المولودين فيها فقط والخاصة بهم بل وأكتسبوا الألسن الغريبة أيضاً التى لم تكن لهم عادة بمعرفتها ولا كان يظن فيهم النطق بحرف منها عن كونهم بلغوا الغاية فى المنطق والقراءة والكتابة.

(٢) وعدا عن تعليم الأطفال فإن المنظور أن أرباب الألسن واللغات الأعجمية قد برعوا فى معرفة اللسان القبطى الذى لا حاجة لهم فيه وكذا اللسان العربى نطقاً وكتابة وقراءةً حتى أن اللسان القبطى قد آل بنسيان معرفته بحيث قد أنمحى رسمه وأندسر بالكلية من أهله وصار مجرد تسمية بلا فاعلية حتى أن القراءة الضرورية المُستعملة بالكنائس لا يعرف معناها أحد ولا مفهوميتها والذى يقرأ لم يفهم ما يقول، ولولا أن اللسان العربى قد وُضع فى الكنائس ترجماناً له لأجل مساعدة المعرفة للشعب لكان يتم علينا قول بولس الرسول: (إن الذى لا يؤمن إذا دخل أليس يقول أنكم قد جننتم وكيف يقول على بركتك آمين).

(٣) ويا ليت هذا اللسان العربى الدارج بين عامة شعبنا كانوا ينطقون به جيداً ويفهمون قواعده العربية فأظن حتى ولا معانى ألفاظه. وذلك ناشئ من كون أن الأطفال عندما يبلغون السن اللازم لإكتساب فوائد التعليم يسلمهم والديهم إلى عرفاء عواجز النظر يعلمونهم القراءة غيباً بالكلام المُستهجن والألفاظ المُحرفة ويدعوا الأطفال يحفظون بعضاً من المزامير بغير معرفة القواعد ولا المعنى فيخرجونهم جهلة فى أقصى الجهل حتى لحدود الرئيس والمرؤوس.

(٤) وإذا كان فرض واجب علىّ مباشرة التعليم والقيام بالسعى فيما يوجب أنتظام العامة والحث على معرفة أصول الديانة وقواعدها وكان أقصى الأمل الشروع فى إيجاد محل للقراءة والتعليم وقد عزمت بنعمة الله أن أشمر عن ساعد الجد كما هو من الواجبات علىّ بحسب ما أنتُدبت إليه بمراحمه أن أكمل قصدى بإعتمادى على العناية الربانية المأهلة إلى كل عمل صالح وهى إرادته تعالى ومساعدة أولادنا حيث رأيت منهم التلهف

لإيجاده والمسارعة لإنجازه ولاح لى من حسن ذمتهم ونقاوة طويتهم إستحثاثهم على ذلك وميلهم إليه بك رغبة ونشاط وإختصاصهم بصالح العمل وأحسن التقويم. وقد رأيتهم دائماً يلهجون بهذا الأمر وكان هذا المقصد جل رغبتنا فقد توفق إيجاد بعض خرابات دائرة من تعلقات الوقف تجاه دار البطريركية وأستصوب أن يصير إنشاؤها محل مُركّب مــن كــم أودة يقيم فيها المعلمون والصبيان يتنقلون منها من مرتبة إلى أخرى وهى من أول مرتبة المبتديان إلى ما يوفق به الرحمان من التعليم بحسب القدرة والإمكان.

(٥) ولغاية الحرص قد بلغت مقايسة تكاليف عمارة الجهة المذكور بما يناهز المائة وخمسين الف قرش (خمسون كيساً). ولما كان جهدى قصير فى إيجاد هذا القــدر نظــراً لضيقَ الوقت وضعف الحال صار لى أمل فى همة الأبناء المباركين أن يمدوا بالإسعاف على قدر الإمكان والطاقة للمساعدة فى إنشاء هذا المحل.

وما كاد يصدر من البابا كيرلس الرابع هذا المنشور حتى بادر الأقباط إلى الإكتتاب لإتمام هذا المشروع الجليل، وقد أفتتح البابا نفسه قائمة المساهمين بمبلــغ خمســة آلاف قرش متعهداً بوفاء ما يحصل من العجز فى تكاليف إنشاء عمارة هذه المدرسة. وقد سجل الكاتب قائمة باسماء المتبرعين وبقيمة تبرعاتهم والتى بلغت ٤٤١٠٦ قرشاً.

أيضاً – يذكر الكاتب – أن البابــا كيــرلس الرابــع عنــدما تسـلم كرســى البطريركية، رأى بثاقب فكره ضرورة إقامة أسقف على كرسى مصر لتدبير شئونه لعظم مهام الكرسى البابوى وضرورة التفرغ لإدارة شئون الكنيسة العامة، فاختار راهباً من دير أنبا أنطونيوس ورسمه أسقفاً على كرسى مصر فى سنة ١٨٥٤م باسم الأنبا بطرس.

مما يُذكر أيضاً للبابا كيرلس الرابع أهتمامه بأمر تعليم اللغة القبطية والألحان الكنسية، وأيضاً فى أيامه بدأ أستعمال التاريخ القبطى فى أنحاء مصر.



